رواية



اعترافات الورد والشوك

إيهاب سلام

اعترافات
الورد والشوك
رواية

د. إيهاب سلام

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

خير الله بن الورد

أنا خير الله بن الورد ، أعطاني ربي قـوى خفيـة ، شكرته عليها ، وعاهدت نفسي ألا أستعملها في الشر . غير أن الشر ظل يطاردني كأني عدو له . أوشـي بـي بعـض ضعاف النفوس للسلطات أني أمارس السحر والشعوذة . تـم القبض علي وأودعت السجن حتى أمتثل أمام النيابة للتحقيق معي . لم أطق الزنزانة . كانت رائحة البول تفـوح فيهـا . النشادر تحطم أنفاسي . خفت من النجاسة . خرجـت إلـى الحارس . كانت قدرتي فائقة ، أركز تفكيري فـي نفسـي ، أصير بعدها شعاعاً . أنفذ من الباب الحديدي للسـجن ، ثـم أعود من جديد أتجسم . ذهبت إلى الحارس الأومنباشـى (العريف الآن) لطفي . وجلست بجانبه على كرسي قريب . شعرت بالفزع في عينيه . سألني : كيف خرجت من السجن ؟ .. قلت : من الباب . سأل : لكن الباب كان مقفلاً فكيـف خرجت ؟ .. أجبت إجابة غامضة : أخرجني ربي . غضب وشدني من يدي . وأودعني الزنزانة القذرة مرة أخرى . لم أطق البقاء فيها . وكانت صلاة المغرب قد وجبت . خرجت شعاعاً ثم تجسمت . واتجهت إلـى المـراحيض النظيفـة . مراحيض حضرات الضباط وربمـا العسـكر . اغتسـلت وتوضأت . انصرفت لأصلي المغرب مـع الجماعـة فـي

مصلى صغير داخل مبني مركز الشرطة . ما كدت أنتهـي من الصلاة وأسلم يميناً ويسـاراً . حتـى شـاهدت وجهـي يصطدم بعيني الأومنباشى لطفي . سألني وأنا أسبح لله تعالى : كيف خرجت من الزنزانة ؟ .. لم أرد عليه كنت مستغرقاً في الحمد لله وسبحان الله والله أكبر . وما كدت أنتهي وهـو يتأملني بعمق وغضب وغليان حتى سألني : كيف خرجت ؟ .. قلت له : أخرجني ربي لألحق بصـلاة المغـرب مـع الجماعة .

نهض الرجل يشدني ثم تراجع لما بدأتُ نافلة المغـرب . ولما انتهيت شدني إلى الزنزانة مرة أخرى . وقلـت لـه : اتركني وأعاهدك أن أعود صباحاً حتى أمتثل أمام النيابـة . فالزنزانة ليست مكاناً نظيفاً يرقد فيه مؤمن أو يضـطجع أو يخلد فيه للنوم . أجاب : لكنها المكان المخصص لأمثالك من السحرة والمشعوذين . قلت : لست بساحر . إنما أنا عبد من عباد الله . غير أنه لم يقتنع بقولي . وطفق يدفعني زجراً .

لما دخلت الزنزانة ثانية لم أطق البقـاء فيهـا . كانـت الحشرات تزحف في كل مكان تتغلغل في الأجساد وتقـرص الجلد أو تمتص الدماء . وكان الآخرون يتلفظون بألفاظ نابية . والحوائط باردة كالحة تثير الغثيان . وجردل البول تنفذ منه رائحة النشادر الكريهة فيدفع إلى التقيؤ . لم أطق صـبراً . كان مركز الشرطة يقع على أرض خلاء تليها أرض زراعية . هناك تدفقت نسائم البرسيم عليلة تحـرك الانتعـاش فـي النفوس . وشعرت أنني رجعت أنساناً من جديد . خرجت إلى

الخلاء دون أن تكون لدى نية العودة ولم أذهب إلى لطفـي لأحدثه مرة أخرى ، لكن قررت أن أركب القطار وأتجه إلى أي بلد آخر .

***

دفعت تذكرة القطار من الأموال القليلة التي كانت معي . انحشرت بين ركاب الدرجة الثالثة ، تاركاً الأقصـر خلفـي متجهاً إلى القاهرة . ربما أختفي وسط الناس ولا يعرفني أحد ولا يوشي بي إنسان . وأعمل هنـاك أي عمـل لأعـيش . وأخفي قواي الخفية ولا أستعملها إلا عند الضرورة .

جلست بالصدفة أمام إنسان بائس . كان وجهه كظيمـاً . وسحنته مربدة . يبدو أنه طفح به الكيل . نظرت إلى عينيه وتسنى أن أقرأ ما يدور في خاطره . وقد جلس بجانبي رجل ضخم الجثة . يمسك عصا في يده يقال عنهـا شـمروخ . وجلس أمامه رجل آخر قصير القامة لكنه ممتلـئ الجسـد . عضلاته نافرة من جلبابه الشفاف الضيق .

ملت على الرجل وقلت له : عد إلى بيتك يا رجل . قال : ماذا تقول ؟ .. قلت : لقد قرأت الآن في عينيك أنك تشـك في امرأتك الطاهرة . وتتهمها بأقذع التهم . المرأة شـريفة . ولكنها خفيفة ساذجة لذلك تظنها سافلة . بقليل مـن التقـويم ودفعها لضبط النفس يمكن أن تحل مشكلتك . قـال الرجـل منبهراً : كيف عرفت ؟ ..

بدا ضخم الجثة مندهشاً وهو يتسمع لكلامـي . وظهـر قصير القامة يتنصت . قلت للرجل : أسمع الكـلام ، وفـي

أقرب محطة أنزل وعد إلى بيتك . لا تتـرك أولادك . ولا تترك زوجتك . ليس حلاً أن تترك الجمل بما حمـل . لمـا أقتنع الرجل بكلامي وعرف أن الحجاب مكشـوف عنـي ، ولكنه مكشوف في أحداث الماضي التي وقعت . ولا أعرف الغيب ، إذ لا يعلمه إلا الله . ترك الرجل القطار. وبـدا أن ضخم الجثة يظن أن غطاء المستقبل مرفوع أمـامي . مـال عليّ قائلاً : أتعمل ؟ .. قلت صادقاً : لا .. قال : ما رأيـك أن تعمل معنا ؟ .. استدرت لأشاهد عينيه . عرفت أن أسمه لهب وأنه يعمل رئيساً لقطّاع طرق في سوهاج . وأنه كـان في مهمة قتل إنسان برئ في الأقصر لقاء مبلغ من المـال . قلت له بهدوء أتميز به : أعمل معك في ماذا يا لهب يا أبـن الشوك ؟ .. أرتعد الرجل لأني عرفت أسمه . وقال : تعمـل معنا فيما تعرفه . تماسك وهو يتحدث إلـى حتـى لا يبـدو ضعيفاً . قلت : أنا لا أعرف شيئاً وإذا كـان عملـك القتـل والسرقة وقطع الطريق فهذه ليست سبيلي ولا أمارس هـذه الأعمال . هز رأسه كأنما أقتنع . حتى وقف القطـار عنـد محطة سوهاج ، فوجدته يهزني حتى أستيقظ من نوم عميق ، وهو يقول : تعال معنا . رفضت غير أنه دفعني . لا أحـب إيذاء إنسان . لكمة مني قد ترديه قتيلاً أو تحدث في جسـده عاهة أو تقعده مشلولاً . لذلك لا أقـاوم . المقاومـة عنـدي تأخذني إلى بر الشر . وأنا أكره أن ترسو مراكبي عند هـذا البر . إن الحياة ضفتان . ضفة إلى اليمين ترسـو عنـدها مراكب الخير . وضفة إلى الشمال ترسو عندها مراكب الشر

. ومركب الإنسان قد ترسو إلى الضفة اليمني في حين وقـد ترسو - في حين آخر - إلى ضفة الشمال . وأنا أحب دائماً أن أرسو بمركبي عند ضفة اليمين . وتساعدني علـى ذلـك قواي الخفية .

***

انقدت إلى رئيس العصابة لهب بن الشوك . وفوجئت أنه لا يرافقه نائبه إنما رهط كبير من السفلة . كانوا معـه فـي المهمة التي أنجزها . وفي دار منعزلة عند أطراف الصحراء توقفت العصابة عن السير . وكلما تلكأت كان لهب يدفعني . أعرف أنه يشعر كأنما يدفع صخرة قوية صادة ، يتألم مـن دفعها لكنه يكتم ألمه ولا يعاود الدفع إلا بعد كثير من الوقت كأنما يأخذ فترة من الراحة في زحزحة الجبل . كان يقـول لنفسه: ما هذا الرجل الضعيف الصخر ! ..

قال لي في الدار :

- يا ابن الحلال .. إما أن تعمل معنا وإلا قتلناك .

سألت ببلاهة :

- ماذا أعمل ؟ ..

قال متطوعاً أن يحدد لي واجباتي المطلوبة مني :

- لا نريد شيئاً . واضح أنك تعرف كل شئ . نريـد أن نأخذك فقط إلى قصر مثلاً ، تقول لنا ما فيه . أين الجـواهر مخبأة ؟ .. أين الأموال مختفية ؟ .. أين الأشياء الثمينة التي من الممكن أن تفيدنا وتكسبنا مالاً لو بعناها .

قلت مبتسماً :

- لكني لم أدخل مدرسة . أبي كان رجلاً فقيراً .. وأمـي مثله . لم يفكرا أن يعلماني . فكيف أعرف الأشياء الثمينة من الأشياء البخس ؟ .. كيف أعرف الجـواهر المزيفـة مـن الجواهر الحقيقية ؟ ..

- والمال؟ ..
- أنا لا أدلكم على شئ . لا يمكنني .
- ألم تقل قصة حياتي ونحن في القطار .
- لا قلت لك مقتطفاً منها .
- إذاً فإن حدسي لم يخب . وعرفت أن فيك شيئاً من الله .

قاطعته قائلاً : سبحانه وتعالى .. هو الذي نهاني عن فعل الشر . ولن أفعله.

قال لهب بقوة : نوري .. خاص عليه .

استخرج نوري نائبه خنجرا من جيبه . وطعنني بقوة في قلبي . سقط على الأرض أنزف دماً . حملني اثنان من أفراد العصابة والدماء تنزف بشدة . وتصنع خطاً دموياً طـويلاً . واتجها إلى الصحراء القريبة وهما يحملان الجثة الهامـدة . وألقوا بي في مغارة . ما كادا يخرجان حتى التـأم الجـرح وعاد من جديد النبض إلى الجسد . وبدأ القلب الممزق يتدفق فيه الدم بسرعة عادية . ولأول مرة أكتشف هذه الخاصية في جسدي . كنت إذا جرحت في الماضي أحس أن جراحي تلتئم بسرعة ، وعرفت في ذلك الحين أن قتلي مستحيل .

عزمت منذ ذلك الوقت أن أتدخل في حياة الأشـرار دون أن أهاب أحداً منهم . أردت أن أنقلهم من الضفة الشـمالية إلى الضفة اليمينية . وكان على أن أنتقل بين الضفتين . أعظ وأعود إلى ضفتي الفضلى .

***

لبثت يوماً أو بعض يوم في المغارة . كان الليل قد دخـل إلى حيز الوجود . وأغرق الصحراء الصفراء مداداً أسود . وكتب المداد على صفحة الكون أن تأفل الأضـواء . حتـى النجوم والكواكب في ذلك اليوم كان الغيم يحجبهـا ومعهـا القمر . وساعد الليل أن يحقق أمره في الإظلام التام .

خرجت من المغارة قاصداً مركز الشرطة . هناك سـوف أبلغ عن مقر العصابة وأفرادها . وأبلغ عن الجريمـة التـي أقترفها لهب بن الشوك في الأقصر . وجاء ليستقر فـي داره بعيداً عن الأنظار .

سمعت في الطريق صراخاً . ويد تكتم الصراخ في حقـل من حقول القصب . أخذت طريقي وسط الحقـول وصـرت أتتبع صوت الأنين . أدركت أنها امرأة تقاوم رجـلاً يريـد الاعتداء عليها . وقفت على رأسه وهو يقاومها لتخضع وهى تناضل ضده لتفلت . في وجهه شهوة عارمة وفـي وجههـا ذعر مفزع . قلت له :

- ألا تستحي يا رجل ؟!..

ارتعد الرجل وهو ينظر نحوي . لم يتبين وجهـي فـي الظلام . ويبدو أنه أرتعد من وقع المفاجأة . ورأيته بعيني

الثاقبتين عرفت فيه لهباً . هذا الجبان يغتصب فتـاة طالمـا اشتهاها وكانت تتمنع . وظل يطاردها وهى تحـول دون أن يصل إليها . وتربص بها في ذلك المساء حتى ينال مراده . وفوجئ برجل يروعه . نهض ليشاهد هذا الرجل ويعنفه لأنه قطع عليه متعته ومنعه من أن يحصل عل وطره . ونهضت الفتاة تجري إلى داخل القرية تفلت من ذلك الـوحش الـذي هاجمها .

أمسك بي وصرخ : مالك أنت ؟ !..

شعر كأنه يمسك جسماً صلداً قوياً . تراجع ، كأنما شـعر أنه أمسك بهذا الجسد من قبل وأصابته رعشة . تأملني فـي ضوء باهت يصل من القمر ، ذلك الذي كان يخترق الغـيم رغماً عنه ويلقي ضوءه المبهر مصـارعاً ظـلام الليـل . وسرعان ما يتجمع الغيم ليحـول دون وصـول الضـوء . صراع بين القمر والغيم لا يهدأ . عرفني والنـور يكشـف وجهي ثم يختفي بحلول الظلام ، نطق صارخاً:

- من ؟ ..لم يكن يعرف أسمي . عاد يصرخ : ألم نقتلك بالأمس ؟ .. قلت : أنا لم أرك بالأمس فكيف تقتلني ؟ ..

دفعني أمامه والفشل ظاهر على وجهه . اخترقنا حقـول القصب . وهو يدفعني فترتطم يده بالصخر . وأنا أمشـي لا أريد أن ألكمه أو أصفعه حتى لا يموت أو يصاب بالشلل أو تحدث له عاهة . أنا لا أضر أحداً . ضميري المتيقظ يحـول دون أن أصيب أحداً بمكروه .

فوجئ أفراد العصابة وهم يرون الرجل الذي قتل بالأمس يدفعه رئيسهم الآن . دخلت معه الدار وهو يقـول : هـذا الرجل ساحر .

قلت لهم : لا تصدقوه . لو كنت سـاحراً لاسـتطعت أن أفلت من قبضته .

قال الرجل يسألهم : إذا لم يكن ساحراً فكيف قتله نـوري بالأمس ويعود حياً اليوم ؟ ..

قلت أفسر الوضع : نزفت دماً والتأم الجرح ولم أمـت . هذا كل ما في الأمر .

قال نوري صارخاً : يا عالم .. أنا رشقت الخنجر فـي قلبه ، وسقط مترنحاً وشر شر الدم منه (وتوجه إلـى السافلين اللذين حملاني قائلاً) وحملتماه إلى المغارة ميتـاً . كيف يعود إلى الحياة ؟ ..

قلت : إرادة الله .

أذن المؤذن من الجامع البعيد لصلاة العشاء . قلت لهـم : عن أذنكم حان الآن موعد الصلاة . بهتوا جميعاً وأنا أخرج من دارهم دون أن أفتح الباب . أردت أن أريهم شيئاً حتى لا يواصلوا مطاردتي . وصلت الجامع بخطوات ثابتة سريعة . قبل أن تبدأ صلاة العشاء . وانخرطت مع الجماعة في إخبات تام .

***

نمت داخل المسجد . لم يكن ممكناً أن أسير حتى محطـة القطار دون أن أنال قسطاً من الراحة ، فأنا لا زلـت بشـراً

أتعب وأنام وآكل وأشرب وأقضي حاجتي كغيري من البشر . رأيت خادم المسجد يقفله . نفذت من بابه وتمـددت علـى الحصير واستغرقت في النوم . كنت أنوي في الصـباح أن أذهب إلى الضابط لأقص عليه جرائم لهب وعصابته ، تلـك التي قرأتها في عيونهم جميعاً . لما جاء خادم المسجد عنـد الفجر غادرت المسجد وعدت لأصلي مع الجماعـة . ولـم يلاحظ خادم المسجد وجودي داخل المسجد ، لأني كنت قـد نفذت إلى مكان الوضوء. وهناك اغتسلت . كان الماء منعشاً بارداً . وكان الجو يميل إلى الحرارة ، لذلك كان الماء مثيراً للغبطة والبهجة والسعادة . ولما انتهيت عدت من جديد إلى صحن المسجد أؤدي صلاة السنة ثم كـان الجميـع قـد تراصوا أصبحنا جسداً واحداً يؤمه إمام واحد . يركـع فـي وقت واحد ، ويسجد في زمن واحد . وينهض عند التكبير .

راجعت نفسي في الطريق . أين هي الأدلة على أن هـذه العصابة ارتكبت هذه الجرائم . لن يصدق أحد أننـي أقـرأ حوادث الماضي من العيون . وهذا سر لا أذيعه على أحد . حقاً أخاطب الآخرين بما أعرفه لكني لا أدعي أننـي أقـرأ الماضي إنما أستلهمه فقط . الآخرون يشعرون بذلك لكنهم لا يتمكنون من مواجهتي بل يعتقدون أننـي أستشـف أحـداث حياتهم . الوحيد الذي عرف ذلك ربما لهب .لأنـي أطلعتـه فجأة على حادثة قريبة . . أما الرجل الذي عاد إلى زوجـه فقد ظن أنني أعظه وأنني عرفت حقيقة واقعه من اكفهـرار وجهه .

قررت بعد تردد أن أركب القطار وأتجه إلى القاهرة لعلي أجد فيها رزقاً . عملاً . لكن ماذا سأعمل ؟ .. إنني أعـرف كل شئ إذا أمعنت النظر في العيون . إذا أمعنت النظر إلـى إنسان أعرف حقيقته . إذا أمعنت النظر إلى كتـاب أعـرف كنهه . وإذا تعمقت في شئ أعرف جوهره ، لكني أمي بـلا شهادات . حقيقة أعرف القراءة بيد أنني لا أعرف الكتابـة . حالت ظروف أبي الفقير أن أتعلمها . والقـراءة عرفتهـا بفضل قواي الخفية . قررت أن أعمل أي عمل في القاهرة ، وفي نفس الوقت ، أن أتعلم ، فعمل الخير الذي وهبت نفسي إليه دون علم عمل ناقص . كما أن علما بلا خير أمر سيئ .

تركت مصير لهب وعصابته للمولى سبحانه وتعـالى ، فهو قادر على عقاب الظالم والقاتل والمغتصـب . وبـدأت أبحث في القاهرة عن عمل أستطيع أن أجد منـه رزقـي . ووجدت فعلاً ذلك العمل في شركة من الشـركات الكبيـرة للتصدير والاستيراد . كان عملي اليومي هو تنظيف مكاتـب السادة الموظفين . وحمل الرسائل من بعضهم إلى الـبعض الآخر . وإحضار ما يطلبونه من قهوة وشاي وسحلب وقرفة وحلبة . انتظمت في دراسة ليلية لأتعلم الكتابة وسرعان مـا أتقنتها . ولما كان الوضع الاجتماعي للإنسان يرتفع كلما سما في العلم . بدأت أستذكر للشهادة الابتدائية . كان من السـهل بعد أن تعلمت الكتابة أن أقرأ الكتاب مرة واحدة وأستطيع أن أكتبه بالحرف الواحد . كانت تلك إحدى قـواي الخفيـة أن أتذكر كل ما قرأته وأستطيع أن أدونه بفهم وعمق . وتمكنت

أن أكتب القرآن الكريم ، وكنت قبل ذلك أعرف قراءته فقط . بل تمكنت أيضاً أن أعرف اللغة الإنجليزية بسهولة ، بعدما تعلمت كتابتها . لكن عند تحرير الامتحانات كنـت أكتفـي بدرجة عالية غير النهائية حتى لا يكتشـف أمـري . كنـت أحاول أن أخطئ عمداً أو أغير في أسلوبي عن ذلك الأسلوب الذي كتب به الكتاب المدرسي . أو أدس أفكاراً ضحلة تجعل المصحح يظن أن الذكاء خاب لدى التلميذ الممتحن .

كان هناك نظام لدراسة أربع سنوات من الثـانوي العـام للحصول على ما يسمى شهادة الثقافـة ، فقـدمت اسـتمارة لأكون واحداً من الممتحنين في هذا النظام . وكان على أن أستذكر دروس أربع سنوات وأمتحن فيها جميعا . ولم أتعثر . كنت واثق الخطى . أعرف كيف أجيب وكيف أخيب حتى لا تفتضح قدراتي .

جاءني موظف في يوم أن أبلغت مدير شئون المـوظفين بنجاحي في نظام السنوات الأربع يقول : مدير عام الشركة يريد مقابلتك . كان قد مضى على وجودي في الشركة سنتان . وعرفت في السنة الثانية أن الشركة قد بيعت بأكملها إلـى شركاء جدد متضامنين . وعلى رأسهم مدير قوى الشـكيمة يرهب الموظفين لكنه كان لا يتنقل في أماكن الشركة المختلفة إنما يرسل جواسيسه وراء الموظفين يترصدونهم ثم يطلـب الموظف المهمل أمامه ليعنفه ويؤدبه في حالة إهماله أو يثيبه في حالة قيامه بواجبه . طلبني ليهنئني على نجاحي . وقيـل لي أنه قد ينقلني من صف الخدم والسعاة إلى صف الكتبـة .

وما كدت أدخل وأمد إليه يدي ليصافحني متناسيا الفجوة بيننا . حتى بوغت . إذ وجدته لهباً بشحمه ولحمه . وعرفت مـن عينيه أنه أشترى الشركة هو وعصابته بأموالهم المسـروقة. وأنه أراد أن يتستر على جرائمه بوضع اجتمـاعي جديـد . كنت خلال الفترة السابقة قد عاهدت نفسي ألا أقرأ الماضـي من عيون الآخرين ، لذلك كنت أقدم للموظفين احتياجاتهم من المشروبات دون أن أتتطلع إلى أي واحد منهم . والتفت وقتها إلى المذاكرة الدائبة . لكن في ذلك الوقت دفعني الفضول أن أعرف ما أوصل لهباً إلى هذه الشركة .

قال لهب محتداً :

- أنت تعمل في شركتي دون أن أعرف .

قلت : أنا أعمل فيها قبل أن تشتريها .

قرأت في عينيه أنه يتستر وراء الشركة في إدارة أعمـال مشبوهة وخشى في التو واللحظة أن أكتشف ذلـك وأهـدده بالتبليغ عنه للسلطات . يتاجر في السلاح . يزعم أنه يتـاجر في البطاطس والطماطم والخضـراوات والفاكهـة عمومـاً ويستورد أنواعاً أخرى من الفاكهة ويدس له فيها المهربـون السلاح . يستورد السلاح من الخارج وحبات التفاح تغطيه . ويرشو رجال الجمارك حتى لا يكشفوا نوع الصفقات المريبة . ويرشو رجال الشرطة فـي الطريـق الزراعـي الـوعر والصحراوي الضيق حتى يغفلوا عن السـلاح ذلـك الـذي يصيح أنا هنا خذوني .. صادروا أموالي .. حتى لا أختـرق صدور الأبرياء . كنت قد قرأت عن نوبل ذلك الذي أخترع

البارود وحاول أن يكفر عن خطيئته بجائزة نوبل للسـلام ، فكيف أواجه ذلك الموقف ؟ .. أرى أمامي في عينيه الخطـأ ولا تمتد يدي لقتله وذلك الفعل هو الصواب . لكنـي لسـت بقاتل . ما أنا إلا رجل يتمتع بقوى خفية ولن أستعملها حتـى لا أرتكب خطيئة .

قال : لا أريدك في شركتي . قلت : وأنا أريدك أن تتوب عن فعل الضرر بالناس . سألني : وما هو الضرر بالناس . قلت له : بيع السلاح .

انفجر مبهوتاً : كيف عرفت ؟ .. ذلك سر لا يعرفـه إلا القليل .

قلت : وأنا من هذا القليل .

صرفني من الشركة نهائياً، وأنا أعرف أنـه سـيتداول أمري مع شركائه ، شرير ديمقراطي . كان هناك صراع في داخله بين إغرائي وضمي إليه .. وبين إقصائي . وقد أقـوم بالتبليغ عنه للشرطة . ولو أنه كان يعـرف أن الإغـراء لا جدوى منه . وأن الإقصاء لن يلين عزيمتي .

***

كنت أفكر أن ألج باب الشرطة للإبلاغ عن جرائم لهـب لكن لم تكن لدي أدلة ، لذلك لم أدخل ذلك الباب . لكن لمـا قرأت في عينيه كل شئ ، وعرفت أين تقع المخابئ السـرية للأسلحة التي يبيعها للراغبين فيها خلسة . وأين المسـتندات الدالة على ذلك وأين .. وأين .. قررت أن أبلغ عنه . كانت القدرة على الكتابة في الماضي غير متاحة لـدي لـذلك لـم

أستطع أن أبلغ الشرطة كتابة . ولـم يكـن باسـتطاعتي أن أستعين بأحد فضلاً عن أن الجرائم التي ارتكبت لم يكن هناك إثبات على ارتكاب لهب لها وأفراد عصـابته . لكـن الآن أستطيع أن أكتب ، تزودت القدرات الخفية بـالعلم .فمـا إن بلغت الحجرة الصغيرة التي أسكنها فوق سطح أحد المبـاني حتى سطرت بالقلم كل ما عرفته عـن لهـب وعصـابته . أرسلت الخطاب في التو واللحظة إلى قسم الشـرطة القـائم بالقرب من مخازن الأسـلحة . وتلقـت الشـرطة الرسـالة وتحركت . لم يستطع لهب أن يرشو أحداً لكنه اسـتطاع أن يفلت هو وعصابته . وعرفت من الجرائد أن لهباً قد أفلـت لكن المهربات ضبطت ووقعت في أيدي الشـرطة . وتمـت محاكمة تجار السلاح غيابياً وصدرت ضدهم أحكام بالإدانة . وحكم القضاء بمصادرة شركة لهب وبيعها في المزاد العلني وفاء للغرامات التي وقعت على الشركاء في الجرم .

عدت من جديد إلى الشارع وعانيت من البطالـة وقلـة الرزق . كنت أستطيع أن أصبر دهراً على عـدم الشـرب والغذاء . يكفي أنني أتنفس وكأن جسدي يصنع من الهـواء غذاء أنشط به ولا آكل .

طُرق باب حجرتي يوماً في المسـاء . توجسـت مـن الطارق ،غير أني فتحت الباب . ووجدت نوري نائب لهـب في العصابة يقف أمامي شاهراً رشاشـاً ثقـيلاً . أمطرنـي برصاصات سريعة بمجرد أن رآني .انتثرت الدماء من كـل جسدي . ولم يتمكن الجسد من أن يقف صامداً سقط أمامـه

والدماء ملأت الحجرة . (وعرفت فيما بعد لم لـم يحجـز جسدي الرصاص مع أنه يحجز اللكمات . فقد كان المجـال المغناطيسي الذي يحيطني يسمح بنفاذ الرصاص فيـه لأنـه يجذبه إليه) . ووقف زمناً أمام جثتي يشاهد عـودتي إلـى الحياة ، فيوما طعنني في قلبي غير أنه وجدني عـدت إلـى الحياة . لما اطمأن أن الجثة لا حراك فيها ، قفـل البـاب ، ومضي يطير من السعادة . كيف يطير من السعادة وهو قاتل . مع أن القتل يبعث علي الاشمئزاز . يبدو أن ضميره مات . وما هو إلا أداة للهب بن الشوك .بدأت الجروح تلتئم طاردة الرصاص المرشوق في كل ناحية من الجسد . تظهر ثقوب مصفاة واسعة العيون ، فأخـذت العيـون يصـغر حجمهـا والجروح تندمل رويداً رويداً . و طُردت كل الرصاصـات بفعل الالتئام . ودبت الحياة من جديد في الجسد الهامد .

***

كان على أن أبحث عن لهب ونوري وأعضاء عصابتهما ، لكن إمكانياتي الخفية لم تسعفني . اضطررت فـي ذلـك الوقت أن أطلق شاربي ولحيتي ، وأرتدي عمامة وأتحول إلى رجل دين ، حتى أخفي معالم وجهي جيداً وتركت الحجـرة إلى حجرة أخرى ..حتى لا يعود نوري يستطلع وجودي . لم أكن خائفاً لكن كنت أبتعد عن مشاكل الشر ومطارداته ربمـا مبارزة الرذيلة تدفعني لارتكاب الشر . ولعلي كنت خائفاً فأنا لا أعرف ما إذا كان جسدي سوف يقوم بالالتئام مرة أخرى حينما تصيبه رصاصات غادرة . فلم أعرض نفسي للخطر .

يجب ألا يعرف أحد الأشرار أن خير الله بن الورد لا يـزال على قيد الحياة . وعلى أن أطاردهم حتـى أنسـفهم نسـفاً ويتخلص الناس من شرورهم .

أثناء بحثي عن عمل صادفت أحد الوجوه التـي أعرفهـا تماماً . وجه من وجوه العصابة التي لا تكف عن بث الرذائل في أرجاء البلاد . وسألني نوري : أتبحث عـن عمـل ؟ .. قلت له وأنا أجاريه : نعم ولكني لم أجد . قال : تعال معـي أعرفك برجل يساعدك على ذلك .

كانت العصابة قد بدأت نشـاطها فـي حـي الباطنيـة ، وغيرت من عملها من تجارة السلاح إلى تجارة المخدرات . وكانوا يبحثون عن مروجين للسموم في أنحاء البلاد . لمـا واجهت لهباً مرة أخرى لم يعرفني ولو أنني عرفته . لم يكن شيئاً قد تغير فيه غير أنه حلق شاربه الغليظ مثلما حلق لحيته الخفيفة . وأنا أطلقت الشارب واللحية . سألني :

- أنت درويش ؟ ..

قلت متصنعاً صوتاً جديداً :

- لا .. إنما الحاجة جعلتني أطلق الشارب واللحية .. ولو كنت درويشاً لحففت الشارب .

- أتريد أن تعمل ؟

طبعاً في هذه المرة كنت أعرف عمله الجديد . عرفته من عينيه . وعرفت ما فعله منذ مصادرة تجارته فـي السـلاح واختفائه واتجاهه بعد ذلك إلى استغلال الأموال التي تبقـت في حوزته في تجارة المخدرات . ولم يكن يريد أن يعرض

العصابة لأي نوع من الخطر لذلك حاول جذب أمثالي مـن البؤساء والمتعطلين ليروجوا لسلعته الملعونة .

قال لهب : خذ هذه الحقيبة إلـى محـل الجـواهر فـي الصاغة صاحبه أنور كسباني . أعطها له . وهات منه حقيبة أخرى .. وأسرع إلى هنا بها..

عرفت من عينيه أن الحقيبة تتزاحم داخلها المخـدرات .. وأن الحقيبة الأخرى سوف تتكاثر فيها الأوراق ذات المئذنة . وفتحت الحقيبة في منعطف خال من السابلة وتأكدت مـن فحص عيني . أسرعت إلى الشرطة ودخلت إلـى الضـابط ورويت له القصة ، أخذني إلى المأمور . وأمـر المـأمور بتجهيز حملة واحدة تتجه إلى الباطنية حيث مقـر لهـب و العصابة . وحملة تتبعني وأنا ذاهب إلى محل أنور كسـباني في الصاغة .

أدليت بشهادتي بصوتي الطبيعي أمام المحكمة . مال لهب على نوري وقال له : أقطع ذراعي لو لم يكن ذلك هو خيـر الله بن الورد الذي وشى بنا في تجارة السلاح ، ومزقته أرباً أرباً برصاصاتك في حجرته . قال نوري مصدقاً لا تقطـع ذراعك يا صاحبي . أنا أقطعه لو لم يكن هو المدعو خير الله . استغرب كيف طعنته في المرة الأولي وعاد إلى الحيـاة . وقد غربلت جسده في المرة الثانية واسترد وعيه من جديد ، ذلك الرجل سوف يطاردنا أينما ذهبنا . قال لهب : أنت الذي دله علينا . قال نوري ممتعضاً : وهل كنـت أعـرف ؟ .. رجل معمم ذو لحية وشارب وبـائس . كيـف أزعـم أنـه

المرحوم خير الله . وسمعا بعد قليل أنطق بأسـمى وأدلـي بشهادتي ولا أقول إلا الحق . كنت شاهد ملـك كمـا قـال رئيس النيابة العامة . خرجت من المحكمـة وقـد أعجبـت بوظيفة النيابة العامة . وقررت أن انتسب إلى كلية الحقوق . وعرفت أن الحكم صدر على العصـابة بالأشـغال الشـاقة المؤقتة لكل من لهب ونوري . والسجن عشر سنوات لبقيـة أفراد العصابة . قلت أخيراً تخلصت من شرهم بقوة القانون .

***

شعرت أن حياتي تمضي دون أنيس أو جليس . قررت أن أتعرف على زميلة من زميلاتي . فتاة فقيرة مثلي ومن عائلة مكافحة . أفضيت لها بسري وهو أنني أبيـع الجرائـد الآن ويمدني بها متعهد من متعهدي الجرائد يفتح محله في بدايـة شارع سعد زغلول . أتعامل مع مئات الأسر ، أصعد إليهـا بالأهرام والأخبار والمصـري وآخـر سـاعة والكواكـب والبعكوكة لو طلبها واحد من الزبائن الراغبين في الضحك . ينتهي عملي في الساعة الثامنة . وأخطف قدمي إلى الكليـة حتى أستمع إلى المحاضرات . وشرحت لها كيف أنني بعـد شهادة الثقافة استطعت أن أحصل على التوجيهيـة بسـهولة والتحقت بكلية الحقوق مدرسة الوزراء كأني سأكون وزيراً .

توثقت علاقتي بها حتى أنني زرت أسرتها فـي الجيـزة سمح والدها كاتب المخبز أن أدخل إلى شقتهم المكونة مـن حجرتين وصالة ودورة ميـاه والمطـبخ . يتـزاحم أولاده

الأربعة في حجرة واحدة وهذه البنت الطالبة . وهو ينفـرد بحجرة هو وزوجته . شربت معه الشاي وتكلمنا كثيراً عـن المستقبل . وقلت وأنا أنظر إليها : سوف يكون مستقبلناً باهراً بإذن الله . قال الرجل المؤمن : المستقبل بيد الله .

ترددت من حين لآخر عليهم حتى أنهم دعوني إلى مائدة عامرة ببطة وفتة وأرز بمناسبة ليلة النصف من شعبان وزان المائدة الطرشي والجرجير . أكلت معهم حتى شبعت . وأنـا أتأمل العائلة المتماسكة والأولاد المجتهدين . كانـت الفتـاة رأس الأبناء ثم جاءوا بعدها واحداً بعد الآخر . أولهـم فـي نهاية التعليم الثانوي وآخرهم في بدايته .

فجأة لم تعد تأتي إلى الكلية . شغلت بتخلفها عن حضـور المحاضرات . وإذا بي أفاجأ بالخبر الصاعق مـن أبيهـا أن الفتاة خرجت في الصباح ولم تعد منذ أسبوع إلى البيـت .. من أختطفها ؟ .. أين اختفت ؟ .. وما أسباب اختطافها ؟ .. لم يكن سهلاً أن أعرف . أنا لا أقرأ إلا لغة العيـون . هـي اللغة التي تروى حوادث متعلقة بالشخص وحده . وفي عيون والديها وأخوتها جهل مطبق بموضـوع اختفائهـا . تأملـت عيون البقال والكواء ومؤجر عجلات وصاحب صـيدلية .. رأيت قصصاً كثيرة وعرفت أموراً عجباً ، لكنها لـم تكـن تتعلق بحادثة اختفاء صفاء .. زميلة دراستي وحبيبتي .

انكسر قلبي . وكدت أبكي لولا تماسكي .

أبلغ والدها الشرطة . وجاءت تحريات الشرطة خالية من أي إشارة إليها .

انزويت على نفسي في الكلية .
يوماً جلس بجانبي شاب وسألني :
- مالي أراك مهموماً ؟ ..
-أبداً .. لا شئ .. هكذا الهم رسم على وجهي .
- وكم تدفع لمن يساعدك على إزالة قمامة الهم ؟ ..
تأملته . وقرأت في عينيه . وعرفت على الفور أنه قواد . يعمل لدى بيت لتجارة الرقيق الأبيض .. وتجولت في أعماقه وهو يعرض على بضاعته . أكتشف أنه رأى صـفاء . وأن الفتاة تعمل الآن عند تجار الرقيق . وظهر لـي أن القـواد يدري كيف وصلت صفاء إلى الدار . هـو دلهـم عليهـا . أصبحت واحدة ممن يلتقي بهن في دار النجاسة . بل رأيـت زميلة لنا أخرى اختفت مثل صفاء لم أعد أشاهدها منذ حادث الاختفاء . كل ذلك قرأته في عينيـه وهـو سـاكت يتأمـل انتصاراته السابقة وينتظـر أن أبـدي اسـتعدادي للـذهاب لاقتناص المتعة المحرمة من هذه الفتيات .
قلت أجاري القواد :
- سوف أجزل لك العطاء بعد أن أنال لذتي .
- إذا أخذتك إلى بيت عامر بالانبساط ، ونلت وطـرك ، فكيف أضمن أنك ستدفع لي ؟ ..
- أدفع الآن .. كما تحب .
كان يحدثني في الطريق عن الدار حديث العارف بهـا . وعرفت من عينيه أن هذه الدار يقودها رجل لا يظهر أبداً . وأن النساء تخطف وتمارس البغاء بالقوة والقسر . كنت أريد

أن أتأكد أن صفاء التي في ذاكرته هي صفاء التي أحببتها ، لذلك انتقلت من الضفة اليمنى للحياة إلى الضفة اليسرى . أبحرت في النهر الفاصل بين الضفتين . ودخلت دار النار بقدمي لكنها لم تصبني بأذى . وعرض على المشرف على الدار صور الفتيات . وشاهدت صورة صفاء من بينهن فاخترتها . قال المشرف : إنها مشغولة الآن . قلت : سوف أنتظر حتى تنتهي . قال : أتشرب كأساً من الويسكي ؟ .. قلت : لا إن الخمر تؤذي معدتي فأنا مصاب بقرحة . ويرخي أعصابي . وما أدراك ما ارتخاء الأعصاب ! ..وكأن الرجل يسليني فطفق يجاذبني أطراف الحديث . انتهزتها فرصة لأعرف من عينيه من صاحب الدار أو بالأصح مدير هذا البيت الفعلي ومنشئه . غير أني لم أكتشف شيئاً . كانت كل الصور في عينيه مقابلات مع الزبائن . يعرض عليهم الصور . ويتناول الثمن . ثم يدخل الرجل إلى حجرة اللذة حينما تفرغ العاهرة من الرجل الذي معها . ولما ينتهي الزبون يأخذه إلى خارج الدار باحترام وإجلال . ويوصيه أن يأتي إليهم بأصحابه . صور مختلفة مع أشخاص مختلفين . ما أبشع هذا الإنسان الذي يرقد على الضفة الشمالية ، يعب من الملذات ويرتكب الموبقات ولا يفكر لحظة أن يبحر إلى الضفة اليمنى حيث الأمان والسلام والفضيلة ويمكن أن يجد اللذة الحلال .

انتهت صفاء من رجل كان معها . ودخلت عليها . هجمت على لما رأتني وتحققت من شخصيتي ، وقالت :

خير الله .. أنقذني .. أنقذني . لم أستطع أن أقول لها أنني أعلم بكل شئ . ولم يكن سهلاً أن أخترق بها الجدار ، فأنا أتحول شعاعاً أما هي فلا تتحول وستصاب بـأذى . سوف أفلت إلى الخارج لكنها سوف تتحطم وتموت . لكن فكرت في فكرة أخرى لم تخطر على بالي من قبل . كنت أخشى فيما مضى أن ألكم رجلاً فيسقط قتيلاً ، فلم لا أحطم الجدار بجسدي فيسقط وننفذ منه إلى الخارج . قلت لها حتى لا تكتشف قواي الخارقة : أغمضي عينيك . وتصنعت أنني أمسك كرسياً وبجسدي اندفعت واصطدمت بالجدار . فأنهار جزء من الحائط وخرجنا من الثغرة التي صنعتها ثم من البوابة دون أن يلاحظنا أحد . وأخذتها إلى بيت أبيها بسيارة أجرة وهي بملابسها الداخلية . وكانت تسألني : أنا مندهشة أن يسقط الجدار بضربة كرسي . قلت لها : الجدار هش . كانت النافذة في الحجرة مقفلة بإحكام حتى لا يهرب منها جواري القرن العشرين ولا أعرف لم لم أحطم خشبها لعل ذلك بسبب علوها وقصر قامتي .

عرفت منها أنه حدث اصطيادها صباحاً اقتيدت إلى هذه الدار النائية . وهناك أجبرت على ممارسة البغاء وإلا يتم تعذيبها بالسياط . استسلمت لأقدارها ، ولم تتمكن من الهرب . ولم تفارق حجرتها ليلاً نهاراً . وكانت تأكل بها وللحجرة دورة مياه تقضى فيها حاجتها وتغتسل . وإذا فكرت أن تتمنع . كان يدخل جلاد حجرتها ويفرقع بالسوط مرة واحدة على جسدها ، فلا تتورع أن تعارض مرة أخري . اتفقت معها ألا

أروي ذلك لآلها حتى لا يشـعروا بفداحـة المأسـاة التـي تعرضت لها ابنتهم . اتفقنا على أنها فقدت ذاكرتهـا بسـبب اصطدام سيارة بها وظلت شاردة في الشوارع حتى استردت الذاكرة لما التقيت بها فجأة . واشتريت لها قبـل أن تـدخل البيت فستاناً حتى لا يدركوا أهلها الحقيقـة إذا مـا رأوهـا بالقميص الداخلي وهو غلالة رقيقة تغطي جسدها . انتظرت هي في سيارة الأجرة حتى اشتريت الفستان وارتدته بعـد أن خلعت الغلالة وسائق السيارة يصيح غاضباً : ليس هكذا يـا سيدة . عدت بصفاء إلى أهلها فزغردت أمها . ولم أقرأ في عينيها أي تساؤلات عن انكسار الحائط وتحطمه بالكرسـي وفتح هذه الثغرة بسهولة في الحائط . ونسوا في زحمة اللقاء أن يسألوها أين ذهبت ملابسها القديمة وكيف اشـترت هـذا الفستان الجديد .

لكن سألتني بعد أسبوع من النقاهة :

- كيف عرفت أنني في هذه الدار النائية ؟ ..

قلت لها : دلني عليها القواد الذي خطفك .

- كيف عرفت القواد ؟ ..

شهقت وأنا أقول : إنه معنا هنا . وهناك زميلة لنـا مـا تزال هناك . لا بد أن أبلغ الشرطة .

ذهبت إلى مركز الشرطة وطلبت مقابلة المأمور . كـان هو المأمور الذي شاهدته عند الإبلاغ عن تجارة المخدرات . رقي من رتبة صاغ إلى رتبة بكباشي واستلم ذلك المركـز . لم يعرفني لأني كنت في القضية الأولي ملتحياً ، ولم يتـذكر

الاسم فكم من أسماء ترد عليه . أبلغته أن أحدهم أراد إغوائي بدخول بيت للدعارة فوافقته حتى عرفت مكانه .. وها أنا ذا أقوم بالإبلاغ عنه .

بالصدفة البحتة كان مدير بيت الدعارة الكبير يتفقد الحائط الذي حدث في حجرة صفاء . ويستغرب أن يكون أحد مـن العملاء هده ، وأفلت منه مع المرأة الرقيق . وكانت المـرة الأولي التي يراه فيها المشرف على الدار ، فقد كان لا يظهر على مسرح الجريمة واسترعته تلك الحادثة فأراد أن يراهـا على الطبيعة . وأتضح لمأمور مركز الشرطة أن هذا الرجل ما هو إلا لهب السجين الهارب من ليمان أبـي زعبـل .. وكان قد أفلت من عقوبة الأشغال الشاقة المؤقتة بسبب إدانته في الاتجار بالمخدرات (ويبدو أنه يتنكـر تحـت أسـماء مختلفة حتى أنهم لا يعرفون أنه مدان أيضـاً فـي جريمـة الاتجار بالسلاح) . لقد استطاع أن يفلت من السجن وتـاجر هذه المرة في أعراض النساء . امتهن تجارة الرقيق الأبيض عنوة ورغم أنف النساء .

تحررت زميلتنا في الكلية وعادت إلى دراستها .

ولم أطلب للشهادة في المحكمة لأن الحالة كانـت حالـة تلبس . ولم يكن هناك داع لشهادة أحد . لذلك لم ألتق في هذه القضية بلهب بن الشوك ، ولو أنني كنت السبب في دخولـه السجن من جديد . كما هيئ لي .

***

انضممت إلى كتائب الأخوان المسـلمين الزاحفـة إلـى تحرير فلسطين الهادفة إلى طرد اليهود من الأراضي المقدسة . تدربت في صحراء سيناء على استعمال السلاح بعيداً عـن معسكرات الإنجليز . كانت سيناء لا تزال تحتلها القـوات الإنجليزية وتحتل قناة السويس وتحول دون دخـول سـيناء للمصريين فكنا نتسلل عبر القناة لدخولها .

كنت منشغلاً بالتدريب على السلاح فلم ألتفت إلى الأفراد الذين يتدربون معي . ولم أمارس هوايتي في معرفة الأسرار من العيون . ولم أكن أدري أن خائناً أنضم إلينا أسمه لهـب بن الشوك ، ذلك لأنه تخفي تحت لحية وشارب وشارك فـي التدريب على السلاح بعيداً عن المكان الذي أتـدرب بـه . وكان قد فر من الشرطة قبل القبض عليه وتسلل إلى سـيناء وعرفت فيما بعد أنه أنضم إلى الأعراب الذين يتعاملون معه في تجارة المخدرات . وكان همـزة وصـل بـين القبائـل المنحرفة والقوات الإسرائيلية . وطلبوا منه مقابل مبلغ مـن المال كبير أن يتعرف على تحركـات وتـدريبات الأخـوان المسلمين . وكأي مسلم أعلن إسلامه أنضم إلى المجاهدين . وصار ينقل الأخبار أولاً بأول إلى الإسـرائيليين . دون أن يدري أحد . وللأسف الشديد كنت لا أحس بالخيانة من حولي . ولم أنتبه إلى انضمام لهب إلى المجاهدين . ولعل السـبب في ذلك هو ما قلته من أنه كان يتدرب في المكان الذي لـم أكن أتدرب فيه . ولو أنه كان يسترق السمع في كل الأماكن ويعرف التطورات والتغيرات في صفوف الأخوان المسلمين

، وينقلها على الفور إلـى القيـادات الإسـرائيلية . عميـل مدسوس في الصفوف لم يتورع عن خيانة بلاده لأن جـوهره شرير ولا يعرف الضمير ولم يتعامل به . ولم يلتق بي وإلا كان قد تنازل عن مهمته وهرب من الميـدان لأنـه أصـبح يعرف قواي الخفية تماماً.

تركت الدراسة في كلية الحقوق حتى أنظف فلسطين مـن هذه الجمرة الخبيثة ومعي أخواني المسلمين . قلت لنفسـي : ما دمت قادراً على الفتك وأنا أتعامل معه في وقت السـلم ، فلم لا استغل إمكانياتي وهاهي الحرب على الأبواب .

التحمنا مع العصابات الإسرائيلية حتى تقهقروا . ويبدو أن لهباً لم يكن قد حصـل علـى الخطـط وأفشـاها للجانـب الإسرائيلي لذلك حدثت لهم الهزيمة . تمكنوا فيمـا بعـد أن يمحقوها . لقد دخل معنا لهب إلى ميدان القتال حسب الخطة المحكمة . وكان الليل قد ساد ولبس الظلام كل الموجودات ، وتسلل لهب هارباً وتفردت العصـابة الإسـرائيلية بـالموقع الأعلى . بينما نحن نسير في السهل المنبسط . وفجأة انهالت علينا الرصاصات والقنابل والرشاشات ترشنا من كل جانب . سقطنا في مصيدة . وتبعثر أغلبنا أشلاء . واستطاع البعض منا أن يكمن في مستقر لم تصله رصاصات . وانهالت على قذيفة قطعتني أرباً وكان الظلام دامساً فلم يبصر مصـرعي أحد . تسلل من بقي على قيد الحياة عائدا. والبعض الآخر أو الأغلبية أستشهد . وعادت العصابات الإسـرائيلية تتجـرع

كؤوس النصر بعد أن سقيت بكؤوس الهزيمة .. في مرحلـة سابقة .

تبعثرت أجزاء من جثتي في كل جانب . وفقدت الوعي ، لكن خير الله لا يموت إلا إذا أراد المولى سبحانه وتعـالى . فقد بدأت الأجزاء تتقارب .. تتقارب .. تزحف بعضها إلى بعض . والتأمت . وصارت كلاً واحداً . وعدت من جديد إلى الحياة . ونظرت حولي لم أجد إنسـاناً . كانـت سـاحة الوغى خالية إلا من جثث الشهداء . نهضت من كبوتي ، ولم أعد إلى القيادة . بدأت أبحث عن ذلك النذل الـذي أوشـي بخطة القتال وتحركات المجاهدين . لقد شاهدته وهو يتسـلل ولم أفكر في أن أعود إنما فكرت أن أبقى لأدافع عـن بنـي جلدتي ضد الذئاب الغادرة . تسللت عبر الحدود متجهاً إلـى تل أبيب . دخلتها والدنيا ترقص مع الظـلام رقصـة وداع النهار . كنت قد تتبعت أثـر الجنـود الصـهاينة وعرفـت مستقرهم . من بعيد استطعت أن أعرف أن لهباً أنضم إليهم .

رأيته عن كثب وقلت له :

- ألن تكف عن إيذاء الناس يا لهب ؟ .. ها أنت تـؤذي الوطن .. آه من خيانة الوطن .. آه من خيانة أبناء ملتك ..

فزع وقال :

- كيف دخلت هنا ؟ .. قرأت في عينيه الخيانة منذ دخوله سيناء وتعامله مع القبائل المنحرفة حتى تجسسـه لحسـاب إسرائيل . إنه يبحث أين يعيش الشر فيسعى إليه . قلـت أرد على سؤاله : أنا أدخل وأخرج دون أن يحس بي أحد . تلجلج

. وتصنع أنه ينادي على جندي ليحميـه ، فلمـا اسـتدرت لأعرف أين يقف الجندي حتى أتفادى هجومه علي ، أفلـت هارباً . بحثت عنه في كل مكان وأنا أتخفـي عـن أعـين الجنود . وتغافلت عن قتلهم بغية الوصول إلى لهب . لكنـي فقدت أثره فعدت من جديد إلى المعسكر . واختلست رشاشاً طفقت أطلق رصاصاته في كل اتجاه . وتسـاقط الصـهاينة الذين قتلوا أخواني بالأمس .

لم أستطع أن أواصل القتال وحدي ، فقد أعلنت الهدنـة بين القوات العربية والقوات الإسرائيلية . ووجـدت أن أحترم الاتفاق كغيري من العرب وندمت بعـد ذلـك أننـي احترمته . ولو كان واحد من الإسرائيليين له إمكانياتي لذبح كل العرب في أسرع مما يتصور إنسان . لكـن احترامـي للمواثيق والمعاهدات كبل قواي تماماً .

***

عدت إلى كليتي ، وأنا أجتر مرارة الهزيمـة . قـابلتني صفاء وسألتني :

-أين كنت ؟

قلت لها : مع المجاهدين في فلسطين .

سألت : كان معكم زميل من زملائنا تعرفه جيداً .

قلت : لم أره . ويبدو أنه أستشهد . أتعرفين لقد كان لهب ذلك السافل الشرير مندساً في صفوفنا وأبلـغ العـدو عـن تحركاتنا .

سألتني : كيف عرفت ؟ ..

قلت : رأيته . لم أعرفه في البداية ، لأني كنت أركز على فهم واجباتي العسكرية . ثم شاهدته وهو يتسلل بعيـداً عـن الموقعة التي هزمنا فيها .

- هذا الرجل كالعلقة .. لا تترك قفا من تلتصق به .

- ما علينا .الآن سوف أن نستذكر وننتهي من امتحاناتنا .

كانت صفاء قد سبقتني بسنة كاملة تلك التي قضيتها فـي الجهاد . وتخرجت قبلي ثم لحقت بها . ولما كنت قد حصلت على درجة امتياز في كل المواد . قدمت طلباً إلـى الكليـة لأصبح معيداً لكن الكلية اعتذرت لعدم وجود وظائف خالية . كذلك امتنعت النيابة العامة في تلك السنة عن قبول معـاوني نيابة ، كأنهم خجلوا أن يأسفوا على قبولي فتـذرعوا بهـذه الحجة الواهية . ويبدو أن فقري وفقر أبي كانا وصمة عـار في جبيني ، لذلك التحقت بمكتب أحد المحامين من ذوي العلم الضحل . وقبلني الرجل حتى أحمل عنه عـبء المكتـب . واستمررت على صلة بالأخوان المسلمين . ولم يعرف أحـد ما أصابني في آخر المعارك الطاحنة حيث تنـاثرت جثتـي أشلاء . ولو أنهم عرفوا أن السرية التي كنت أنتمـي إليهـا أبيدت أغلبها . وأخبرت الجماعة أنني عـدت سـيراً علـى الأقدام من داخل فلسطين إلى العريش ، ومن هناك حملنـي القطار إلى نهاية الضفة الشرقية .. في القاهرة . وكتمت سر التئام جسدي في قلبي ولم أبح به حتى لصفاء .

سألتني يوما :

- ألن نتزوج ؟ ..

أسهمت طويلاً ثم قلت لها :

- لا مانع .

ظننت من إسهامي الطويل ما يفيد أنني لن أقبلهـا بسـبب قهرها وإجبارها على ممارسة البغاء ، لكن كـان سـرحاني بسبب أنني محام فقير وهى محامية فقيرة ، فماذا يحدث لـو تزوجا ؟ .. سلسلة من الفقر لا تنتهي ولن تنتهـي . ورغـم قواي الخفية لم ألجأ إلى الشر حتى أضخم خزانتي بالمـال . وكان سهلاً على أن أتبع ذلك الطريق لكـن أخلاقـي التـي زرعها أبي في صدري حالت دون ذلك .

تزوجنا بالفعل وانضمت صفاء إلى مكتب المحامي الـذي أعمل به . وتركت بيت أبيها لتشاركني شقتي الجديدة في حي باب االشعرية . وكانت تتكون من غرفتين في منزل متداع ، لكن شكرنا الله أن وفقنا إلى هذه الشقة بعد لأي .

قامت الثورة وعرفت من أحد زملائنا أن زعيمها الخفـي كان أحد رجال الأخوان المسلمين . كان يحضـر جلسـات القيادات الاخوان ، ولو لم ينضم رسمياً إليهم . وصدرت إلينا الأوامر أن نبارك هذه الثورة ، ولو أني شخصياً لم أعلن عن مباركتي لها . بدأت أرى أمامي لهباً من جديد . حينما حدث الصراع بين القيادات . كنت أرى الزعيم القـديم خيـر الله متجسداً في صورة ذلك الزعيم . ولهب يطـارده ويتـولى الزعامة بدلاً منه .. وحينما خسف به وأخفاه في سابع أرض ومنع ذكر أسمه ، تأكدت أن لهباً عاد من فلسـطين وأنـدس

وسط صفوف الضباط وأصبح زعيمهم . وقام بذلك الانقلاب .. لكن شكل لهب يختلف عن شكل الزعيم . سـخرت مـن نفسي وقلت لها : اصبح لهب يشكل لي هماً دائماً أطارده .. ولعله يطاردني هو الآخر ..

***

كنت أتمني أن تنجب لي صفاء أطفالاً .. ربما يكتسـبون صفاتي الخفية . لكن صفاء لم تحمل . ولما عرضتها علـى الطبيب ، اكتشف أن صفاء أجريت لها عملية ربط للمبايض . المجرمون السفلة كانوا يريدون لها أن تستمر في ممارسة البغاء دون أن تحمل في جوفها طفلاً حتى لا تتعقد عملياتهم الدنيئة . ولم يكن أمامهم سوى إجراء هذه العملية . وقد تـم إجراؤها دون أن تدري ، لذلك لم أقرأ في عيني صفاء مـا يفيدني بشأن إجراء هذه العملية . وهمست للطبيب ألا يـذيع شيئاً عن هذه العملية ويطمئن صفاء أنها سوف تلد .. ولكـن عليها أن تجري عملية معينة هي نفخ المبايض . وهي عملية خطرة لا تساعد على الإنجاب إلا بنسبة ضئيلة جـداً وقـد تؤدي إلى العقم الكامل إلى الأبد .

لهب بن الشوك

أنا لهب بن الشوك . سمى جدي أبـي بهـذا الاسـم . وسماني أبي باسمه .. حتى أصبح من السعداء . نحن عائلة مشتعلة بالنار حماسنا لعمل الشر لا يفتر . نحب الانحراف . نهوي الرذيلة . نجري وراء المتعة الحرام . كانـت هنـاك مئات الأفدنة أملكها . أنواع مختلفة من المحاصيل أزرعها . كثير من الأرقاء خاضعون لي أحركهم . أمـارس الإجـرام وأنا أغني . أمارس الفسق وأنا أصيح . أعيث فـي الأرض فساداً وأنا أرقص .

جاء أحد مندوبي الفساد إلى يدفع بسخاء . يريد أن أقضي على أب بخيل ، يكنز المال ، يمنعه عن أبنائه . ناديت على نوري . ساعدي الأيمن أن يعد الرجال . سنقوم بحملة فـي الأقصر للقضاء على رأس البخل .

ركبنا القطار بالدرجة الثالثة بغية التخفي . ارتدينا ثيابـاً حقيرة . تخفي تحتها الخناجر . عين نـوري تسـألني عـن أسباب ولوج ذلك الطريق . وأنا في خزانتي أموال طائلـة . أرد على نوري هذه هواية . هواية السرقة .. سفك الدماء . أحب ممارسة الجريمة بلذة . لا يفهمني نوري لأنه لا يعرف السبب الحقيقي ، وأنا لا أصرح له بالسبب .

دخلنا على البخيل ، وهو يأكل كسرة خبز وقطعة جـبن قديمة .. فزع الرجل وقال : من أنتم ؟ .. قلت لـه : جئنـا نخلص الدنيا من شرورك . سأل مستغرباً : ماذا فعلت مـن شرور ؟ .. قلت : منعت مالك عن بنيك . قال : هذا مـالي

وأنا حر فيه . لم لا يجاهدون مثلي . إنهم لو جاهدوا فسوف يكونون حريصين على مالهم أكثر من حرصي على مالي .

لا يتقدم أحد بقتل هذا البخيل . أنا احظي بهذا الشـرف . إن الرجال حرس من حولي . يحرسونني من أي عـدوان . وأنا سيد العدوان . ضربت المائدة بيدي . طار طبق الجـبن وسقط على الأرض . جحظت عينا البخيل وهو يرى كسرات الخبز أزيحها بيدي بعيداً عن المائدة . يقول لي : إنها نعمـة تلك التي تلقيها على الأرض . قلت وأنا أستخرج الخنجر من تحت الثوب القديم . هذه ليست نعمة . إنهـا يـا غبـي أداة لاستمرارك في الحياة . ولو كان جسدك تعود سف التـراب كالنبات ، لكان التراب هو هذه الأداة . قال لي : أنت كافر . قلت ضاحكاً : إذاً أنا المسيخ الدجال . هل قـرأت علـى جبيني أنني كافر . وطعنته في عنقه ، فسقط لا ينطق والدماء تسيل منه في هدوء كأن لا دماء في عروقـه بسـبب سـوء تغذيته . أختار في القتل مواضع غير مطروقة . لا أطعن في القلب . أو في الأمعاء . أو في الصدر.

تركنا البيت الصغير .. ونحن نعـرف أن ذوي البخيـل سوف يدخلونه بعد قليل . سوف يصرخون لقتلـه ، سـوف يبلغون النيابة العامة عن جريمة ارتكبت . وسـوف يؤشـر المحامي العام بحفظ القضية ، لأن الفاعل مجهول . وسـوف يحمل إلينا أهل البخيل ثمن المهمة بعد الاستيلاء على التركة . ولن يتخاذلوا . ولن يحنثوا في عهدهم خشـية أن يلحقـوا جميعاً بالقتيل .

ركبنا القطار وهناك لاحظته . كان فتى ضئيل الجسـد ، مهلهل الثياب ، يبدو معدماً . رأيته يقـرأ أفكـار رجـل .. ويعظه . أدركت أنه يملك قوى خفية . إن هذا الفتي يمكن أن يفتح أمامي خزائن الدنيا .. أغترف منها كما أشاء .

حينما طلبت منه أن يعمل معي ، وأن يكون رهن إشارتي . رفض . الكلاب يرفض عرض لهب . لهـب إذاً سـوف يدفعه دفعاً إلى الاستفادة منه .لكن خير الله لم يكن سهلاً . تم اقتياده إلى وكري . واستمر يرفض أن يتعامل معـي . إنـه عرف أنني ارتكبت جريمة قتل في الأقصر . يعرف الكثيـر عني وعن رجالي . يرويه بوضوح كأنما يقرأ فـي كتـاب مفتوح . يقرأ ما يجول في رؤوسنا كأن هناك سـلك خفـي يربط بيننا وبينه يضعه في رؤوسنا ينقل له ذلك السلك كل ما يدور في رؤوسنا . عرف أسمي وعرف جريمتي وعـرف كل شئ ارتكبته منذ قليل كنت أفكر فيه .

كان أمامه إما الانصياع .. وإما الضياع . ولما اسـتنكف العمل معي أمرت نوري أن يواريه التراب . وطعنه طعنـة نجلاء وانبثق الدم يجري مدراراً . وحمله اثنان من الأعوان ليلقياه في مغارة في الجبل حتى يتحلل الجسد ويصـبح مـن السهل دفن العظام . لم أقتله لأنني أستنكف أن أقتل حشرة .

جلست ألاعب البارزين من العصابة لعبة الورق . أحذق الميسر دون أن أغش ولو أن بعض أفراد العصابة كان يجيد الغش ، لكنني كنت أتغلب على غشه وأزيحه إذا ما تكرر منه ذلك الفعل الشائن . أخسر دوراً أو دورين أو ثلاثة ، لكنـي

أتميز عنهم في المكسب الكبير أعوض به ما حدث في أدوار الخسارة .

بعد يومين من قتل خير الله أخرج إلى الشرفة المطلة على حقول القصب المجاورة وأراقب الطريق ، أجدها متجهة إلى دارها . متجهة في ذلك المساء البهيم قبل صلاة العشاء . وقد غطى سحاب داكن وجه القمر . سوف أتدفأ بجسـدها تلـك الفتاة المنيعة . أتدفأ في الحقول الباردة بهذا الجسد النـاري . وأجد فوق رأسي وأنا أغتصبها ذلك المدعو خيـر الله بـن الورد يؤنبني . سقته أمـامي لأنظـر فـي أمـره وأفلتـت العصفورة من قبضتي . لكنه بين أفراد العصابة تلاشى كأنه ماء تبخر ولم ير أحد ذراته.

***

تملكني - أنا لهب الشجاع - الوسواس . أدركـت أننـي سقطت في مصيدة هذا الفتى الراجع إلى الحياة فهو يعـرف عني كل شئ ولا بد أنه سيقوم بإبلاغ الشرطة عنـي وعـن عصابتي . لا بد من تغيير المكان وتغيير النشـاط .. خفـت منه وقررت أن أترك الأفدنة العديدة في حوزة ابن عمـي . وأنا أمضي وعصابتي وأموالي السائلة لنختفي فـي زحـام القاهرة . سأقلع عن الإجرام الحقير .. وأتفرغ للإجرام البليغ .

عرفت حاجات أهل المنطقة من السلاح فقررت أن أحتكر تزويدهم به ، لذلك قررت أن أتستر وراء شـركة لتصـدير واستيراد الخضر والفاكهة وابتاع السلاح لهؤلاء الراغبين في

المتعة والتسلح والأخذ بالثأر . كان الذهول لا يزال يتملكني . والذهن مشتتاً . بعد أن رأيت خير الله في الظلام فوق كتفي . ينهاني عن اغتصاب الفتاة . لكن بسرعة استرددت قـواي العقلية . وقررت أن أترك سوهاج وأرحل إلى القاهرة حاملاً معي آلاف الجنيهات . هناك أشتري شركة أو أُسس شركة وأستطيع من خلالها شراء السلاح وتهريبه من الجمارك إلى الصعيد . واتفقت مع ابن عمي أن يدير الأراضي الزراعيـة وأن يوافيني علي عنواني بالريع أولاً بأول إذا طلبت مالاً أو يضع النقود في المصرف في حسابي . وحذرته أن يغشني لأن غش لهب تطير فيه الرقاب . لهب يغش هذا مقبول . أما أن يغش فهذا مرفوض . وعدني ابن عمي خيراً ، وأنا أذهب بعيداً عنه أركب الحانطور متجهاً إلى محطة القطار عارضاً عنه وهو يذكر أن الأمر سيكون خيراً . لم أعد أطيق هـذه الكلمة من بعد ما فعله في خير الله بن الورد . لقـد حـولني فترة من عاقل إلى مجنون . هل يمكن أن يبعث إنسان بعـد أن يموت ؟ .. تسيل منه الدماء يصبح جسده مصفاة للدم ثم يعود إلى الحياة ؟ ..

***

نزلت عصابتي في فندق من الدرجة الثالثة في كلوت بك . ونزلت أنا ونوري في فندق شبرد . هم عند بـاب الحديـد وأنا ونوري بالقرب من دار الأوبرا . هم في آخر شـارع إبراهيم وأنا في أول ذلك الشارع . قريب منا تمثـال ذلـك الرجل الجالس على حصانه يشير إلى معركة الحياة .

سألت نوري : كيف يمكن أن نتحصل على شركة في هذا الخضم الهائل من المحلات ؟..

قال نوري : هناك داخل الفندق رأيـت مقـراً للميسـر . سوف تجد واحداً يخسر مستعداً أن يبيع شركته من أجل حفنة جنيهات يظن أنه سيسترد بها ما ضاع .

وفعلاً وجدنا ضالتنا . يبكي من فرط الخسارة . يستحلف الجالسين أن يقرضوه مقابل حصة في شركة . أخذتـه إلـى المحامي القريب من الفندق .. وهناك تنازل عن حصته فـي شركة للتصدير والاستيراد مقابل مبلغ من المال . دفعت لـه المبلغ فوراً وتناولت صك التنازل عن حصته فـي شـركة تضامنية . التقيت بالشركاء في اليوم التالي ويبدو أنهم أبـوا مشاركتي فدفعت لهم قيمة حصصهم وآلت إلى الشركة كاملة . وقررت السفر إلى الخارج للاتفاق على توريـد السـلاح ضمن الخضر والفاكهة . لكن العقبة الوحيدة أمـامي كانـت اللغة . كانت الشركة تتعامل مع شركات في فرنسا وإنجلترا وإذا ذهبت وأنا أحمل جهلي على كاهلي ، فسـوف يظنـون أنهم التقوا بأبله يمكن سرقته . تضيع أموالي بسبب الجهل . وأضيع أنا الأخر وأعود من جديد إلى الإجرام الحقير .

قررت قبل ذلك أن أتعلم الإنجليزية والفرنسية في نفـس الوقت . وتركت الشركة تعمل في عملها الأصلي دون تدخل مني . قالت لي مديرة المدرسة الفرنسية وكانت تتكلم العربية . لو كنت ذكياً فسوف تتعلم الفرنسية في شهور . ولو كنـت غبياً فلن تتعلمها أبداً . وأغدقت عليها من مـالي . فنشـطت

لتعلمني . كانت فرنسية الجنسية متزوجة من مصري ، ولـم تنجب منه رغم مرور سنين طويلة على الزواج . وأخـذتها من يدها إلى فندق شبرد ، وقفلت الباب وهي مذهولة منقـادة وقلت لها : إنني سوف أجعلك تنجبين منـي عشـرة أولاد . عشرة شياطين . تفخرين بهم يوم دخول جهـنم . ضـحكت لخفة دمي . واستسلمت لعبث يدي . ساعدتني المـرأة فـي الحديث بالفرنسية .

كان مدير المدرسة الإنجليزية شاباً وسيماً . تعلم في البلاد الإنجليزية وتزوج هناك إنجليزية . شجعته على أن يؤسـس هذه المدرسة الخاصة في إحدى عمارات ميدان سليمان باشا . كانت المدرسة قريبة من الفندق الذي اتخذته مقـراً لـي . تعرفت بالصدفة إلى عائلة الشاب المدير . وحملت الهدايا إلى أولاده الذكور الأربعة وإلى زوجته . بغية أن أمارس اللغـة على أكمل وجه . راقت المرأة في عيني . إنجليزية لا برود فيها كأنها كتلة من نار تتخفى في جليد هو جسدها الظـاهر للعيان . وحركتني شهوتي نحوها ، يبدو أنني لا أشبع مـن النساء . كنت في بلدي أكافح في سبيل الفوز بواحـدة غيـر أنهن كن يتمسكن بالفضيلة . أما الآن فإن النساء أمامي فـي كل مكان كحبات الأرز خاصة في الفندق الذي نزلت فيه . وينزل فيه كبار رجال الدول الأجنبية .

غازلتها لكنها أبدت صدوداً. تركت لها عنـواني فقرأتـه ومزقت الورقة المكتوبة بالإنجليزية . وفي المساء وجدت من يطرق بابي . دخلت مسرعة لتأخذني بين يديها . ذاب الجليد

وأصبحت قطعة ملتهبة تلتهمها نيراني بقوة . يبدو أنني كنت من بقايا المماليك أو الشراكسة ، لا أنتمي إلى الجنس الأسمر في شئ . شعر أحمر ووجه أحمر وعينان حمراوان ، وقـد أعجبت بإهابي وطولي السامق وعرضي المتـين وبيـاض بشرتي الحمراء وقوتي التي تهصرها فتتألم بلذة .

نظمت مواعيد قدوم المرأتين الإنجليزية والفرنسـية إلـى حتى لا تلتقيا في وقت واحـد أبـداً . وصـرت أمارس اللغة والجنس وأنهل من أنهار الجمال كما أشاء .

ولما أتقنت اللغتين قررت السفر . وسافرت إلى الخارج ومعي نوري الذي تعثر في دراسة اللغتين لكنه كـان يفهـم بعض الكلمات . لم يكن من الذكاء بحيث يستوعب بمهارة . وقد سافرت والمرأة الفرنسية حاملاً ولم تكـن تحمـل مـن زوجها على الإطلاق ورغم ذلك كان يكاد يطير بها . وكانت المرأة الإنجليزية قد تكورت بطنها هي الأخرى . لـم تكنـا قلقتين على مصير وليديهما لأنهما في كنف رجلين .

هناك اتفقت في باريس مع عصابات المافيا على توريـد السلاح . كان من السهل اللقاء بهم في الحانـات والفنـادق الفاخرة وعلب الليل . كنت آمل أن يمتلأ كل بيت في الصعيد بالسلاح . وتلتفت كل أسرة إلى غريمتها وتمزقها . وتشرب الأرض السوداء الدماء الحمراء . أتلذذ أنا من لون الدم . وأتعذب حينما لا أرى اللون الأحمر أمامي . وردة حمراء . حجرة ملطخة باللون البنفسجي . امرأة بيضـاء مشـربة بلون الحمرة أو حتى امرأة نحاسية البشرة . ولم أكـن أقـرأ

غير عقود توريد السلاح وإلا كنت مجدت الثورة الحمراء في روسيا وعلمها الأحمر . كنت جاهلاً في ذلك الوقت . ولـم أكن أعرف أن الإجرام الكبير يجب أن يتزود بالعلم الكثير . لكن عصابات المافيا التي التقيت بها في إنجلترا هـي التـي علمتني أن يكون علمي كثيراً . قرأت الكتب فيما بعد حتـى أتثقف .

عدت إلى الشركة بعد شهور من الحصار . حاصـرتني الحرب العالمية الثانية - أنا ونوري - ونحن في إنجلتـرا . وذقنا ويلاتها . حينما كان حبيبي هتلر يقذف الإنجليز بآلاف القنابل ، وتتهدم بيوتهم على رؤوسهم . وتتوقف مصانعهم أو تتحول إلى مصانع للسلاح وتموين الحرب . واسـتطعت أن أنفذ من الحصار وأعود إلى القاهرة عن طريق المغـرب . ومن هناك نفذنا إلى الجزائر فتونس فليبيا ثم السلوم . كانـت النقود قد نفدت منا فلجأنا إلى الإجرام الحقير . لـذلك قمنـا بعمليات قتل وسرقة لعدد من أصحاب الأموال الطائلة حتـى نستولي على أموالهم ونواصل الرحلة . وقيدت كل الجـرائم ضد مجهول . ودخلنا القاهرة وقيل لنا أن روميل على أبوابها . التقت يدي بيد نوري نعلن شعورنا بالفوز . لكن روميـل خذلنا وتقهقر . واختفت سيرته من الوجود .

بدأت عصابات أوربا ترسل لي السلاح وتنفذ العقود التي وقعت قبل الحرب . لقد استطاع لمعي أحد أفراد عصابتي أن يدير المؤسسة أثناء غيابي إدارة حسنة . واستطاع أبن عمي

في سوهاج أن يدر تبراً من الأراضي الزراعيـة ووجـدت كأني أقف فوق هرم من المال لا يتداعى ولا يسقط .

وجاء لمعي يوماً يقول لي إن أحد السعاة قد اسـتطاع أن ينجح في حياته الدراسية ، وأنه يريد منـي أن أهنئـه . وأن أنقله من ساع إلى كاتب . التقيت به لأراه خير الله بن الورد يتجسد أمامي . لا أعرف كيف يدرك أسراري وهى مختفيـة في حصن أمين . أفشى أمامي السر الرهيب أنني تاجر سلاح . طردته . وقررت أن أصفي أعمالي في تجارة السلاح . قررت أن أرتاد مجالاً آخر لا يمكن أن يدخله خير الله بقدميه .. مجال الدعارة .

***

أتلذذ كثيراً ، ونوري جالس تحت قدمي ، يتأملني بانبهار ، وأنا أروي له قصة ، أو أتفلسف وأفلسف له الحياة . أعطه موعظة . قبل أن نقتل أصحاب الأموال الطائلة في أحد فنادق لندن في الضواحي . وكانوا يهربون في الليل البهيم والأنوار الكاشفة تلقي شعاعها علي السماء . والقنابل الهادرة تسـقط على البيوت المستسلمة لقدرها . تقذف بها الطائرات المغيرة الألمانية بلا رحمة . قلت له أتفلسف : أتعرف يا نور من أي مادة صنع هذا الكون ؟ .. قال: الكون .. الكون . قلـت : نعم . قال ببلاهة : من مواد كثيرة . قلت : لا يا أبله . إنهـا مادة واحدة . تتمدد كيف ما شاءت .. وتـنكمش كيـف مـا شاءت . إرادتها حديدية .. أتذكر العجين في بلـدنا . كانـت النسوة يقلن عنه أنه لا ينتهي . كلما أخذن منه يزداد . لكنها

قوة واحدة تُشكل كل شئ ، ولا شكل لها . في البدء شـكلت صورة .. أو صورتين أو ثلاث صور . مرة متشابهة ومرة غير متشابهة . ومنها بدأت تشكل المادة ثم المواد . وهى لا تزال تتمدد وتتضخم ولا تتوقف عن ذلك ومسـتمرة تشـكل الضوء والكهرباء وغيرها .. ومرة تحول المـواد والنـور والكهرباء إلى نبات أو حيوان أو إنسان وتسـتمر تنـوع و تنوع في الإنسان والحيوان والنبات تنوعاً بما لا يخطر لـك على بال . هي منا ونحن جزء منها . قال نوري : قل إنهـا الله .. ارتعدت وأنا أسمع الكلمة وقلت : الله .. القوة .. كما تريد يا نوري . من أجل مزيد من التغيير ، هذه القوة تصنع وتخلق بل وتبدع في الخلق .. وتتوسع وتكبر ولا تتوقف عن التوسع والتضخم .. قال نوري خائفاً : يا سيدي لا داعي لأن نخوض في هذه المتاهات . قلت : أنا أحب المتاهات .

وأعددنا العدة لقتل صاحب الملايين . قلـت لنـوري : أتعرف لم كان الموت يا نوري ؟ .. قال : هذه مشـيئة الله . ارتعدت لكني قلت محاولاً أن أتغلب على رعدتي . : لو لـم يكن هناك موت لما كانت هناك حياة . أفتـرض أن البشـر يتكاثرون يتزايدون يتناسلون . وحجمهم زاد عـن الحـدود المعقولة . أين سيقيمون ؟ .. سوف تتآكل الأرض والزرع والحيوان وتتحول إلى بشر فهل تتصور أن هذه الدنيا سوف تبقى ؟ .. أبداً .. سوف تختفي الأرض سوف تتآكل ولسوف ينتهي الإنسان بالتالي . ستكون الدنيا كطبق المـش حينمـا يتكاثر فيه الدود وينتهي المش ولا يبقى إلا الدود فـي حيـز

ضيق ثم يموت في النهاية لأنه لا يجد الغذاء . سكت ثم قلت مستطرداً : أنا مهمتي يا نوري أن أساعد الدنيا على عملها . أن أقضي لها على بعض البشر . وهي تزيد من أعداد البشر . ضحك نوري وهو يقول : ياالك من حكيم يا معلم .

استولينا على أموال المليونير التي كانت معـه . وقتلنـاه خنقاً حتى لا يصرخ ويسمعنا أحد . وغادرنا الفندق إلى فندق آخر . واخترعنا مشادة في الفندق الذي غادرناه حتى لا يشك أحد فينا حينما يكتشفون الجثة . ولما اكتظت جيوبنا بالأموال وحقائبنا ، قررنا أن نغادر إلى البرتغال . ومن هنـاك إلـى أسبانيا . ومن هناك إلى جبل طارق . ثم إلـى المغـرب . كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر ، لكن لم نأبه لشيء .

كنت أظن أن عصابات السلاح في أوربا وإنجلترا لن تنفذ تعهداتها ، ولكن لما انتهت الحرب وجدت السـلاح يتـدفق مختفياً في صناديق الفاكهة والخضراوات الأوربية اللازمـة للأجانب في مصر . هؤلاء الكلاب إذا تعهدوا معـك فثـق أنهم سوف يوفون بتعهداتهم . إنهم مجرمـون لكـنهم مـع المجرمين شرفاء .

أتلذذ وأنا أتذكر نوري وهو يسألني وأنا أقتل أحد أصحاب الأموال الطائلة : ألا تكفي السرقة ؟ .. أقول : اتركني . أنا أنفذ المشيئة . هل أتركه حياً فيبلغ عنا . يقول نـوري كأنه ضميري الخائب : سوف نختفي ولن يستطيع أحد تحديد ملامحنا . أقول وأنا أحس أن الضمير مات في قلبي : يكفي

أن يقال إنهم عرب . ويتتبعون أثرنا . ولا عرب غيرنا فـي هذه الأماكن .

عناء شديد تعرضنا إليه معاً . ونحن نختـرق صـحارى المغرب والجزائر وتونس وليبيا . نحـاول أن نتخفـى مـن الدوريات الإنجليزية والإيطاليـة والألمانيـة . كانـت لـذة المغامرة تكسبني جسارة وإقداماً. ونوري الفـولاذي يرتعـد رعباً كلما تخفينا وراء صخرة أو جبل بعيـداً عـن أعـين الدوريات المستطلعة . أو كلما دخلنا واحة بالجوادين اللـذين نركبهما وطفقت الناس تنظر إلينا وإلى الملابس الفضفاضـة التي نرتديها . لم يكن سهلا إلا أن نركب جوادين اشتريناهما من المغرب ونرتدي أثواب أهل الصحراء حتى تغفل العيون عنا ولا ترتاب الناس فينا .

نحاول أن ندخل أي مدينة قريبة لنشتري منها مـا يقـيم أودنا . ثم نعاود الولوج إلى الصحراء هرباً من المطاردة أو السؤال أو المحاكمة . ننام في الصحراء على الرمال . نوري يقول : هذا عذاب . أرحم أن أدخل السجن ، ولا أنام علـى هذه الحبات غير الناعمة . .. أقاطعه قائلاً : ألم تكـن تنـام على الطين في بلادك يا نوري قبل أن تأوي إلى داري . ثـم أغير الموضوع وأنا أتأمل الصحراء والسماء وأقول : لـولا القوة الوحيدة الأولى والأخيرة يا نوري لسقطت كـل هـذه النجوم والكواكب ، ولسقطت الأرض . إنها سـر الجاذبيـة الأرضية والنجومية والكوكبية . أتعرف أنها تضع الكون كله في عباءتها ، هي التي تدير وتمسك ولا تدع الأشياء تسقط .

لا تسقط الأشياء من قدرتها . هي الجاذبة للأشـياء الكبيـرة والأشياء الصغيرة . هي منا ونحن منها . ما نحن إلا صورة فيها ، نظهر ونختفي وقد نعود .. كل حركة ونأمة بمشيئتها . وأنظر إلى نوري أجده من فرط التعب نام .

***

أدركت بفطنتي القوية أن خير الله لن يتركني في حالي . استلمت من لمعي ملفه . وأمرت نـوري أن يصـفي ذلـك الرجل .. لم يمت في المرة الأولي .. قد تكون صدفة جرحه التأم وعاد إلى الحياة . أما هـذه المـرة فـإن رصاصـات الرشاش سوف تخترقه . سوف يحوله من جسد صـلد إلـى مصفاة . طلبت من نوري أن يوجه إليه الرشاش بعنف فـي حجرته . ولا يتركه إلا إذا رآه يمتلئ بالثقوب . إنه صـورة أرادت القوة الأولى والأخيرة أن تنتهي . وأن تأتي النهايـة على أيدينا . بينما أنا أعد العدة لأن أهرب أنا وباقي أفـراد العصابة لنختفي في فنادق شبرد وكلوت بك مـرة أخـرى . ونترك الشقق المفروشة القريبة من وسط المدينة ومن مكاتب الشركة الآفلة . وفعلاً حدث ما تنبأت به . داهمت الشـرطة مخازن الأسلحة في مقابر الدراسة . وتمكنت من مصـادرة السلاح . وضاعت أموال جمعناها من الأجرام فـي لحظـة خاطفة . لكن كانت السيولة النقدية لا تزال في خزائن خاصة بنا نقلناها معنا وننقلها أينما ذهبنا . وأرسلت إلى ابن عمـي في سوهاج أن يغير لنا بطاقاتنا . وتسمينا بأسماء جديدة . إنه

يعمل في مديرية الأمن في سوهاج وتحـت يـده صـناعة البطاقات .

خرجت يوماً من الفندق لأبحث عن قصر أمـارس فيـه الفكرة الجديدة . فكرة إدارة قصر للدعارة في أطراف الهرم وهناك وجدت فعلاً قصراً منيفاً . وتعاقـدت مـع صـاحب القصر على إيجار كبير . ونفحته مبلغاً مقدم إيجار سنة كاملة . ولسوف تأتي النساء إما طواعية من الحانات والكازينوهات والكباريهات وإما قسراً بالاختطاف من الشوارع أو الجامعات أو المدارس . ما دام المختطف تروق المرأة في عينيه فيشير إلى مرافقيه باختطافها . وهناك نجبرها علـى البغـاء . إن رضيت فأهلاً وسهلاً . وإن لم ترض فإن السياط وسيلة سهلة للخضوع . ووجدت أن أتوسع في نشاطي فقررت الاتجـار بالحشيش ، فهو أمر لازم لممارسة الجنس . يدخن العميـل الحشيش ثم يدخل مع المرأة يقضي وطره . يستنفد أمواله في التدخين وفي ممارسة الجنس .

جسنا في حي الباطنية ، نستطلع قبول أهل الحي لنـا . ولما كانت الأموال تجري في أيدينا ، ُأفسحت الطرقات أمامنا ، وتم الترحيب بنا . واستأجرنا عمارة كاملة كانـت قديمـة فطليناها . وكانت خربة فأثثناها . ولما كانت الطيور علـى أشكالها تقع ، فقد اصطفانا أحد المعلمين ، وقرر السفر معنا إلى سيناء للتعرف على البدو العاملين في زراعـة الصـنف هناك . ولما أرخي الليل سدوله ، قررنـا أن ننـام بفنـدق الكابينون حتى مغرب اليوم التالي . نام نوري في حجرة وأنا

في حجرة والمعلم في حجرة ثالثة . وخرجت في الليل للبحث عن صيد ثمين . ودخلت النادي الليلي للفنـدق . وجلسـت أتأمل الحاضرين واحداً واحداً . حتى رأيتها أمامي بلحمهـا وشحمها زوج مدير المدرسة الإنجليزية جالسة مع زوجهـا تدخن . قمت وتقدمت منهما مصافحاً كنت أرتـدي ملابـس إفرنجية ولم أرتد بعد ملابس الأعراب . نادوني بأسمى القديم .. قبل التبديل . ولم أهتم لأن أحداً لا يعرفني في هذا المكان بأسمى الجديد . وسألتماهما : ماذا تفعـلان هنـا ؟ .. قـال الرجل إنه يعمل في هيئة قناة السويس ، وقد قفـل مدرسـة تعليم اللغة الإنجليزية ولهمـا فـيللا هنـا يسـكنان فيهـا . وأولادهما الأربعة زادوا واصبح عددهم خمسـة . غمـزت المرأة لي كأنما تذكرني بالليالي التي قضيناها معاً وأن الولد الخامس ثمرة هذه الليالي . تجاهلت غمزتها فما عرفتهـا إلا لتقوية قدرتي على التكلم بالإنجليزية وشربت شراباً قدماه لي . وانصرفت دون وعد بلقاء . وتناسيت الصيد الثمين لأنـه سوف يشغلني عما أنوي أن أفعله .

لم نلبث كثيراً في السويس . انصرفنا إلى سيناء وقد ترك المعلم سيارته في السويس . لم يكن سهلاً دخول سـيناء ولا يزال الإنجليز يحتلونها هي والقناة ويحولـون دون دخـول المصريين إليها إلا بتصريح . ولكننا نفذنا من خلال القنطرة شرق . ركبنا مركباً خاصاً عند المغرب ، وطفق يجري بنـا على صفحة الماء والريح شديدة وفي مرسى مهجـور رسـا المركب هناك . وكنا نحمل معنا ملابس الإعراب وفي بيـت

معروف للمعلم الدبش غيرنا ملابسنا . وحملتنا الجمال حيث البدو المتعاملين مع المعلم . لم نكن وحدنا الذين نتفق علـى صفقة مخدرات . كان هناك أفراد من بني إسرائيل يتعاقدون . كانت الصفقة موجهة إلى عرب فلسطين لإغـراقهم فـي التوهان . وعرفنا منهم أن الإنجليز سهلوا لهم دخول سـيناء بل وأرشدوهم إلى البدو . ودخلوا من خلال رفـح . اتفقنـا على توصيل الصفقة إلى البيت المستأجر في الباطنية . وكان للبدو طرقهم الخاصة في توصيل الطلبات . وطلـب منـا الوفد الإسرائيلي قضاء يومين في مستعمرتهم القريبـة مـن حيفا. ولم نرفض رغم أن الانتقال كان محفوفاً بالمخـاطر . لكن المعلم الدبش رفض وفضل أن يبقي حتى نأتي . وانتقلت ونوري لنتعرف على المستعمرة . وكم كانت دهشتنا ونحـن نري ترسانة مسلحة نخوض غمارها في سرية تامة .

قضينا أسبوعاً في المستعمرة الإسرائيلية المدججة بالسلاح . شربنا الخمر . نزلت ناراً في أمعائنـا . وخادنـا النسـاء وكأننا نخادن اللهب . ورقصنا حتى اهتزت قلوبنا من المرح والسعادة . واتفقت مع الكولونيل هناك أن أمده بالمعلومـات العسكرية عن مصر . مقابل مبلغ مـن المـال يـودع فـي مصرف في سويسرا . سألته ضاحكاً : معلومات عن الجيش البريطاني أم الجيش المصري ؟ .. ربـت علـى كتفي وهو يقول بلغة إنجليزية بولندية : الجيش الأخيـر يـا جابر جبران جبر . وكانت البطاقة الشخصية الجديـدة تـدل علي الاسم . صنعها ابن عمي المشـرف علـى أطيـاني

الزراعية في القرية بسوهاج . والموظف بمصلحة تحقيق الشخصية في المركز . وما أكثر ما صنع لي من بطاقات . المهم أنني عندما يكون لي اسم لا أنساه ولا أنسى من تعاملت به معهم . وكان نوري يجلس كالثور لا يعلم شيئاً عن الواقع . وكانت المعلومات سوف تذهب إلى سويسرا من خلال سفارتها بالقاهرة عن طريق يهودي يعمل بها ، ومن هناك تصل إلي الكولونيل في حيفا .

استنشقنا هواء البحر بعمق . وعدنا من جديد نستنشق هواء الصحراء بشدة . رطوبة عميقة في المرة الأولى وجفاف شديد في المرة الثانية . وفي الطريق سأل نوري وهو دائماً يسأل وأنا أجيب . لي في كل مرة إجابة حاضرة .سأل : أليس ما نفعله شراً ؟ .. قلت : نعم . إنه شر ، لكن هكذا أرادت القوة الأولى والأخيرة أن تضع أدواراً لبني البشر . بعضها مع المجموع . والبعض الآخر ضد المجموع . ومن خلال التراشق بين المجموعتين تمضي الحياة ذاخرة بالحركة والأحداث . تخسر المجموعة الأولى في بعض الأحيان وتكسب في أحيان أخرى . وهكذا يحدث النصر والهزيمة أيضاً للمجموعة الثانية والوضع دائماً غير مستقر والكل متحفز . ولاحظ أن المجموعة الأولى مجموعة الخير قد ينتقل بعض أفرادها إلى المجموعة الثانية .وقد ينتقل أفراد المجموعة الثانية إلى المجموعة الأولى . والتراشق مستمر بينهما .. لا يتوقف . هذه تكيد لتلك . وتلك تحاصر هذه تريد أن توقف نموها . وتمضى الحياة .

تأملت نوري لعلي أعرف أنه فهم ويبدو أنني لـم أجـب على سؤاله ، لكن وجهه كان جامداً كثور في صحراء لـيس فيها برسيم . لا يدري ماذا يفعل . خرجت من الحديث قائلاً : توليفة من الخير والشر لا تتوقف عن العمـل .. توليفـة صنعتها القوة الأولى والأخيرة . سأل : أتقصـد ربنـا ؟ .. شعرت بهزة في أعماقي كأني وقعت بـين فكـي زلـزال . وتماسكت وقلت باقتضاب : نعم .. نعم ..أقصد .

عدنا إلى مصر لنباشر أعمالنا الجديدة . الإشـراف مـن بعيد على بيت الدعارة . والإشراف على تجارة المخدرات . والدخول في عب الأجهزة العسكرية حتى أعرف تحركاتهـا ومقوماتها . شعرت بأني رائع لأني أعمل كل هذه الأعمـال جميعها . وأشعرني العمل الأخير أنني أجيد الإنجليزية التـي تعلمتها في القاهرة . ومارستها في لندن . وكتبت بهـا فـي القاهرة مرة أخرى . وزعت العمل بعد الساعة الثامنة حتـى الثانية عشرة مساء للمخدرات . وبعد هذه الساعة إلى قـرب الفجر للبيت سـيئ السـمعة . وفـي الصـباح اتصـالات بالعسكريين المأفونين الخائرين في كتم الأسرار مقابل قطعة غالية من الحشيش النقي .

***

التقيت ذات يوم بالمرأة الفرنسية في بهو فندق شبرد . لم تتركني إلا وصعدت معي إلى حجرتي.هناك قالت لي : لقـد رزقت بطفلة منك سميتها كارولينا . قلت لها : وهل تريدين أن ترزقي ببنت أخرى . مالت على وقبلتني ، وهى تهمس :

يكفي واحدة . لكني لم أتركها تعود خاسرة أمتعتها حتى ظهر اللهب في عينيها . وكاد جلدها يتهيج . وهكذا أصبح لي ولد من الإنجليزية وبنت من الفرنسية . الأولـى تسـكن علـى ضفاف قناة السويس . والأخرى لا تزال تكمن في شقتها في وسط البلد بالقرب من المدرسة الفرنسية التي تـديرها . لـم أفكر في الزواج . سألني نوري يوماً : ألن تتزوج ؟ .. قلت : وما السبب ؟ .. قال : حتى تكون لك ذرية من صـلبك . بهت وأنا أقول : إن لي ذرية من صلبي ربمـا بـين بنـي إسرائيل أنفسهم . أنا بذوري لا تخيب . ومتأكد أن واحدة من الفتيات اللاتي عرضن على حملت مني .قال نوري كأنما لا يزال يعمل واعظي الخاص : لكن هذا الحمل سفاح . وأنـا أريد أن تكون ذريتك من الحمل الحلال . قلت : أليس الملح حلالاً ؟ .. قال : نعم .. قلت : أليس الماء حلالاً . أستغرب وقال : نعم . قلت : وإذا أختلط الماء بالملح ألا يشـبه مـاء البحر فهل ماؤه يطاق شربه ؟ .. قال : لا . قلت : ما عليك إلا أن تفصل الماء عن الملح ويصبح كلاهما يطاق شربه أو أكله فلا ضرر منه . لماذا إذاً ننفر منهما وهما مخلوطان ؟ .. ولم تقبل عليهما وهما منفصلان ؟ .. ولم يناقشني نـوري بعد ذلك في الحلال والحرام ، لأنه عرف أنني لا أصـنع إلا الحرام .. هواية . وهو منقاد لأوامري كظلي . ولا يمكن أن تجعله الرغبة في التوبة أن يثور على لذلك اقتناعه برأي لديه من المبررات .

وفي يوم أحضر نوري مندوباً اصطاده من الشارع . لم أكن أعرف أن هذا المندوب سوف يدخلني في متاهة . سلمته البضاعة ليتسلم المـال المطلـوب .. فسـلمني للشـرطة . وهاجمتني الشرطة في وكري في الباطنية . وشهد الرجل بما يعرفه أمام المحكمة . وعرفت من ملامحه أنه خير الله بـن الورد . كيف إذاً مزقه نوري برصاصات رشاشه في حجرته فوق السطح .. هل هذا الرجل لا يموت أبداً أم أن له تـوائم كثيرين . كلما قتلت منهم واحداً برز الآخر .. يتراشق معي بالنيران . لكن لو عرف ما حدث فلن يهنـأ. لقـد غافلـت الحرس وهربت . جري ورائي العسكر فلم يلحقوا بـي . وضربت امرأة أغمى عليهـا وسـرقت ملاءتهـا اللـف . وتخفيت في صورة امرأة محجبة . ومررت أمـام العسـكر وهم يطاردونني وقد فقدوا أثري . ولم يفكر واحد مـنهم أن يتفحص المرأة المحجبة وملاءتها اللف السوداء . ولو دققـوا قليلاً لرأوا سروالي قد شمر عن ساقي حتـى يختفـي وراء الملاءة .

ولجأت إلى شقة قريبة من بيت الدعارة .. وكنت أدير هذا البيت منها دون أن أظهر على المسرح . آمر بخطف البنات وآمر بجلدهم إذا امتنعن عن ممارسة البغاء . بل آمر طبيبـاً فاشلاً أكتريه ليعمل معي في قطع أنابيب النساء التي ترقـد فيها بويضاتهن حتى يتوقفن عن الإنجاب . هكذا توصلنا إلى هذه الطريقة وأنا أسأل الطبيب : أريد أن أخفف عنك العمـل في المستقبل ، فقد تضطر إلى إجهاض العذارى وقـد تقتـل

واحدة منهن أثناء العملية ، فقال لي : أقطع لهن دابر الخلاف .. أقطع قنواتهن . ورغم أن البغاء كان مصرحاً به في تلك الأيام غير أن شروط الخضوع له كانت تضايقني لذلك كـان البيت يدار بطريقة سرية للغاية حتى لا أخضع للشروط التي أشترطها القانون علاوة على أن الحملة لإلغائه كانت علـى أشدها .

ويوماً جاء رئيس المشرفين الذي يعرفني ويتصـل بـي وحده دون بقية المشرفين وهو ينتفض ويدعوني للحضـور بالقصر لأرى بنفسي كيف سقطت إحدى حوائط حجرة مـن الحجرات . هدها أحد العملاء ولا يعرفون كيف حدث ذلك . وهرب مع العصفورة معاً . طار كأنه صقر أختطف فريسته وعلا بها بعيداً بين الأحراش .وبينما نحـن نتفقـد الحـائط المحطم هاجمتنا الشرطة ، لكني خرجت من الثغـرة التـي فتحها العميل المجهول في الحجرة .. وأنا أفكر كيف تسـنى له أن يفتحها ؟ .. هل كان معه بلدوزر أم أنه هرقـل عاد إلى الحياة ؟ .. ولم أجد تفسيراً لهذه العملية الخارقـة . وتمكن عقلي الضعيف من نسيانها وأنا أركب سيارتي مـن أمام شقتي متجهاً إلى السويس . ومن هناك عبرت القنـاة سراً وقد دخل الليل مدلهماً . نقلني قارب من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية . وتفادي قائد المركب خفر السـواحل بدهاء واستطاع أن يعبر بسلام . من القنطرة شرق تحركـت إلى داخل سـيناء لألتحـق بتجـار الصـنف وزارعـوه . واستقبلوني استقبال الأبطال وكانوا قد عرفوا أنني هربت منذ

زمن طويل من الشرطة وأن بقية أفراد العصابة قد تم القبض عليها بما فيهم زميل الصراط غير المستقيم أبو الأنوار .

***

انضممت إلى الإسرائيليين أثناء رحلة إلى فلسطين حتـى أتحصل على بعض المال وأرادوا اسـتخدامي فـي كشـف المواقع العسكرية في الجيش المصـري ومواصـفاتها . إذ لربما تغيرت عما أبلغوهم الإنجليز من قبل . كنـت ذاهبـاً أبحث عن المال والمتعة والترفيه عن نفسي المكلومة . غير أنهم طلبوا مني ذلك ثم عند بداية تحركي طلبـوا منـي أن أندس وسط كتائب الأخوان المسلمين المصريين القادمة للزود عن حياض العرب في فلسطين . وأن أنقل لهم أخبـار هـذه الكتائب . وأطلقت شاربي ولحيتي ، وكنت أكره أن أطلقهما . ، لكن ذلك كان إمعاناً في التخفي وحتى أصبح فرداً عـاملاً وسط كتائب الأخوان المسلمين المصريين . وشاهدت خيـر الله بلحمه وشحمه بين صفوف المقاتلين . كيف ينتقـل ذلـك الرجل من وسط إلى وسط بهذه السرعة ؟ .. إذاً كيف تنتقل أنت الآخر ؟ .. يبدو أنه مثلك . أو قل أنـه فـي الاتجـاه المعاكس لك ، لذلك فإن بينكما تراشقاً مستمراً كأنكما جـيش يقف في الضفة الشرقية يراشق جيشاً يقف في الضفة الغربية . ولم يتمكن من أن يعرفني . كان مشغولاً بسلاحه وتنظيفـه وتزيته وحمله والتدريب عليه . بينما كنت مشغولا بالخوض وسط أصحاب الرتب من الرؤساء حتـى أعـرف أسـرار الكتائب : أعداد السلاح .. الأفراد .. القنابـل .. الخطـط .

وأتسلل سراً إلى الإسرائيليين ليلاً لأروي لهم مـا شـاهدت ولأحكي ما عرفت . وأنهل من المتعـة ثـم أعـود . وحاولت قدر الإمكان أن أتصنع التدريب في أماكن بعيدة عن المدعو خير الله بن الورد .

تمكنت معلوماتي المتأخرة من سحق النصر الذي أحرزه الأخوان المسلمون المصريون ، ودحر الإسرائيليون فلـولهم .والتحقت بأحد مستعمراتهم هارباً من القتال . وفجأة رأيتـه أمامي . خير الله ثابت الجنان . يتنفس بهدوء . يسألني عـن الكف عن إيذاء الناس . يناقشني في الخيانة . خيانـة بلـدي وخيانة أبناء ملتي . وأفلت منه هارباً لما قال لي : أنا أدخـل وأخرج دون أن يحس بي أحد . وذلك حينما سألته : كيـف دخلت هنا ؟ .. ذلك لا يمكن أن يكون إنساناً . إنه ملاك نزل من السماء وتجسد . وخير الأفعال أن أهرب منـه . لـو بطش بي فسوف ينتهي أمري وأنا أحب الحياة ولا أرضى أن أنتهي من الوجود .

التحقت بمعسكر آخر للصهاينة . وطلبوا مني طلباً غريباً أن ألتحق بالقوات الإنجليزية في القناة ، ليتم تدريبي فـي معسكرات كسفريت على العدوان وإشعال الحرائق والتخريب ، ربما وجدوا أن بقائي معهم أمر بلا معنى لأنـي لا أديـن باليهودية ، فأرادوا صرفي بالذوق . وظن الإنجليز إننـي يهودي روسي ووافقوا على إلحـاقي بفرقـة التخريـب . وسافرت في إحدى سيارات الجيش البريطاني وأنا أشعر بأن

عصراً جديداً بدأ بالنسبة لي . سوف أحقق فيه ذاتي المتطلعة إلى إلحاق الضرر بالآخرين .

***

سألت نفسي : كيف تتحول من مخرب حر إلى مخـرب أجير ؟ .. كان الموضوع عويصاً .ليس من السهل الإجابـة عليه . وتصورت في لحظة أنني أخاف أن أعود إلى السجن أو يقبض علي وأدخل الزنزانة الرطبة ، لـذلك فضـلت أن أنضوي في حضن هذا المعسكر في كسفريت . ولـو كنـت غير مطارد لما أتيت إليه بقدمي .

هناك تعلمنا أساليب التخريب . وكنـا مجموعـة مـن المجرمين المارقين والخارجين على القانون . يتم رشـوتنا بالمال والجنس والمتعة . وهناك التقيت بعاهرة فرنسية أسمها برجيت . اتخذتها خليلة لي رغم أنها تذهب إلى رجال آخرين بحكم عملها في المعسكر . إن عملهـا هـو الترفيـه عـن المخربين . وكنت أتحدث طويلاً معها بالفرنسية مثلما كنـت أتحدث مع نوري . ويبدو أن حكماً طويل الأجل لحـق بـه ولولا هروبي لكنت معه في زنزانة واحدة .

قالت تسألني : لم تعمل بالتخريب ؟ ..

قلت : ذلك شئ يسري في دمي . أنا مثـل الشـوك فـي الورد ؟ .. هل ينفصلان ؟ .. مثل الفيل والثقل .. مثل الأسد والتوحش . الشوك والثقل والتوحش تخريب . والورد والأسد والفيل بناء متحرك . أنا مثل الماء - ماء البحر أو النهـر - وعمقه . العمق غرق .. شـر للكائنـات البريـة . والمـاء

مطلوب لكل الكائنات . أنا شر متلازم مع الخير لا أنفصـل عنه .أنا أقوم بدور في الحياة لا أستطيع أن أهـرب منـه . مثلما يقوم الباني بدور لا يتمكن من الفكاك منه . ولكي تبني لا بد أن تهدمي .. على الأقل لو كانت الأرض فضاء فأنت تحفري فيها لتضعي الأساس .. والحفر تخريب . ووضـع الأساس بناء . أنا الشوك لا انفصل عن الورد فمسيرة الورد والشوك واحدة لا انفصال بينهما ..الشوك يـؤذي ويجـرح ويقتل . والورد يريح بلونه ورائحته وجماله .

تحركنا في أول تحرك لنا لتدمير كفر أحمد عبده بناء على أوامر صدرت إلينا من رئاسة المخابرات البريطانيـة . لـم نعرف السبب في هذا العمل الاستفزازي وماذا يكون مقدمـة لماذا . عرفنا فيما بعد أن ذلك تمهيد لحرق القاهرة . وتمهيد لإقالة وزارة الوفد . وتعيين رئيس وزراء جديد اسمه علـى ماهر باشا .

ولما عدت من مهمة كفر أحمد عبده وقد تم إجلاء السكان الآمنين منه وترويعهم . سألتني برجيت : ألا تخشى الموت ؟ .. قلت : إن الموت كالماء أمر لا غني عنه . سوف يـأتي حتماً في يوم من الأيام فكيف أخشاه . إنني أدخل المعـارك ولا فكرة لي عن الموت ، فهو يأتي فجأة فما الداعي أن أفكر فيه بل لن أفكر فيه حتى وقت حدوثه . ورحت أحكـي لهـا كيفية دخولنا الكفر الآمن. وقد سبقتنا عمليـة استعراضـية اشتركت فيها مائتين وخمسين دبابة وخمسـمائة مصـفحة وعدد من الطائرات . وكانت الناس تجري وتولـول وهـى

آخذة حاجياتها المهمة معها ، حاملين أطفالهم بـين أذرعهـم وفوق أكتافهم . كانت النساء يولولن والرجال يصـرخون . قالت برجيت : هؤلاء أهل بلادك كيف واتتـك الشـجاعة أن تفعل بهم ذلك ؟ .. قلت لها : أنت تذكريني بصديق لي . كان يقوم معي بالأعمال الإجرامية ويسألني بعد ذلك لم نفعلهـا . وأنت عاهرة ولا تسألين نفسك لم الدخول من باب العهر إلى الحياة ؟ ! .. غضبت برجيت وخاصمتني عدة أيام .

كنا نخرج في غارات مستمرة على مدينة السويس نبحث عن الفدائيين ونشعل النيران في كل مكان ، حتى أننا أشعلنا النار في كنيسة في المدينة . وقُتل وحرق فيها بعض الأقباط . وهكذا هيئ للأقباط أن المسلمين هم الذين أضرموا النـار في الكنيسة يريدون بهم الضرر . وأذيع في ذلك الوقـت أن الفدائيين المصريين هم الذين أشعلوا النار في الكنيسة . ولـو أن الحكومة عرفت فيما بعد أننا جماعة أخوان الحرية الذين أشعلنا النيران . وأننا نرتبط ارتباطاً عضوياً مع المخـابرات البريطانية . وكانت غارتنا على مدينة السويس هي تغطيـة لتنفيذ العملية . لما أُكتشف ذلك وجدت رئيسـنا البريطـاني متضايقاً . فقد أعلنت الحكومـة المصـرية أن المخـابرات البريطانية وراء الحادث المفجع .

أغتال بعض رفاقنا راهبة أمريكية حتى يثـور الـرأي العالمي . ويعرف الجميع أن حياة الأجانب مهددة فـي ظـل حكومة الوفد المتعصبة والمعاديـة للأجانـب ممـا يسـمح لبريطانيا بالتدخل مثلما تدخلت من قبل لحماية الأجانب فـي

مصر . لقد ماتت الراهبة برصاص إنجليزي خلال تراشـق الفدائيين مع قواتنا الخاصة . وعرفنا فيما بعد أن السـلطات البريطانية طلبت عدم إذاعة التقرير عن الحـادث حتـى لا يوجه ضد صدر بريطانيا ويظهر مؤامراتها ودسائسها .

لم ننضم إلى القوات البريطانية في مذبحة الإسـماعيلية تلك التي راح ضحيتها بعض أفراد الشرطة فـي المحافظـة .هناك حدث تراشق بين الورد والشوك رغم أن الشوك لـم يكن جزءاً من الورد . أمرت القوات البريطانية بتسليم قائـد قوة بلوكات النظام المعسكر بمبنى المحافظة . وقـاوم قائـد البلوكات بناء على طلب وزير الداخلية حتى آخر رجل وآخر طلقة . وسقط الورد مضرجاً بالدم وأنتصر الشـوك البـري انتصاراً ساحقاً . بكـى المواطنـون جنـودهم . وضـحك البريطانيون وشربوا نخب انتصارهم .

بعد ذلك حانت الساعة التي تحركنا فيها لنحرق القاهرة ، وتفرقنا في كل جهة .. في كل شارع .. أمـام السـينمات والكازينوهات والفنادق والنوادي . وانتقلنا من الميادين إلـى الشوارع . وهجمنا على فندق شبرد . وكنت أعرف أين تقع خزائنه .. وأين أجد جوالاً أعبئ فيه الأمـوال .. وعبأتهـا وحرقت الفندق وهربت .. هربت مـن الجـيش البريطـاني الداعر . هربت من العار الذي لحق بي . وعدت إلى سوهاج أختفي في داري هناك .. أصبحت حـراً مـن جديـد . لا يؤمرني أحد بالقتل إنما أقتل بوحي من نفسي . ولا يقـودني أحد للحرق إنما أحرق وأنا أزن الأمور . ولا يحركني أحـد

لأغتصب إنما أغتصب حينما تتحرك شهوتي .. وهناك فـي سوهاج استقبلني ابن العم مرحباً وفتح لي باب الـدار التـي تركتها منذ سنوات .

***

دق باب الدار في الصباح الباكر . فتحت الباب . شاهدت امرأة . ظننت أنني أعرفها لكن من هي ؟ كانـت ملامحهـا غير جديدة علي . وقالت وهى تحملق في : ألا تذكرني ؟ . . قلت بصراحة :

- لا ..

قالت : ألا تذكر من كنت تلاحقها منذ تسع عشرة سـنة . قلت : لقد لاحقت كثيرات فمن تكونين ؟

قالت : أنا وصيفة بنت عبد المعين . تذكرت بالفعل . تلك المرأة كنت أطاردها في فجر شبابي اغتصبتها فعلاً ولما نلت منها غرضي تركتها . ولا أدري منذ ذلك الوقت شيئاً عنها . قالت : لقد حملت منك . وكبر الولد وربيته بعيـداً عنـك . سميته نوار .. وهو الآن يريد أن يتركني .. يريد أن يتطوع في الجيش .

سألت باستهانة : وماذا أفعل لك ؟ .. قالت : تعال وقل له ألا يتركني .. ألا يتطوع في الجيش . أريده معي .

قلت : ومن أدراك أن سيستمع إلى ما أقوله ؟ ..

قالت : قل له إنك أبوه .. وتمنعه من هجري . قلـت : ومن أدراني أنني أبوه .

قالت : أنظر إليه تجد لا فرق بينك وبينه . الشعر الأحمر . الوجه الأحمر والعينان العسليتان الهائمـان فـي بيـاض مشرب بالحمرة . والطول والعرض . والصوت أيضاً إنـه نسخة منك . ولولا أنني أحببتك لكرهته وتركتـه لا يعـيش معي ، ولكنه يذكرني بك ، لذلك أتمسك به . أريده أن يبقـي معي . قلت وأنا أقفل الباب في وجهها : اتركيـه يرحـل .. فالولد لا يبقي دائماً بجانب أمه .

خير الله بن الورد

قررت ألا أنتمي إلى جمعية الأخوان المسلمين من جديـد ، لأني مجبول على الخير . كرهت أن يقتل رئـيس الـوزراء بأيديهم . سخطت على قتل الأبرياء بفعل قنابلهم . وسفك دم الناس بلا سبب سوى إرهابهم . وقررت أن أعمل بالمحاماة منفرداً . وأن أعمل الخير للناس من خلالها بغض النظر عن المكسب . ولو أني استمررت أدفع الاشتراك كـاملاً دون أن أكون عضواً عاملاً لديهم إلا في عمل الخيـر . ولمـا ازداد تهورهم امتنعت عن دفع الاشـتراك . كنـت أرى أنهـم يشترون بالمال السلاح. وتغمد رصاصاته في قلوب الأنقياء . اشتركت معي صفاء في مكتب المحاماة . ولكننا لم نقتصر على ذلك إنما بدأنا نعمل الخير في نواح أخـرى . جمعنـا التبرعات وبنينا مستوصفاً في حي باب الشعرية حيث مقـر عملنا وسكننا . وكان به قسم بالمجان وقسم آخـر للقـادرين حتى يتمكن هذا القسم أن يصرف على ذلك الآخر .

أنتشر أسم خير الله وصفاء المحاميين في حي باب الشعرية والعباسية والفجالة والبغالة وبين القصرين وبـين النهـدين وشارع الخليج ، وتزاحم العملاء علـى المكتـب . ولعـل الأسعار التي كنت أضعها كانت لا مغالاة فيها لذلك تـدافعت

الزبائن من كل فج . وقامت صفاء بإدارة مكتب المحاماة فيما يخص النساء . وقمت أنا بإدارته فيمـا يخـص الرجـال . فانشغلت هي بقضايا النفقة والأحوال الشخصـية والتطليـق والميراث . وانشغلت بالقضايا الجنائية والتجارية والمدنية . نخرج في الصباح ولا نعود إلا في المساء . نتعدى لدى أحد المطاعم غداء نتدخل في صنعه صفاء حتى لا يكون مخلوطاً بدهن أو زيت سبق غليه أو غير مقبول . وكـان صـاحب المحل وهو زبون للمكتب لا يتدخل ويأمر صبيانه أن يطيعوا الأستاذة . وفي المساء نأكل أنواعاً مـن الجـبن والزيتـون وغيرها من المأكولات الخفيفة . وكذلك في كل صباح قبـل التوجه إلى المحاكم أو المكتب لو لم تكن تشغلنا قضايا .

***

دق الباب دقاً عنيفاً حتى كاد طارقه أن يكسره . ولما فتحت الباب وجدت قوة من قوات الشرطة تزحم السـلم الضـيق . وضابط برتبة يوزباشي يسألنا :

-هل أنت خير الله المحامي ؟ ..

قلت : نعم . قال : أرتد ثيابك وهيا معنا .

صاحت صفاء من الداخل : إلى أين ؟ ..

وسألت : ماذا حدث ؟ ..

لكن السؤالين لم يكنا لهما إجابتان .واضطررت أن أرتدي ثيابي على عجل وأن أضع نقوداً في جيب سري في ملابسي . ودخلت السيارة الصندوق . تحيطني حراسة مشددة كـأني مجرم هارب من يد العدالة . كيف أفلت من العدالة ..هل هي

نائمة ؟ .. جلست واضعاً يدي على خدي ولا تزال صـرخة صفاء أسمعها في أذني تقول للضابط : في مصر قضـاء .. في مصر قضاء . أنا وراءكم والزمن طويل .

كان الليل معتماً ، فلم أتبين الطريق . وسارت السـيارة بسرعة الريح . ودخلت صحراء غامقة لا تبصـرها العـين ولكنها تحسها الأنف بشم رائحة الرمال . كانت الرائحة تصل إلى من احتكاك العجلات بالرمال . حاولت أن أعرف شـيئاً من قراءة عيون العساكر غير أن الظلام كان دامساً . وهكذا كان يأمرني الضابط أن أرتدي ثيابي علـى عجـل دون أن أتمكن أن أقرأ ما في داخله ، أو على الأقل ما هـي التهمـة الموجهة إلي ومن هم وراء الأمر بالقبض علي .

اكتشفت السر في المعتقل . كان يتم القبض على الأخوان المسلمين سواء العاملين فعلاً أو المنتسبين إلـيهم . اتهمـوا بتواطئهم مع رئيس الجمهوريـة المعـزول ضـد رئـيس الجمهورية المنقذ . وما دخلي أنا ؟ ..أنا ضـالع فـي هـذه المؤامرة ويجب أن أعترف . لقد تركت الأخوان منذ زمن . هذا كان في العلن فقط لكن في السر تجتمع وتناقش وتخطط وتدبر وتمول في بعض الأحيان . هذا كذب .

وتم قيدي في صليب مرفوع على الأرض .حتى ينهـال السوط على ظهري ، فأقر وأعترف. وقبل القيد كنت أقـف في صف طويل بين هؤلاء الرافضين ..رافضي الاعتـراف بالمؤامرة . الجلد يمكن أن يكون سبيلاً للاعتراف بالحقيقة . رأيت الجلاد أمامي . أحمر الشعر . أحمر الوجه . قـاس .

يتشوق إلى القيام بتعذيب البشر . طويل . عريض . إنه لهب . لكن كيف يدخل لهب الجيش وقد تجاوز الثلاثين من عمره . بل يمكن أن تقول الأربعين . أهو أخوه . أهو ابنـه ؟؟ .. ودققت النظر في ذلك الشاب . اكتشفت أن عمره لا يزيد عن العشرين ربيعاً . إنه يتلذذ من القيام بالضرب بالسوط . إنه يعاني من عقدة نفسية عميقة . إنه يشعر أنه ابن زنا وأن أباه غدر بأمه وبه . سمته أمه نوار وأبوه اسمه لهب .هذا أحـد ضحاياك يا لهب . جاء يواجهني . لهـب جديـد يتراشـق بالسهام مع خير الله . سوف تشل يداك يا فتى .

كان السوط لا يسقط على ظهري . إنما يلمسه لمسـاً . هناك حائل بيني وبين وقع السوط . حاجز مغناطيسي يمنـع نفاذ أو لمس الأشياء لجسدي ، فيما عدا الرصـاص أو مـا شابهه من حديد أو نحاس أو معدن . ويد ابن لهـب تبـذل مجهوداً فائقاً في الضرب . شعرت وأنـا أعطيـه ظهـري ليضربه أنه يعاني وأن أنفاسه تضييق . وأن يـده يمكـن أن تصاب بالشلل . أشفقت عليه . أنه يطيع الأوامر ولـو أنهـا تتفق مع مزاجه الصادي . ولأول مرة أعرف أنني يمكن أن أقطع أنفاسي وأتصنع أنني ميت . ويتوقف النبض تماماً فـي داخل جسدي . لا يسمعه الطبيب . وسقطت رأسي على كتفي فأنزعج ابن لهب ، وصرخ : طبيب . فحصني الطبيب وأكد أن الوفاة داهمتني . وأمر رئيس المعسكر الحربي أن توارى جثتي في صحراء الماظة . في عمق بعيد معروف لهم .

وهناك تم دفني ببذلتي كاملة دون غسـيل أو صـلاة ، بجانب جثث أخرى سبقتني . لكن يدي بعد إشراقة الصـباح دفعت الرمال بقوة فتطايرت رذاذاً في الفضاء . وخرجت من الحفرة وأنا أنثر الرمال عني . كان الاتجاه إلى القاهرة غرباً فاتجهت شرقاً .. وتمكنت أن أركب بجانب سائق لوري كبير . كان إنساناً بمعني الكلمة . رفـض أن يتقاضـى أجـراً . وكانت الجنيهات في الجيب السري لا تزال مختبئة . وأخذت أستزيد من تنفس نسائم الصحراء كأني أعوض ما فاتني من أنفاس تحت التراب . تنفست أنفاس الفضاء العريض وشهقت شهيق الحرية .

حطت بنا السيارة في بور سعيد ، فتركتها ومضى الرجل بها إلى قرية قريبة ..وأسرعت إلى هاتف وطلبـت علـى الفور صفاء أعلنها بوجودي . رد على الكاتب في المكتب . وسألته :

- أين الأستاذة صفاء المحامية ؟ ..

أجاب الكاتب باستهزاء :

- تعيش أنت ! ..
- كيف ؟ ..
- صدمتها سيارة وهي في الطريق إلى المكتب فانتقلت إلى رحمة الله .
- وأين الأستاذ خير الله ؟ ..
- تعيش أنت .
- كيف حدث ذلك ؟ ..

- أبلغتنا الشرطة العسكرية أنه أنتقل هو الآخر إلى رحمة مولاه .

-ومن أنت ؟ ..

- أنا صاحب المكتب الجديد .

- ألست الكاتب الذي كنت تعمل لديهما .

- وما المانع ؟ .. ورثت المكتب وسأديره لحسابي . أي خدمة ؟ ! ..

قفلت الاتصال . وانهرت عند كرسي أبكي صفاء الجميلة .. مات الصفاء .. ودخل العكر حياتنا . أصبحت الحياة مليئة بالشوائب ذات الرائحة النفاذة والطعم الكريه .

***

ماذا أفعل في هذه المدينة البعيدة عن القاهرة ؟ .. هكذا وجدت نفسي فيها دون أن أتدخل في ذلك . قادني إليها قائد السيارة اللوري كما لو كنت جندياً في جيش قاده قائده إلى مكان لا يعرفه . لم أكن قد رأيت بور سعيد من قبل . سرت في شوارعها . ماذا أنوي أن أفعل ؟ .. لا بأس سوف أعمل بالمحاماة . إن معي بطاقتي . وعما قريب ستكون في جيبي شهادتي . وبطاقة عضويتي بالنقابة .. مشوار بسيط إلى القاهرة وأعود حاملاً كل مستنداتي . ومن يدري في هذه المدينة أن خير الله المتوفى في السجن الحربي .. هو نفسه خير الله بن الورد المحامي في بور سعيد . وليحاول واحد من الخلق أن يثبت ذلك . سوف أقول ذلك في وقته ...

أنتفض من أفكاري على صوت اصطدام سيارة برجل .. صرخ الرجل وحاول سائق السيارة التوقف . وتجمعت المارة ، وسائق السيارة ينحرف بعيداً عن الجسد المسـجي علـى الأرض . وينطلق دون أن يمسك به أحد . لقـد مثـل أنـه ينحرف ليقف لكنه أبق من جريمتـه . ألا يوجـد مستشـفي قريب من هنا ؟ .. إنه قريب .. لم لا تحملـوه ؟ .. ألـيس واحد فيكم فيه نخوة ؟ ..حملت الرجل أنا الشـاب القصـير ضئيل الجسم . أستغرب الناس هذه القوة في . قال بعضـهم يضع تنظيراً للوضع العجيب : الرجل المصدوم هش . وقال البعض الآخر : الله يضع سره في أضعف خلقه .

حملت الرجل ودخلت به المستشفى . وقد أنفض الناس من حولي . تركوني أذهب به ومضوا في حال سبيلهم . سألتني الطبيبة المناوبة : ماذا حدث ؟ ..

راحت تفحصه وأنا أضعه على سرير بلا جوانـب وذي عجلات : صدمته سيارة .

قرأت في عينيها وهى تنظر إليّ أنها تقول : يبـدو أنـك صاحب السيارة وصدمته وتدعي .. قلت لها أكشفها والحنق يجتاحني : أنا لا أملك سيارة . وإذا قلت إن سيارة صـدمته فهي سيارة رجل طائش صدمه وهرب . استغربت أن أقـرأ ما يدور في رأسها . وراحت تقول في سرها وأنا أقرأ عينيها : فعلاً يبدو مظهرك لا يصلح أن يكون ولو سائق سـيارة . كنت قد صممت ألا أقرأ أفكار الناس ، ولا أكشف مـا فـي نفوسهم حتى لا يكتشفوا قواي الخارقة وذلك بعد أن أبلغـوا

عني أنني ساحر مما ترتب عليه هجرتي من الأقصر مسقط رأسي . فيما عدا حادثة القطار التي قرأت فيها أفكار رجـل يشك في زوجه فنصحته أن يعود إليها ويومها التقيت بلهـب بن الشوك . لكن في هذه المرة تعمدت أن أثيـر الطبيبـة ، فقلت لها : إن مظهري لا يصلح فعلاً أن يكون ولو لسـائق سيارة . نفس الكلمات التي رددتها بينها وبين نفسها . وقالت في سرها : يبدو أنه توارد خواطر . ورمقتني مرة أخـرى وهي تريد أن تقول : هل ستبقي هنا طـويلاً ؟ .. وقبـل أن تتشجع وتنطق قلت لها أجيب : لن أبقي طويلاً .. أستأذنك .

قالت : أنتظر حتى تدلي بأوصاف السيارة . قلت لها : أنا لا أفهم في السيارات . ولم أشاهد رقم السيارة . نظرت إلى وهى تريد أن تقول إذاً أمض . قلت لها قبل أن تنطق : أنا ماض ..لا تهتمي.

خرجت من المستشفي ، لتصادفني سيارة مسرعة ، ومثلما فعلت في ذلك الرجل السيارة السابقة فعلت في . وتم نقلي إلى المستشفي . لتشاهدني من جديد وتقول لي : أنت .. مرة أخرى . قلت لها وقدمي تؤلمني : أسعفيني وبعد ذلك تعجبي .

كان من الممكن لو تركت في الشارع أن يعود كاحلي إلى أصله ، لكني فضلت أن أنقل إلى داخل المستشفى لفحصي . هناك أستطيع أن أرقد على فراش ويعتني بي وذلك حتى أتدبر أمري .

***

كانت الطبيبة برلنتي تخدم في بعض الأحيان في العيـادة الخارجية . وفي بعض الأحيان الأخرى في داخل المستشفي الأميري . وتوثقت بيني وبينها الصداقة . صداقة المـريض بمعالجه . وبقيت في المستشفي عدة أيام ، كانت تزورني فيها كثيراً وفي كل مرة كنت أقرأ لها أفكارها فتصرخ . أنا الذي نطقت باسمها برلنتي . وذلك حينما سـألت نفسـها : كيـف ستتعرفين عليه يا بنت يا برلنتي ؟ .. فقلت أدعوها : دكتورة برلنتي . سألتني : كيف عرفت اسمي ؟ .. قلت لهـا : ألـم تكوني تقولين الآن يا بنت يا برلنتي . ظنت أنها كانت تتكلم بصوت مسموع مع نفسها . كانت مهمومة وهى تقول لنفسها : أمن المعقول أن ظروفي سوف تتغير وأستطيع أن أكـون بيتا وأؤثثه . وأجد ابن الحلال . فأقول لهـا : لا تبتئسـي سوف تكونين شقة وتؤثثيها وسوف تجدين ابن الحـلال . تسأل في استغراب : كيف عرفت ؟ .. كنت أجيـب : أنـت تتكلمين بصوت أسمعه . تتصنع ابتسامة باهتة وهى مندهشة وتقول : غير معقول .

قلت : أنا مكشوف عني الحجاب . تسأل : أي حجاب ؟ ..

أقول ضاحكاً : الحجاب الحاجز .

تغرق في الضحك إذ أخاط الجد بالهزل . سألتني : أين تعيش ؟ ..

قلت : نزلت بور سعيد دون أن أجد مسكناً

قالت : على سطح دارنا حجرة معيشة تنفعك .. سأكلم أبي ليكلم مالك الدار أن يؤجر لك حجرة.

قلت : إذاً فأنا ممنون .

***

لما أستقر بي المقام في بور سعيد ، عدت إلى بيتي القديم ، ولم يكن أحد قد استولى عليه حتى ذلك الحـين ، دخلتـه شعاعاً إذ لم يكن معي مفتاحه ، فلم ينكسر بابه ولا فسد قفله . كنت أعرف أين تقع شهاداتي وأين تختبئ أموالي المدخرة لغدر الزمن . تحصلت عليها وخرجت كما دخلـت . ولـم يشعر بي أحد من السكان . كان أغلـبهم فـي وظـائفهم ، والنسوة مشغولات بالطبخ ، وما بقى منهم غير مشغول فهو ملازم الفراش أو في حجرته .

عدت من جديد إلى بور سعيد . إلى هوائها اللذيذ النقي . سمائها الجميلة . وخيراتها التي لا تحصى . ودخلت حجرتي . أعود من جديد إلى السكنى في حجرة بعد أن كنت سـاكناً في شقة واسعة . ولي مكتب . والخيرات لا تفـارق بيتـي وجيبي . ولم ينعشني الهواء ولم يجدد روحي الراكدة جمـال السماء . كنت أشعر بحزن بليغ . عرفت الأخبار من أهـل الحي دون أن أتكلم معهم . عرفت من عيـونهم أن صـفاء دافعت عني حتى الرمق الأخير . وحتى كللوا نجاحها بهـذه الصدمة القاتلة . كان مجرد أن ألقي السؤال أمـام صـاحب المقهى عن صفاء المحامية حتى يقول : إنها توفيـت . ولا ينطق بعد ذلك . وأسمعه يهمس لنفسه بالحكاية . أقـرأ فـي

عينيه أن المرأة لم تتوان في الدفاع عن زوجها ذلـك الـذي أعتقل غيلة . وأنها قدمت شكاوى إلـى المباحـث ووزيـر الداخلية ورئيس الجمهورية باعتبـاره رئـيس الـوزراء . ورفعت قضية تطالب فيها بالإفراج عن زوجها . ولم يكـن أمام السلطات الغاشمة حتى تتخلص مـن مناكفاتهـا إلا أن تودي بحياتها . لكن صاحب المقهى لا ينطق بشـيء . إنـه يسر في نفسه كأن سراً من الأسرار العسكرية يتحـدث فيـه إلى نفسه . يخاف إذا ما تلفظ به أن يكون هناك مخبـر فـي المقهى يضع القيود الحديدية في يديه ويقوده إلى المخفر .

عدت إلى بور سعيد والأسى يملأ نفسـي . وقـررت أن أمارس المحاماة في هذا البلد . وأن أنـأى عـن السياسـة والأخوان المسلمين وكل ما يقودني من جديد إلى المعتقـل . قد أعمل في السر دون أن يلاحظني أحد وأعمـل بمفـردي حتى لا يأخذوني بجريرة غيري وأعمل في صمت لأنـي لا أقبل الضيم لنفسي ولا لبلادي . ولكن لا داعي للعلن ، فإنـه يؤدى إلى تعطيل المسيرة ، فأنا إذا دخلت المعتقـل فسـوف أخرج منه سالماً لأن لا أحد يتمكن أن يقيـدني . يمكـن أن أدعي الموت . ويمكن أن أخرج عبر الأسوار . وذلك قـد يعطلني عن أداء المسيرة فترة من الزمن . سوف أضطر إلى التخفي والبدء في تعلم أصول مهنة جديدة وفي هذا ضـياع للوقت لا داعي له .

تمكنت في وقت قصير أن أكون من المحامين البـارزين في بور سعيد ، يقصدني الغني لأني أجيد الدفاع عن حقـه .

ويقصدني الفقير لأني أتمكن من استرداد حقه دون تكـاليف باهظة .

توثقت علاقتي بوالد برلنتي التاجر الصغير في مدينة بور سعيد . وقد قمت بالدفاع عنه في عدد من القضايا التموينيـة وإبرام عقود مختلفة تتعلق ببضاعة أتضح لـه أنهـا فاسـدة فرفض أن ينفذ العقود . وأخرى تتعلق بالمحل الـذي يبيـع ويشتري فيه . إذ حاول المالـك أن يطـرده مـن المحـل بتحريض من أصحاب البضاعة الفاسدة . لكن تدخل خير الله المحامي بقوة حجته فرفع الغبن عنه في القضايا المختلفـة . ولم يجد أعز مني في أن يزوجني ابنته الطبيبة رغـم أننـي محامي . والأطباء عادة ما يتزوجون من طبيبات والعكـس صحيح بل إن الطبيبات يتمسكن بهذه القاعـدة أكثـر مـن الأطباء . لكنه كسر هذه القاعدة هو وابنته برلنتي التي وافقت بسرعة . وانتقلت إلى عش الزوجية الجديد . شقة فاخرة على البحر . وتركت شقة أبيها الضيقة ، تلك الشقة التي ضـاقت بأخواتها الأربعة . كانت برلنتي هي الأخـت الكبـرى فـي الخامسة والعشرين من عمرها ، تليهـا بنـت فـي الثالثـة والعشرين .. وهكذا حتى يبلغ أصغر الأولاد سـبعة عشـر عاماً . ماتت أمهم وهي تلد الولد الأخير وكرس الرجل حياته لتربية الأولاد .

عرفت من عينيها أنها تزوجتني عن حب . تولد لديها من فضول لمعرفة داخل ذلك المخلوق العجيب الذي يقرأ الأفكار . وقد كانت تأمل أن تنجب أولاداً مثلي يقرئـون الأفكـار .

كانت تأمل أن يكون ذلك مقدمة لجنس بشـري راق . ولـم يمنع الله عنها ذلك الأمل فوهبها ولداً سميناه عبد الله ..

***

أمم جمال عبد الناصر شركة قناة السويس شركة مساهمة مصرية .. وتوجست شراً قد يحيق بالبلاد . كان يريد أن يبني السد العالي ويبحث عن طريقة لتمويله ، فلم يجد غير هـذه الشركة يؤممها . ولما بدأ الشركاء السابقون في المـؤتمرات والشجب والمطالبة باسترداد حقوقهم ، شعر أهل بور سـعيد أن أيام المحنة آتيـة لا ريـب فيهـا . امـتلأت الشـوارع بالمسلحين . جنود تذهب وجنود تجئ . ودبابات تهرع إلـى سيناء . ودبابات تستقر عند الميناء . وصار رجال الشـرطة العسكرية يفتشون الجنود ويردونهم إلى وحداتهم لو كانوا لا يحملون تصاريح بالخروج من المعسكرات أو يسمحون لهـم بالمرور إذا كان لديهم تصاريح . تركت يوماً مكتبي صباحاً متوجهاً إلى المحكمة للدفاع في قضية من القضايا . أوقفنـي شرطي عسكري ، وقال وهو يحدق في : ألست تدعي خيـر الله ؟ .. قلت : نعم أنا خير الله . وتنبهت أن الشرطي ما هو إلا نوار لهب ابن الشوك . عرفت من قراءة عينيه بسـرعة أنه نقل إلى سلاح الشرطة العسكرية بعيداً عن المعتقلات بعد أن مات من سوطه خير الله المحامي . قال : كيف ذلك وأنت مت في المعتقل ؟ .. قلت ضاحكاً : أنا لم أعتقـل .. وها أنت تراني أمامك حياً . شدني مـن كتفـي إلـى قسـم الشرطة . ودخل بي إلى الضابط المسئول . وقـال : هـذا

الرجل ينتحل اسماً غير اسمه . يسمى خير الله المحامي ، مع أن خير الله المحامي مات في المعتقل منذ سنوات وتم دفنـه في صحراء ألماظة . أندهش الضابط وظـن أن الشـرطي مجنون . وأنا أقول : ربما ذلك الذي مات هو الذي أنتحـل شخصيتي وأدعى أنه خير الله وهو لـيس خيـر الله علـى الإطلاق . طلب مني الضابط أن أبرز هويتي فأبرزتهـا .. وقرأ الضابط أنني خير الله الورد وأن المهنة محامي وأننـي متزوج منذ سنتين ومقيم في بور سعيد . وطلب مـن أحـد الجنود أن يتأكد أن البطاقة صحيحة أم مزيفـة . وفحصـها الجندي عند المسئول وعاد يؤكد أنها صادرة من قسم بـور سعيد . وكان معي بطاقة العضـوية فـي نقابـة المحـامين فأبرزتها . وبالصدفة كان معي ليسانس الحقوق فوضعته أما الضابط . وألتفت إلى نوار لهب وقلت له : يبدو أن الرجـل الذي مات في المعتقل ودفن في ألماظة كان ينتحل أسمي .. وأين كان يعمل ؟ .. قال نوار : كان يعمل في القاهرة . ثـم سكت قليلاً وقال : غريبة أنه يشبهك تماماً . قال الضـابط : على العموم يا أستاذ خير الله سوف أجري بعض التحريـات لأعرف ما إذا كانت البطاقة مزورة أم غير مزورة وما إذا كان ليسانس الحقوق مزوراً أو غير مزور وما إذا كنت أنت خير الله الحقيقي أم المزيف . قلت مبتسماً : لك الحق .

وفجأة . سمعنا صرخات قنابل في الخارج في كل اتجاه . وخرجنا مسرعين لنرى السماء قد امتلأت بجنود المظلات . جنود تريد احتلال بور سعيد . وأرتفـع أزيـز الطـائرات

المغيرة . وعرفنا بعد قليل أننا سقطنا نحن أهل بور سعيد في قبضة ثلاث دول معتدية : إسـرائيل وبريطانيـا وفرنسـا . جاءوا بحجة تسيير القناة ورفع العدوان عن ممتلكاتهم .

انطلقت أشارك المدافعين عن بور سعيد جهـادهم ضـد الغزاة . عادت الحماسة العسكرية من جديـد إلـى قلبـي . وكانت قد خفتت جذوتها اعتباراً من عام ١٩٤٨ . إن ثماني سنوات مضت على انطفاء الجذوة وها هي تعود إلى الاتقـاد من جديد . بدأت أعمل قناصاً لهؤلاء الجنود البـيض حمـر الوجوه . وسمعنا أن إسرائيل دخلت سيناء واحتلتها . كانـت هذه نيتها من خلال مناوشات متعددة . تريد أن تحقـق مـا كتبته على الكنيست ملكك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل . تريد أن تكتسح الطريق حتى وادي النيل ثم تدور إلـى وادي الفرات لتستولي عليه . وكم اصطدت من هؤلاء الذين نزلوا بالبار شوت على بور سعيد . كانت السماء ممتلئة بهم ، لكن ماذا تفعل بضع رصاصات تصيب أو تخيب في آلاف نزلت على الأرض المقدسة تدنسها . وتدوسها بأقدامها .

انشغلت بالمقاومة . ونسيت بيتي وأهلي . وانخرطت في صفوف الفدائيين . لا أقول إنني كنت قائدهم إنما كنت فـرداً منهم . وقد عودت نفسي ألا أظهر في المجتمـع حتـى لا تكتشف القوى الخفية في . كنت أسهر الليالي حتى أصـيب معتدياً أو أكثر من معتد . ومعي زملائي الأكفاء .

قامت معركة بيننا وبين المشاة الإنجليز والفرنسيين عنـد أحد الجسور ، أسفرت عن قتلى وجرحى بينما أنا أتقهقر إلى

الخلف ، وجدت جندياً مصرياً متضرجاً بدمائه . شـددته ، وحملته على كتفي ، وجريت به حتى بلغت مستوصفاً عنـد أطراف بور سعيد . وتكاثر الأطباء حواليه . وقرر كبيـرهم أن لا بد من بتر قدميه . وتأملته لأفاجأ بأنه نوار لهـب بـن الشوك . ذلك الرجل الذي أراد إعادتي إلى المعتقل أو أدخل السجن بحجة أنني أنتحل شخصية خير الله الورد المحـامي المتوفي . وتركت الأطباء يتصرفون معه ، وعدت من جديد إلى المعركة . لكني لم أتركه وحده . عدت إليه لأطمئن على حاله . وأبلغتني الممرضة أنه استيقظ مساء واكتشـف بتـر قدميه وطفق يصرخ . وتجمع حواليه نفر من الممرضـين ، أحاطوه وكبلوه بقوة حتى لا يصاب مرة أخرى بالفزع مـن بتر القدمين ويسقط من فراشه ويصاب بأذى . ولما شاهدني وعرف من الممرضـة أننـي الرجـل الـذي حملـه إلـى المستوصف . صرخ في : لم لم تتركني أموت ؟ . . قلت له : لا تيأس من رحمة الله . إنني سأرعاك حتى تجد أهلـك . وقرأت في عينيه أنه يعاني من الانفعال بالانكسار . ويخاطب نفسه قائلاً : لم تفعل بي هكذا يا ربي . قلت له أطمئنه : لا تخف إن الله لا ينسي عبيده المخلصين . شعرت به ينتفض .

***

لما توقفت الحرب رحت أبحث عن أسـرتي الصـغيرة . وأسرة زوجي الكبيرة . لم أجد أحداً . قال القليلون الذين بقوا في العمارة : إنهم رحلوا إلى الريف القريب من بور سعيد . وزعم البعض أن الأب قد مات . ووجدت نفسـي بـين أن

أنتظر في بور سعيد حتى يأتوا بعـد عـودة الأمـور إلـى مجاريها أو أخرج للبحث عنهم في الريف القريب أو البعيد . ووجدت أن الحل الأخير فيه تخبط كبير ، وقد أذهب للبحث ويعودون فلا نلتقي أبداً .

ووجدت أن البضاعة في محل الأب - والد زوجتي - قد تتلف وأنني يجب أن أفتح المحل وأباشر العمل فيه . ونادت روسيا بالانسحاب ، وتبعتها أمريكا . وأذعن الحلفـاء إلـى أوامر ايزنهاور . وبدءوا الانسحاب بينما تلكأت إسرائيل في البقاء في سيناء .

تحولت في يوم وليلة إلى تاجر متوسط الحال في المـواد الغذائية بدلاً من محام مرموق . ووجدت أن هذه أموال يتامى يجب أن أرعاها " وأما اليتيم فلا تقهر " . وأخذت نوار إلـى بيتي ، فرغم أن أباه عدوي اللدود غير أني لا أقابل الإسـاءة بالإساءة ، بل أقابلها بالحسنة . ووجدت أن آية " أما السـائل فلا تنهر " تسيطر على كياني في هذه الظروف . وخصصت له حجرة في بيتي ، عسى أن يكون له مقر فإذا ما سألت عنه أمه أو سأل عنه أبوه الذي لا يعرفه ولم يشاهده في حياته ، تجده عندي . ووجدت أن أموال اليتـامى سـوف تـنكمش وتتلاشى إذا أنا توقفت عن التجارة ، فقفلت مكتب المحاماة مؤقتاً وتفرغت إلى التجارة . أشتري البضـاعة وأبيعهـا . وأضع الأرباح في مصرف من المصارف باسمي على أمـل أن يأتوا فأقدم لهم المحل لإدارته والأمـوال ليتوسـعوا فـي أعمال المحل .

اشتريت لنوار عكازين يتوكأ عليهما . وصار في إمكانـه أن يخرج ويدخل . وسلم نفسه للقوات المسلحة ونظروا فـي أمره وقرروا له معاشاً لعجزه الحادث بسـبب المعـارك . وقرر نوار أن يبقي في بور سعيد ، ولم يفكر أن يعود إلـى أمه المكلومة في سوهاج . كان يجد حرجاً أن يعـود إليهـا عاجزاً ففضل التباعد . ولم أشأ أن أعظه ليعود إلـى أمـه حتى لا يظن أنني أطرده من بيتي . وقد وجـد أن المعـاش يمكن أن يفتح له بيتاً ، ففضل أن يسكن في حجرة مسـتقلة ، فاتفقت مع صاحب العمارة التي كان يسكنها حماي أن يعطيه حجرة السطح فأجابني أنها مسكونة . ولذلك أعطـاه حجـرة بالدور الأرضي تليق بحالته . وكنت لا زلت ادفع إيجار شقة والد زوجتي بغية أن يعودوا يوماً ويجدوا المقر اللائق بهم . وترك نوار شقتي بعد أن أستقر في حجرته الجديدة .

***

كانوا يظنون أن الشقة ضاعت وأن التجارة نهبـت . وأن عودتهم إلى بور سعيد من قبيل المجازفة والسباحة في بحر مجهول . غير أن برلنتي صممت على أن تعود لتبحث عني . وتركتهم في القرية التي كانـت انضـمت إلـى عيادتهـا الحكومية هناك . وكان مرتبها يكفي لإعالة أخويها وأخواتها .

ذهبت إلى شقتها فلم تجد أحداً . وذهبت إلى شقة والـدها فوجدت أن القنبلة التي قتلت أباها لم تؤثر في المبني . كانت قد تركت ثغرة كبيرة في الشارع تمكنت الحكومة من ردمها

وسفلتت الشارع من جديد بعد اندحار المعتدين . ووجدت أن أحداً لم يسكن الشقة بعد . ولم تجد أحداً من الجيران يـدلها على ما حدث أثناء غيابها ، كانوا جميعاً في أعمالهم والأولاد في مدارسهم والنساء خرجن إلى السوق والعجائز لا يتحركن من إمكانهن أو لا يستطعن الكلام أو لا يعرفن شـيئاً عمـا يحدث حولهم . لم تجد بداً من الذهاب إلـى دكـان أبيهـا . وهناك وجدت خير الله الورد يبيع ويشتري كعامل من عمال المحل .

لهب بن الشوك

لم أترك الوقت يضيع سدى ، وأنا في قريتي بسوهاج . إذ عاودت تأليف عصابة جديدة بدلاً من تلـك العصـابة التـي ضاعت في قضية الباطنية . ألفتها من شباب القرية الأشـداء العاطلين عن العمل بسبب شح فرص العمل . لا ادري مـاذا كنت أنوي أن أفعل بهؤلاء الرجال - كنت فقـط أريـد أن تكون هناك حاشية تحيطني - ومن أجل أن أضمهم إلي كنت أقيم الولائم . تذبح فيها الأبقار والماشية .والخراف والدجاج ، والديوك الرومية في بعض الأحيان . تمر فيهـا الخمـور على الشفاه ولا تلفظها الأفواه . ويلعـب الحشـيش بـرأس الأشداء فيرخي عقولهم . تبدو ستارة سـقطت علـى نافـذة فأظلمت الدنيا من حولها . واصطفيت من بين هؤلاء الشبان كواء سميته مكواة . فاتخذته خديناً لي مثلما كنت أتخذ نوري .. وُك سجنه عما قريب .

سألني مكواة يوماً : ما هي الروح يا معلم ؟ .. أجبت وأنا أستند إلى وسادة في مجلسي العربي : الروح يا مكواة أعلى درجة من الضوء ، لذلك فهي حينما تنطلق من الجسـد ، لا تبدو كالبخار الصاعد من الحلة ولا تبدو كالضوء المنطلـق من قبو . إنما لا يحدد مسارها مادة ولا حتى طاقة . لا تؤثر فيها المادة فتمنعها من الانطلاق . ولا تؤثر فيهـا الكهربـاء مثلاً فتعمل على تقييدها في المكان بأن تشلها عن الحركـة . إنما تنطلق بقوة تفوق سرعة الضوء . وهي متماسكة تملؤها ذكريات الإنسان الذي كانت تتلبسه . ومعها كل أعماله . تبدو

شريطاً سينمائياً ولكنه مدرك . شريط عاقل . يحس ويعقـل ويتحرك منطلقاً ، لا يرجع إلى الخلف ، وإذا أراد الرجـوع في المكان رجع بطريقة دائرية بأن يلتف حول نفسـه . ولا تراها العيون وهى تتحرك .

تريث مكواة قليلاً كأنه يفكر ثم سألني : ما الشر ؟ .. قلت وأنا أتذكر نوري لا يفترق عنه فـي شـئ كـأني موعـود بالأغبياء . يلقي السؤال وفمه واسع متهدل . قلت : أتعـرف الورد ؟ .. قال : نعم .. قلت : هل تعرف الشوك ؟ .. قال : نعم .. قلت : الورد جميل ورائحته لذيذة ومنظره يسر يبـدو كالخير . قال : حقاً . قلت : والشوك مدبب . قاطع . جارح . يبدو كالشر . هز رأسه وفتح أنفه وفمه وقال : نعم .. نعم . قلت : لكن الورد ملازم للشوك أو الشوك ملازم للـورد . بل إن الشوك يحمي الورد ممن يريد قطفه . أليس كذلك ؟ .. قال : حقاً . قلت : هكذا الشر ملازم للخير . بـل إن الشـر يحمي الخير .. كأنه شوك يحمي الورد . غيـر أن مكـواة خرج عن غبائه وقال : لا أظن .

وما كاد يقول ذلك حتى لكزته في صدره فقال على الفور : لا .. أقصد .. لا أقصد .. قلت : أليست الدول الكبـرى شراً . أليست دولاً استعمارية ؟ .. تمـتص دم الشـعوب ، وتسيطر على الشعوب الصغيرة وعلى مقدراتها . قال : فعلاً .. فعلاً .. لكن هذه الدول الكبيرة تحمي الدول الصـغيرة . قال : إنها تدعي ذلك يا معلم . ومرة أخري زمجرت وقلت : أغرب عن وجهي ..

***

طُرق الباب بقوة . وتأملت حالي . لا زلت فلاحاً رغـم الملايين التي أملكها ، فقد كان ابن عمي يدخر كـل إيـراد الأرض في مصرف معروف في حساب جـار يخصـني . وتراكمت الأموال ولا زلت أعيش في بيت من طين ولـيس فيه الوسائل الحديثة التي كانت في بيتي في مصـر .. مثـل بيت الباطنية الذي تمت مصادرة ما فيه من أثاث .. أو كمـا كان في شقة شارع الهرم القريبة من قصر البغاء. أو كمـا كان في الفندق الذي سكنته . عز ومتعة وحضارة .

دق على الباب . ذهبت أفتح .. لم أكن أرضي أن يعيش أحد معي في البيت . ولا حتى عجوز شمطاء . فمنذ ماتـت أمي في سني المبكرة وكانت لا تزال شابة ، لم تدخل البيـت امرأة إلا للكنس والمسح .. ثم تمضي إلى حال سـبيلها . لا أقبل أن تبيت عندي . وكنت في بعـض الأحيـان أسـتخدم رجالي حتى أكسر أنوفهم ويعرفون دائما أنهم خـدم لـي . ولكن بعد انقضاء السهرات ينصرفون إلى دورهم .

فتحت الباب لأجد وصيفة .. أم نوار . نوار ذلـك الـذي تدعي أنه ابني . جاء من واقعة اغتصابها في زمن مضـى وأنا في باكورة الشباب . قالت منزعجة : ابني يا لهـب .. اختفت أخباره.

- ومالي واختفاء أخباره .

أدرت لها ظهري ودخلت . قالت وهي تدخل ورائي :

- إنه أبنك .. لا يؤكلك صدرك على ابنك .

لم أهتم لكلامها وقلت :

- ألم تقولي لي إنه دخل الجيش .. تطوع للعمل به .

- ذلك كان منذ زمن .. ولم يرسل خطاباً .. ولم يأت في إجازة .. سنتان مضتا ولم يره أحد . أبحث لي عنه .. جزاك الله خيراً .

امتعضت ، فأنا لا أحب أن يكلفني أحد بعمل إلا إذا دفع ، ثم أنا الذي أكلف . قلت : ألا تعرفين في أي سلاح يخدم ؟ ..

قالت : لا أعرف شيئاً عنه . ذهب ولم يعد . ربما قـرف من الحقيقة التي تلاحقه في عيون الناس أنه ولـد لا أب لـه وعلى مقربة منه أبوه لا يعترف به .

قلت أريد أن أقفل فمها : سوف أشد الرحال صباحاً للبحث عنه .

وجدت في الأمر سبباً أترك فيه البلدة . وأهرب من إلحاح هذه المرأة الذي سوف لن يهدأ وأعود من جديد إلـى حيـاة المغامرة .

شعرت وأنا في القطار بشعور غريب يجتاحني . لـم لا أذهب وأبحث عنه وأقول له إنني أبوك .. أو على الأقل أتعرف عليه دون أن أنبس ببنت شفة . أشاهد ملامحي فيه . أشاهد البذرة التي قذفتها يوماً في رحم امرأة ماذا كان نباتها ؟ ..

سألني مكواة وهو يجلس بجانبي في القطار : إلى أيـن نحن ذاهبان ؟ ..

قلت : الأبناء عادة ما يبحثون عن آبائهم . واليوم ينقلـب الوضع فيبحث الآباء عن أبنائهم .

قال : عادة ما يبحثون إذا تاه الأبناء .

قلت : أخرس أنت .

دائماً يحاول أن ينبهني للحقيقة . وعادة ما أكبح جماحه . أريد أن أطمس الحقيقة . ما أقوله هو الحق . ولو كره غيـر المصدقين . قلت وأنا أتظاهر بأني مثقف : يرمزون أحيانـاً إلى الأبناء الذين يبحثون عن الآباء بأنهم يريدون الوصـول إلى الجذور . فماذا يكون الرمز في حالة الآباء الذين يبحثون عن الأبناء ؟ ..

لم يترك لي فرصة للكلام ، قال مكواة : إنهم فـي هـذه الحالة يريدون الوصول إلى المصبات . في الحالـة الأولـى يريدون الوصول إلى الينابيع . أما في هذه الحالة فيريدون أن يعرفوا نهاية المطاف .

قلت : يريدون الوصول إلى الفروع يا حمار .

سكت ، لم يعلق . بدا أن الولد يريد أن يتفوق على أستاذه . تذكرت وأنا أسأل في إدارة قبول المتطـوعين عـن اسـم نوار لهب الشوك . أين موقعه ؟ .. ودلوني على الشـرطة العسكرية . وهناك في إدارة الشرطة العسكرية أبلغوني أنـه في بور سعيد ، منضم إلى سرية الشرطة هناك . تذكرت يوم كنت أتعامل مع العصابات الصهيونية . تذكرت حسابي فـي سويسرا .. هل قفل ؟ .. لقد نسيته تماماً في خضم الأحـداث ..وكان تحت أسم جابر جبران جبر . لكن الأمر لـم يتعـد

عمليتين أو ثلاث عمليات ، ثم توقفت بعد أن تم القبض علي وأفلت من الحراس . كيف السبيل إلى استرداد هذه الأموال التي حولت إلى هذا الحساب ؟ .. لقد ضاع مني اسم البنـك وأين يقع المصرف في سويسـرا ؟ .. ثـم إن العصـابات الصهيونية تحولت إلى دولة فمن أخاطب وأنا أتحـرى عـن ذلك الحساب وأبحث عنه . ونسيت تلك الخواطر وأنـا فـي طريقي إلى بور سعيد لأتصل بنوار وأبلغه أن أمه تريـد أن يتصل بها . هل سأعود ثانية إلى قريتي بسوهاج ؟ ..

دخلنا بور سعيد والقوات الإنجليزية الفرنسية تهبط عليها من الجو . وتحاصرها إسرائيل من سيناء . وسمعنا صـوت القنابل . أرتعد مكواة . وانتشيت وأنا أسمع أزيز الطائرات . خاف مكواة وتشجعت . وقال لي : هيا بنا من هذه المدينة . قلت : أين نذهب ؟ . قال : ها هي سيارة أجرة نركب فيها إلى أي جهة تقصدها . تم حشرنا في السيارة . كانت تركب فيها ثلاث بنات وشابان . كان الشبان قـد تعمـدا الركـوب بجانب السائق تفادياً للزحام . وتركوا البنـات الـثلاث فـي الخلف . وسمح لنا السائق أن ننحشر معهـن . وزاحمنـاهن والتصقت بواحدة منهن كانت تحمل طفلاً وقادتنا السيارة إلى دمياط . ومن هناك اخترقت المكان إلـى القـرى المتاخمـة لدمياط ونحن نسير مع السيارة دون هدف معين . اسـتقبلنا أحد الوجهاء في المطرية . واعتبرنا من أهالي بـور سـعيد الفارين بجلودهم . وبالصدفة البحتة احتسبنا من هذه العائلة . وعرفنا أن العائلة فقدت عائلها في انفجار قنبلة في الشارع .

وكان عائداً بسرعة من دكانه ليحتمي ببيته ، فأصابته شظايا أودت بحياته في الحال . وبعد دفن رب العائلـة الـذي تـم بسرعة قرر أفرادها أن يهربوا من النيران المشتعلة في كـل مكان والجحيم المستعر والقتال الدائر بين الفدائيين والقـوات المعادية .

أتضح ، والحرب لم تزل مستعرة ، أن الشـابة الكبيـرة طبيبة وأنها متزوجة ولها ابن ثمرة هذا الزواج .. وأن الباقي هم أخوتها . وقد قدمت الطبيبة واسمها برلنتي نفسها لوزارة الصحة بدمياط وطلبت أن تعمل فـي المستوصـف بقريـة المطرية التي حللنا بها حتى تكون بجانـب أخوتهـا الـذين تعولهم .

استأجرت بيتاً ريفياً يقع في نفس الحارة التي اسـتأجرت فيها الطبيبة وأخوتها بيتاً ريفياً آخر . وقد أسـرع الأهـالي بتأجير البيت للطبيبة حينما عرفوا شخصيتها وأنهـا طبيبـة المستوصف المسئولة. وأسرع الأهالي بتأجير البيت لي حينما أبرزت الأموال الطائلة التي احملها . المال يفـتح الأبـواب مثلما المصلحة تفتحها . كنت قد فكرت أن أستقر فـي هـذه القرية . لا حباً في الاستقرار ، إنما لأن الأمل كان يراودني أن أنشئ العلاقات الساخنة بيني وبـين الفتيـات الـثلاث . وأفضيت بسري إلى مكواة . لم أفكر أن اكتفي بواحدة حتـى لو كن أخوات . وسألني مستغرباً : لكنهن أخوات يا معلـم ؟ .. وحرام الجمع بين الأختين فما بالك بـالأخوات الـثلاث . زعقت فيه وأنا أقول : وهل أنا سوف أتزوجهن يا مغفـل .

فتح فمه كبوابات مصر القديمة . وقال بعد لأي : أليس ذلك زنا ؟ ..

قلت : هذه كلها اختراعات إنسانية ..

قال : لكنها لازمة .. لحياة إنسانية سليمة .

لكزته في صدره ، وقلت : أخرس .. أنت لا تعلم شيئاً ..

لا أعرف كيف يكون من قـدري أن يلازمنـي شـخص يعظني ليل نهار بل يناكفني .

كان كل هدفي هو المتعة حتى لو نفر منها الناس .

***

شاغلت الفتيات الثلاث : برلنتي وجواهر وزمردة .. في أوقات مختلفة . كانت برلنتي صامدة لا زالت تعتز بزوجها ، ولا تريد أن تظهر بمظهر العاهرة أمام أبنها ، فصدتني بأدب . حتى هيجت النار في يافوخي . وكانت جواهر أقـل منهـا صموداً ، تقبلت بعض الأموال حتى تشتري ما يسترها ، لكنها أبت أن تفرط في عرضها . أما زمردة فقد استسلمت دون أدنى مقاومة كأنما كانت تبحث عن رجل بأي وسـيلة . وكانت تتستر بالليل وتأتي إلي بينما آمر مكـواة أن يـدخل حجرة من الحجرتين ويلوذ بها ويقفل عليه ولا يخرج منهـا أبداً إلا إذا أصدرت له أوامري . لكني كنت في الحقيقة أهفو إلى برلنتي البيضاء الجميلة . وأعجبت بروحهـا الصـلدة ، حتى سألني مكواة : وهل الروح صلدة ؟ .. قلـت : حينمـا تكون خلاياها متماسكة تكون صلدة . سأل : ومـا مظـاهر صلادتها ؟ .. قلت له وأنا أهرب من تورطي في تعبير غير

دقيق : إنها تنفذ في الأشياء والأشياء لا تنفذ فيها . راح يقول : عجيبة .

كان الشبان مستسلمين لحياة الراحة لا يحولان فعل شئ ولا حتى العمل . ينتظران انتهاء الحرب حتى يعـودا إلـى الدراسة ومعهما تلك التي قطفتها مبكراً .

وفي يوم هربت من أسرتها . كانت قـد حملـت منـي ، وطلبت أن أتزوجها . قلت لها بوضوح : أنـا لا أتـزوج . قالت : وهذا الذي في أحشائي . قلت لها : تخلصـي منـه . ويبدو أنها هربت لتتخلص منه ، ولو أني لم أرها بعد ذلك .. طوال فترة إقامتنا بالمطرية .

ولم تعرف الدكتورة برلنتـي أسـباب هـروب أختهـا . وزعمت بعض النسوة أنه جنون يأتي من أهوال الحـرب ، ويجعل الإنسان يخرج شارداً حائراً لا يدري أين يبيت أو أين يعيش ؟ .. وأبلغت الشرطة عنها بيد أن الشرطة عجزت عن معرفة مكانها لعلها تركت دمياط بأسـرها . وظهـرت أنـا بمظهر المساعد في المحنة ، ولم يدر أحد أنني سـبب هـذه المحنة . وكنت أشعر بالغبطة وهم قلقون حائرون ويضربون أخماساً في أسداس .

هدأت الحرب . وانسحبت الجيوش . وأعلنا انتصاراً زائفاً عليهم . لم يقنعني هذا الانتصار . وسـألني مكـواة : مـا الانتصار إذاً ؟ .. قلت له : أن نكبد العدو ولا ننحنـي . ولا تضيع منك أرض أو أشياء أو ناس وإذا ضاعت تعرف كيف تعوضها على حساب العدو ذاته .

***

تركت برلنتي القرية لتعود إلى دمياط ومنها إلـى بـور سعيد ، لتتفقد أخبار الزوج هناك . تركت مكواة ورائي نائماً ، وتتبعتها دون أن تلاحظني . كانت أجمل أخواتها . عشقتها بالفعل ، لكني لم أنلها مما ترك غصة في حلقي . ولم تستطع النقود التي عرضتها عليها ورفضتها أن تجعلها تلين وتخضع . كان كبرياؤها يعجبني . وصمودها يؤلمني ويحفزني على مواصلة مطاردتها . ولما وصلت بور سعيد اقتفيت أثرها من بيت أعتقد أنه بيتها .. إلى بيت أعتقد أنه بيت أبيها المتـوفي .. إلى محل .. غابت فيه فترة من الوقت وخرجت مع رجل .. ياه .. هذا الرجل يشبه خير الله الذي سفكت دمه أكثر من مرة . ويعود إلى الحياة .. كيف يعود إلى الحياة ؟ .. ربمـا هو شخصيات متعددة . إن المصريين يتشابهون خاصة فـي الصعيد . والسوريين يتشابهون . وأهل الصين تبدو تقاطيعهم واحدة ، فما المانع أن يكون عدداً من الشخصـيات متماثلـة والأمر يلتبس علي . يبدو أنني لا أتمكن من أن أميز الواحد منهم عن الآخر .

***

عاد أهل برلنتي من جديد إلى بور سعيد . وعادت برلنتي وابنها إلى زوجها خير الله . لقد تأكدت أنه خير الله ولا يعقل أن يكون الشبيه اسمه أيضاً اسم الأصيل . لا يعقل أن يكون اسمه خير الله أيضاً . لكن كيف عاد إلى الحياة ؟ ..

استأجرت شقة بالقرب من منزل أخوة برلنتي . فإذا كانت برلنتي حصن منيع ، فإن أختها جواهر العزباء لـن تكـون مثلها . ومن الممكن إغراؤها ودخولها في فلك لهب الذي لا يقاوم . عيناه الحمراوان لا تقاومان .. ترسلان إشعاعاً قويـاً يجمد الأنثى فتلين أو تنكسر .هكذا كنت أظـن فـي نفسـي وأثبتت لي التجارب .

توثقت علاقتي بأخويها : جوهر ودهب . يبدو أن أبـاهم كان مغرما بالمعادن والجواهر النفيسة فأخذ يسـميهم علـى أسمائها . وطالت بيننا الثرثرة ونحن جلوس علـى المقهـى القريب من بيتهم . وعرفت منهما أن زوج أختهما خيـر الله طلب منهما أن يتفرغا لدراستهما ، وأن يباشر عنهما تجـارة أبيهما . وبدأت أحرضهما ضد خير الله بهدوء وخبث . لـو نجحت خطتي فسوف يتشابكان معه . وقد تتدخل برلنتي في التشابك ولسوف تنصرن أخويها ، فتتطور الأمور وقد تصل إلى الطلاق أو القطيعة .. حينئذ أرمي شباكي عليها وأفـوز بها . إنها لا بد مناصرة أخويها ولسوف يحتد خير الله عليها ويعلن أنها طالق . ستكون مطلقة ليس لها سند ووجدت سنداً فلم لا تعتمد عليه . وإذا ما فزت بها أنهل من نهرها حتـى أستكفي وأنطلق بعيداً عن بور سعيد .

طلبت من أبن عمي في البلد أن يرسل لي حوالة بها آلاف الجنيهات باسمي الجديد : صابر صبري صبور .. ذلك الذي خرجت به من البلد . ومعي البطاقة التي تثبت ذلك .. بطاقة رسمية لا غبار عليها . وأرسلت مكـواة - نـديمي - إلـى

سوهاج ليأتي بالرجال الأشداء - عصابتي - حتـى يكونـوا سنداً لي في التجارة الجديدة التي أزمع القيام بها . ولم يكـن أمامي غير تجارة السيارات القديمة والجديدة .

التقيت بجوهر وذهب مرة أخرى عند المقهى . وسألتهما ماذا فعلا ؟ .. لقد أثبت لهما خير الله بالدليل القاطع أنه ربح كثيراً من تجارة أبيهما ، وأن الأموال أودعت في المصرف باسمه وهو مستعد أن ينقلها بأسمائهم جميعاً حتى تلك الفتـاة الشاردة زمردة . وقد صمم أن يخرج للبحث عنها لكن بعـد أن تستقر الأمور . إذاً فشلت خطتي وقد يكشف خير الله فيما بعد أنني سبب مأساة زمردة . لكن ذلك لم يردعنـي عـن زيارتهما في بيتهما لألتقي هناك بأختهما جـواهر . هنـاك أستطيع أن أقيم علاقات وثيقة بيني وبينها . وكانت قد عادت إلى عملها بعد أن توقفت عنه بسبب الهجرة الاضطرارية من بور سعيد . كانت حاصلة على بكالوريوس التجارة وتعمـل في بلدية بور سعيد . وادعيت أنني حاصل على بكالوريوس الهندسة قسم ميكانيكا . ونظر إلي مكواة مستغرباً لكن خالت الكذبة عليهم .. الثلاثة الأخت والأخوان . وفوجئـوا أننـي أنوي شراء وكالة لبيع وشراء السيارات . وعرفوا أنني مـن أثرياء الصعيد وأنني قررت أن أقيم في بور سـعيد . لقـد توثقت العلاقات بيننا أكثر مما كان عليه الوضع في المطرية .

***

كان مطلب أم نوار يلح علي ، فوجدت أن من الـلازم أن أبحث عن نوار ، حتى يحدث الخرس لهذا المطلـب الملـح ويكف عن النباح . وتوجهت إلى سرية الشرطة العسـكرية وسألتهم عنه ، فأخبروني بالنبأ الـذي زلزلنـي . أن الفتـي أصيب في العمليات الحربية وأن قدميه تم بترهمـا . وأنـه صرف تعويض الإصابة وأن معاشه المقرر بسبب العجز يتم صرفه من أحد مصارف بور سعيد . وأنه قرر الإقامة فـي هذه المدينة . وعرفت اسم المصرف وقررت أن أذهب فـي أول كل شهر إلى المصرف حتى أصـادفه .. وأدعـوه أن يعود إلى أمه المكلومة .

غير أن المعجزة حدثت ورأيته أمامي وأنا اصـعد إلـى زيارة أخوة برلنتي . كان خارجاً يستند إلى عكازين .. مـن الحجرة الأرضية ، كأني رأيت شكلي في المرآة . وأستغرب مكواة أن يكون الشبه بيننا كبيراً إلى هذا الحد . ولا يفتـرق عني إلا في هذين القدمين المبتورين .

جاشت نفسي بالمشاعر ولكني ضبطها ..ها هـو رجـل اسمه نوار ينتسب إلى بذورك ؟ .. بادرته قـائلاً : ألسـت نوار لهب ؟ ..

أجاب مندهشاً : نعم .

مددت يدي لأصافحه وتذكرت أنـه يسـتند بهمـا علـى العكازين ، فتراجعت . وربت على كتفه كمـا يفعـل أهـل السودان ، قلت : أنا أبحث عنك . أنا من سوهاج ، وأعرف أمك . كلفتني أن أبحث عنك . بحثت عنك فـي القـاهرة .

وبحثت عنك في بور سعيد لما قالوا لي إنك تعمل بها . ولولا ظروف الحرب لكنت قد وجدتك . تريد أمك منك أن تعود أو على الأقل أن تتصل بها . أنت تعرف القراءة والكتابة ؟ ..

كان يتأملني باستغراب ، كأنه يتعجب لهذا الشبه العجيـب بيني وبينه . ولا حتى في الأفلام . كان يستمع إلى صـوتي كأنما يستمع إلى صوته . وسألني : ما أسمك ؟ ..

قلت له : أنا صابر صبري من سوهاج ..من قريتك .

قال لنا : تفضلا لنشرب الشاي . لكني اعتذرت . وعدت إلى شقتي . ولم أفكر أن أزور أخوة برلنتي بعد ذلك . كنت لا أقوى على مواجهة ابني ونفسي . وسؤال صارخ يتردد في صدري : لم تنكرت لأبني ؟ .. لم تنكرت؟ ..

خير الله بن الورد

جاء أخا برلنتي يسألاني : أين ذهبت أموال أبيهمـا ؟ ... قلت لهما إنها في الحفظ والصون . لقد كانت البضاعة علـى وشك الهلاك فأنقذتها . تنازلت عن عملي كمحام ، واشتغلت بائعاً حتى لا تضيع عليهم أمـوال أبـيهم . شـاهدت فـي ملامحهما الخجل والرغبة في التواري عـن الرجـل الـذي

ضحى بوقته من أجلهما ومن أجل أخواتهما . وشاهدت وأنـا أقرأ ما في نفسيهما أن لهباً وراء ذلك الموضوع . متى جاء ذلك الرجل إلى بور سعيد . آخر مرة رأيته في فلسطين وهو يفر مني .أجاء مع الأعداء وأندس وسط الصفوف .

راجعت معهما وهما يجتران الذكريات حديثه إليهما . وأنا أتابع الذكريات كنت أقول لهما إن المال في الحفظ والصون . والأرباح تجنب أولاً بأول . وما عليهما إلا أن يفتحا حسـاباً جارياً في أحد المصارف وأودع في حسابهما ما يشاءان من الأرباح . أو أن يأتيا في نهاية كل ثلاثة شـهور ويحصـلا عليها . وإذا أرادا أن يشاركا العمال في العمـل بالمحـل ، فليتقدما . وإذا أرادا إدارة المحل فأنا مستعد للتنازل . فـإن لهما النصيب الأكبر من أنصبة أخواتهما الـثلاث .لكنهمـا تخاذلا وطلبا أن يعفيا من ذلك الواجب لأن الجامعة سـوف تفتح أبوابها عما قريب . وسوف يذهبان إلى كليتيهما علـى الفور . كان أبوهما رجلاً يؤمن بتعليم الرجل والمرأة لـذلك حثهما على أن يتعلما ويتقدما علمياً ولم يترددا فـي تحقيـق وصيته .

ولما ذهبت إلى برلنتي حكيت لها حكايتهما فاستنكرت ما فعلاه وطلبت أن أغفر لهما ، ولكنـي طيبـت خاطرهـا . وانصرفت إلى العمل بمكتبي . فقد عدت إلى العمل بالمحاماة بعد العدوان . وأتفقد من حين لآخر تجـارة والـد برلنتـي وأخوتها . ووليت واحداً عليها أثناء غيابي . وكنت أسـتطيع أن أعرف الرجل الأمين من الرجل اللص . لما أوكلت العمل

لأحد العمال ، كنت أقرأ ما يدور في خاطره مـن عينيـه . اكتشفت أنه لص . طردته على الفور . كان يحاول أن يظهر بمظهر الرجل الشريف ، فلما قرأت في عينيه أنـه يخـتلس الأموال أولاً بأول . واجهته بالحقيقة وهو مذهول . قلت له إنه سرق اليوم مائة جنيه دخل المحل وإنه سـرق بـالأمس خمسة وسبعين جنيهاً . وقبل الأمس سرق خمسين جنيهـاً . وأنه يودع هذه الأموال في بيته في حقيبة قديمة وأن عليه أن يسلمها على الفور . وإلا داهمت الشرطة منزله واسـتردت هذه النقود . وأن عليه أن يسلمها الآن وإلا سينام اليوم فـي السجن . انتفض الرجل وخرج مسرعاً وعاد لاهثاً وسـلمني المبالغ التي سرقها . وقلت له أنصرف ولا ترني وجهك . أما العامل الثاني فقد اقتنعت به وقرأت في عينيـه الرضـا بالحال والرغبة في أكل العيش الشريف والزود عن المحل . ولم يحس الرجل أنني يمكنني أن أعرف أعماله الخفية ، لذاك استرحت من عناء العمل في محل البقالة وتفرغت للمحاماة . وتم فتح حسابات للبنين والبنات وصرت أودع فيها أربـاحهم بما لا يؤثر على سير العمل في المحل . وأودعت في نصيب برلنتي نصيب أختها الهاربة . ولم أدر لما هربت فقد كـانوا يجهلون هم الآخرون . وقد قسمت أرباح البنـات والابنـين طبقاً لما شرع الله تعالى . وجمعتهم وأعلنتهم بـذلك . ولـم تمانع واحدة أو واحد منهم فـي تقسـيمي . وطلبـت مـن الأخوين أن يستكملا تعليمهما الجامعي علـى حسـابهما ولا دخل لأخواتهما في ذلك ، فانصاعا . ولو أنني قـرأت فـي

عيونهما أنهما يرغبان أن تضحي العائلة من أجلهمـا علـى اعتبار أن وفاة والدهما لم تحدث ، ولو استمر يحيـا لكـان الصرف عليهما من ذلك المال الذي تركه . وأخبرتهمـا أن الوفاة حدثت بالفعل ويجب أن يتكفل كل واحد بنفسه .

كنت من حين إلى آخر أزور البنت التـي بقـت والتـي صممت على البقاء في منزل والدها ليبقي البيت مفتوحاً أمام أخويها اللذين يدرسان في جامعة القاهرة وأختها الغائبـة . وكانت تزورها برلنتي من حين لآخر معي أو وحدها . كنت أشاهد نوار يجلس في حجرته مكتئباً .. وألقي عليه التحيـة فيلقيها علي بامتعاض . وأقرأ في عينيه أنه يأسف لأن قدميه قطعتا وأنا لا زلت أسير على قدمين مع أننا اشـتركنا فـي العمليات الحربية كل في مجاله . كيف أنا المعتقل أعود إلى الحياة سليماً وهو لم يعتقل يعود عاجزاً . ثم يحادث نفسـه : إذا كان هذا هو المعتقل فكيف عاد إلى الحياة ؟ .. هل رأيت ميتاً يعود إلى الحياة ؟ .. إنك تخرف يا فتي . لابد أن الآخر كان منتحلاً لشخصية هذا المحامي . أو لعل الآخـر مـات وانتحل ذلك الرجل أسمه . أليس لهذا التوهان من آخر ؟ .. وكان ينوي أن يعض اليد التي أحسنت إليه وذلـك بمعـاودة إثارة الموضوع من جديد بإبلاغ الشرطة بوضعي الغريب . الميت الحي . أو البديل المزيف ، لكنه يتراجع حينما يتـذكر أنني أنقذته من الموت والتشرد واشتريت له عكازين .

***

تلقيت من مجهول خطاباً أن زوجتي تخونني مع آخـر . خطاباً أرسل على عنوان مكتبي . حاولت أن أقرأ في عيني برلنتي حوادث حياتها لكن لم أتبين فيهما أن لها علاقة برجل آخر . عادة لو كانت هذه العلاقة موجودة لأنشغل فكرها بها ولظهر واضحاً الرجل الآخر . تردد ما قاله لها وما قالته له في سرها . تستعيد الذكريات عنه . لكن كل مـا كنـت أراه مرضى ومعاملات مع الطفل عبد الله والطفل الذي جاء بعده وسميته المدثر لأنه كان يتدثر بكيس جلدي في رحم أمـه . وتذكر الحوادث الجميلة معهمـا . وقـراءة كتـب الطـب واسترجاع أسماء أدوية الأمراض المختلفة ، لـذلك أهملـت الخطاب وأرجعت ذلك إلى خبيث يريـد أن يهـدم حيـاتي الزوجية . وصعد الدم في عروقي حينما تذكرت لهباً . لقـد رأيته في عيون أخويها فما المانع أنه بدأ يعبث معـي ؟! .. ما المانع في أن هذا الرجل يريد أن يفسد علاقتي الزوجية ؟ .. إنه من حث أخواها على أن يطالباني بحقوقهما في المحل . لكن أين يسكن في بور سـعيد ؟ .. ومتـي ألتقـي بهـا؟ ..وكيف عرف أنني زوجها ؟ .. ولم يريد أن يفسـد ذلـك الزواج ؟ .. لم يكن في الإمكان أن أكتشف أن لهبـاً ألتقـي بزوجي في فترة من الفترات السابقة ما دام أن فكرها لـيس مشغولاً بهذه الفترة . فأنا لا أتمكن من قراءة إلا ما هو ماثل أمام الفكر والذاكرة . ولا يتذكر الإنسان كل شئ في وقـت واحد . تسقط منه ذكريات كثيرة . ولم يكن من عادة برلنتي أن تجتر ذكريات الماضي . أو لعلها كانت تسـترجعها فـي

لحظات لا أنظر فيها إليها . ربما وهى وحدها . وربما وهى نائمة . وربما وهي في العمل وليس هناك مرضى تنشغل بهم .

***

أثناء تناول طعام الغداء ، وهى الفترة التي نجتمـع فيهـا دائماً قبل أن أغادر البيت إلى مكتبي ، وتمضي هـي إلـى الفترة الثانية في المستشفى . قالت برلنتي في استغراب :

- عرضت على حالة اليوم غريبة . مريض أسمه صابر صبري صبور . قست له ضغط الدم فأتضح لي أنه مرتفـع مائتين على مائة . ثم في القياس الثاني تبين لي أن الضـغط مائة وعشرين على سبعين . ثم قست للمـرة الثالثـة فكـان مائتين وعشرين على ثمانين . واجتمع الأطباء والطلبـة . - طلبة كلية الطب فـي الامتيـاز - ليفحصـوا المـريض . واستغربوا جميعاً . قراءة القياس أختلف من طبيب إلى آخر ، ومع نفس الطبيب في كل مرة يقيس فيها ضغط المريض .

سألتها : مم يشكو ؟ ..

قالت : صداع وترنح .. صداع وترنح .. فكأن الصـداع من ضغط الدم العالي .. والترنح من ضغط الدم المنخفض ..

سألتها : وماذا فعلت به ؟ ..

قالت : طلبت إدخاله إلى العيادة الداخليـة . وتنويمـه .. حتى تستقر حالته .

لما تمعنت في عينيها . عرفت أن هذا الصابر هو لهب .. ماذا يريد من زوجتي ؟ .. ولم يلاحقها ؟ .. أيريد أن ينـتقم

مني في شخصها ؟ .. وماذا فعلت هي له ؟ .. كنت في كل مرة أطبق القانون بعدالة سواء في السلم أو فـي الحـرب ، ولكن هل هو يعرف معنى العدالة ؟ ..

فضلت أن أنتظر لأرى ما سيفعله ، وأتدخل فـي الوقـت المناسب . وكان ذلك خطأ مني وغلطة وقعت فيها .

***

تتبعت برلنتي حالة صابر صبري .. وكانـت تعطينـي نتائجها أولاً بأول . كل المقاييس اضطربت بالنسـبة لـه . مقياس الحرارة يعطي درجة مرتفعة . وبعد برهـة يؤشـر بدرجة منخفضة . والضغط ما يزال بين النزول والصعود . والأشعة كلما حاول الأختصاصي إجراءها احترقت الصورة . كأن إشعاعات قوية تدخل إليها فتتلفها . ونبضـات القلـب مسرعة في أول قياس . مبطئة في القياس الثاني ، كأن داخله "أراجوز" يرقص ويتلاعب ويتثنى .

متى يخرج ذلك الرجل من المستشفى ؟ ..

لا أدري . ماذا يريد منها ؟ .. إنه حالة بالنسبة لها لـيس إلا . لكن ماذا تكون بالنسبة له ؟ ..

قررت أن أواجهه في المستشفي . وأطلب منه أن يحـل عن زوجتي . وذهبت إلى المستشفى قبل العصـر .. وقـت الزيارة . ولم أجده في فراشه . أختفي كأنما رآني فهرب . انتظرت حتى يعود لكنه لم يعد . أتراه شاهدني فأبق كالعبـد الهارب .. هل سيعود ؟ . .

بعد يومين سألت برلنتي عنه . أجابت باستغراب : إن الرجل ترك المستشفى فجأة ولم يعد .

***

اختفت برلنتي هي الأخرى بغتة . وتذكرت المرحومة صفاء يوم اختطفت . وبدا لي أن المأساة سوف تتكرر وعلى يد لهب مرة أخرى . خطفها ذلك الأفاق صابر صبري . المعروف لدي باسم لهب بن الشوك .

ذهبت إلى نوار لعلي أعرف منه أين يقيم لهب ، ذلك لأني شعرت أن هناك علاقة بينهما .وفوجئت بأن صاحب البيت واقف مع آخرين يهدمون حجرة نوار لتحويلها إلى متجر صغير لبيع الآثار المقلدة .

- أين ذهب نوار ؟

- رحل ..

-وحده .

- أنا لا أعرف شيئاً عنه .

صعدت إلى أخت برلنتي عسى أن أجد لديها أخواها ذلكما الذين حثهما لهب على استرداد أموالهما مني . وعاملاني كنصاب في البداية وغاصب لأموال أبيهما ثم اقتنعا أخيراً أنني أعمل لصالحهما . ولم أجدهما قد جاءا من الجامعة . أخبرت جواهر أن أختها اختفت ، وأن والدينا لا يجدان من يراعهما . قررت جواهر بعد أن أفاقت من الصدمة أن تأتي معي لترعاهما . وتركت ورقة ظاهرة بذلك في شقتها لأخويها .

استقبلتهما بعد أيام . وكانت الشرطة قد فتشت عن برلنتي ولم تجدها . وحاولت أن أعرف منهما أين يقيم هذا الصـابر صبري صبور . غير أنهما لم يعرفا . قالا إنهما كانا يلتقيان به على المقهى . سألتهما كيف تعرفا عليه ، فحكا لي أنهمـا أو أنهم - كل الأخوة - التقوا به هو وشخص آخر في سيارة قادتهم إلى دمياط ومنها إلى المطرية حينما هربوا من ويلات العدوان الثلاثي قاصدين الاختباء فـي المطريـة . وهنـاك تعرف بهم وصار يودهم .

شعرت أن برلنتي الحبيبة ضاعت مني إلى الأبد .

لهب بن الشوك

أنا الآن أهوى هذه المرأة ، لا مناص من أن أنالها . مهما كان الثمن حتى لو كان حياتي . ماذا أفعل حتى أفرقها عـن زوجها . ذلك المحامي الضئيل المشاكس معي إلـى الأبـد المعترض طريقي دائماً . لقد نلت أختها زمردة ولـم أعـد أذكرها . وحاولت نيل أختها جواهر ، فلم أتمكن . ولما تركنا المطرية لم تعد جواهر تستلفتني .. لم تعد تسـتلفتك ، إنـك هربت من لقائها حتى لا يراك نوار ويكتشـف أنـك أبـوه ويطالبك بحقوقه . حقوق البنوة . المهم أن برلنتي صـارت تستلفتني . كثيراً سواء عند غدوها إلى المستشفى الذي تعمل به أو إيابها إلى البيت . لقد غيرت سكني من أجل أن أراها . انتقلت من وسط المدينة إلى أطرافها بالقرب من شاطئ البحر . أصبح بيتها قريباً من بيتي وصرت أراها عند عودتهـا أو

عند ذهابها . كنت كالعاشق المتيم أنتظر خروجها في الصباح وإيابها في المساء أو عند العصر .

خطر لي خاطر أن أثير الشك في نفس زوجها فأرسلت له خطاباً أخبره فيه أن زوجه تخونه .

في هذه الأثناء افتتحت وكالة استيراد السيارات . وكانـت سيارات قديمة يقوم عمالي بتجديدها . وطلبت من مكـواة أن يذهب إلى سوهاج ويستدعي أفراد العصابة ليكونوا بجـانبي سنداً وعوناً وأنا أدير الوكالة وهم يحرسونها .

قبل سفر مكواة قامت رياح الخماسـين ، تحمـل معهـا الأتربة وتدفعها الرياح بشدة وتقذف بالبشر وبالأشـياء فـي الشوارع والحواري . وتغطي الجو بسحابة قاتمة من الغبـار أو بالأحرى الرمل المبعثر في الجو كأنه ضباب كثيف ثقيل .

قال مكواة : الجو لا يبشر بالخير يا معلم .

قلت : هكذا الدنيا مليئة بالصفاء والبهجـة والمتعـة فـي أحيان كثيرة ومليئة بالشقاء والحزن والألم في أحيان أخرى .

سألني : ولم خلق الله كل هذه الأشياء ؟ .

شعرت بألم في قلبي ، وأنا أقول : الدنيا متلونة متعـددة مختلفة متنوعة . أنظر المواد مثلاً حديد نحاس ذهب فضة . الأحجار الكريمة زمرد مرجان ياقوت . الطاقة ضوء كهرباء مغناطيس . الحشرات قمل عنكبوت عقارب . بل أحيانا تجد أنواعا داخل هذه الأجناس . مثلاً في الحيوان حمار مخطـط وحمار أسود وحمار أجرب اللون رمادي . حتـى الإنسـان هناك فيه تنوع . أحمر أسود أبيض أسمر أصفر .

قال مكواة مستعجلاً : والنهاية ؟ ..

غضبت كأنما يقول لي الملعون : خلصنا من ثرثرتـك ، لكني تغاضيت عن لمزه وقلت :

- النهاية . كل هذه التشكيلات الكثيرة سـوف تعـود .. تصور جميعها تعود مرة واحدة وكانت تأتي فرادى .. كأنها شريط سينمائي لكن مجسم . شريط تجد فيـه كـل المـواد والحيوان والنبات الإنسان . في زمن واحد وفي مكان واحد .. أي قدرة هذه التي تجمع كل الأشياء والحيوان في وقـت واحد وفي مكان واحد بمفرداتها أي عظمة . داخلهـا هـذا التنوع والتعدد والاختلاف يمكن أن تلمسه وتحس به . تبـدو كأنها ذكريات وليست ذكريات . تبدو أنها حقـائق وليسـت حقائق . كالأساطير وليست أساطير . شعرت أننـي بـدأت أخرف امتنعت فجأة عن الكلام . وقلـت لـه وأنـا أدخـن النارجيلة : أمض .. نم .. فسوف تسـافر غـداً لإحضـار العصابة .

***

انتظرت حتى يأتي الخطاب بمفعولـه ، لكـن المحـامي الضئيل لم ينفجر غضباً كأنه ليس من أهل الصعيد . لم يمس الطبيبة الحلوة أي مساس . لم يتقدم إلى مأذون الميناء ويطلق سراحها . لم يصرفها بمعروف كأنما لم يهتم بما أرسلته من خطابات مليئة بأقذع الشتائم واللمزات . تفتق ذهني عن حيلة جديدة . وهي أن أعرض نفسي من جديد على الطبيبة فـي العيادة الخارجية للمستشفى لتكشف علي . كنت أعرف أنني

من طبيعة خاصة سوف تحيرها . غيـر أن هـذه الطبيعـة جعلتها تدخلني العيادة الداخلية حتى أبقى تحت الملاحظـة . وهناك أبقي بالقرب منها ونتصادق . كانت تعرفني من يـوم التجأنا إلى المطرية فراراً من العدوان الثلاثي على بور سعيد لذلك أشعر أن العلاقة سوف تتوثق في المستشفى .

- أهلاً صابر بك .
- أهلاً بالسيدة الدكتورة .
-مم تشكو ؟ ..
- صداع قاتل . وترنح خطير . كأنني سأفقد الروح .

احتارت في قياس ضغط الدم . ولم تدرك الطبيعة الخاصة بي ، فكانت كمن يفحص الماء وهو بالفعل يفحص ناراً . أو يتمعن في خصائص التراب وهو لا يجد غير الهواء . ثم لم تجد بداً من إدخالي العيادة الداخلية حتى لا أسقط مغشياً على في الطريق . وطلبت من مكواة هو وأفراد العصابة الـذين جاءوا من سوهاج على شوق ، ومعهم أفراد العصابة القديمة الذين فروا من ليمان طره وقت العدوان الثلاثي على مصـر وهربوا إلى الصعيد . ولما عرفوا أن الزعيم يعمل في بـور سعيد نزحوا إليها . لعل في تغيير الأحـوال مـن صـحراء جدباء إلى ميناء خصب دائم الحركة ما يفيد . وجاء معهـم نوري ذلك الصبي القديم الذي فر من السجن بعد أن ألقيـت عليه القنابل وسادت الفوضى وهرب من هرب . وبقى من بقي . وكان هو واحداً من الهاربين . وأعلنت الصحف بعـد أيام أنه تم القبض على الفارين ، لكنها لم تكن صادقة تماماً .

فلا نوري ولا أفراد العصابة القديمة كان واحداً من المقبوض عليهم . وقد غير ابن عمي للجميع أسماءهم بالبطاقات القديمة . بعث أسماء الأموات إلى الحياة ولم يغير إلا صورهم . إن ابن عمي مصنع من مصانع البطاقات الشخصية الخضراء .

حاولت أن ألفت نظر الطبيبة ، لكنها كانت مغرمة بهـذا الضئيل المحامي . وتتفانى في خدمته وخدمة والديـه منـه . تسرع حينما تنتهي نوبة عملها والسعادة تنطلق من عينيها ، وطاقات منها تستقر في ملامحها . وتأتي والمضض يأسـر أساريرها وشعاع من الاشمئزاز يسري في دمهـا . حتـى رأيت ذلك - الخير الله - داخلاً يتفحص المرضى . تواريت في شرفة العنبر الكبير ، ثم هربت من المستشفى .

عذبت نفسي عذاباً طويلا من أجلها حتى أنالها .. وذلـك حينما دخلت المستشفى حيث الطعـام الـرديء والفـراش المقرف ، بيد أنها كانت غير ملتفتة إلي . شئ يثير الغضب أن لا يهتم بك إنسان وأنت مغرم به .لا يبدو من ملامحهـا أنها فكرت في لحظة واحدة إلا باعتباري مريضاً لا غيـر . ولما كنت لا أطلب غير مضاجعتها لذلك قررت أن اخطفها . وفي بيتي أشعرها بحبي وغرامي وهيـامي . وإذا رضـيت بالذوق كان بها وإذا لم ترض أنالها غصباً .

هربت من المستشفى وأنا أدبر المكيدة في ذهني .

***

في إحدى الليالي ، والأمطار تودع الشتاء بغزارة ، كنت أسير أنا ومكواة ونوري عائدين من الوكالة . شاهدت نـوار

يسير على عكازين . كيف نسيت هذا الولد ؟ . ولأول مـرة أفعل حركة خير في حياتي . شاهدته وهو يقفـز بالعكـازين لتفادي الأمطار . وهى تشتد بعنف . ووجدناه يسقط أرضـاً. يختل توازنه . حملناه إلى بيتي بأمر مني . وتركته ينام فـي الفراش في حجرة أخرى غير حجرتي . وأنصـرف مكـواة ونوري إلى شقتيهما . وفي الصباح دخلت عليـه الحجـرة وسألته وهو يتيقظ :

- كيف الحال يا بلدياتي ؟ ..

فتح عينيه بصعوبة ، كان لا يزال يعاني من أثر السقوط والغيبوبة ، وسأل :

- أين أنا ؟ ..

- في بيتي .

- من أنت ؟ ..

- أنا صابر صبري صبور . بلدياتك الذي أوصتني بـك أمك .. ألم تتصل بها حتى الآن ؟ ..

أعرض عني امتعاضاً : كيف سأتصل بأمي وأنا عاجز ؟ .. ألا يكفيها مسئوليتها عن نفسها ؟

قلت : لا تحزن . سوف أتكفل بك .

مؤكد أن الشك ساور الولد من ناحيتي ، لكنه لم يعترض . قلت له : سوف أشتري لك كرسياً تسير به .. سوف أسأل عن عمل أطراف صناعية حتى تمشى على قدمين . سـوف أسند - بعد ذلك - لك عملاً في وكالتي .

كان في داخله على ما يبدو يسأل لم كل ذلك ؟ .. لكنه لم ينطق السؤال . كان جوعان للحنان والشفقة . ولم يعرف أن هذا الرجل الذي يمنحه إياهما إنما هو أبوه . ولـم أشـأ أن أعرفه حتى لا أرتبط بمسئولية بيني وبينه . ولم أسأل نفسي لم فعلت هذا الخير ؟ .. كنت أخشى الإجابة .

***

قام بعض أفراد العصابة بالاتصال بالطبيبة برلنتي ، حتى تأتي لتفحص المريض صابر صبري صـبور . ويبـدو أن الطبيبة كانت فضولية للغاية ذلك لأن حالتي المرضية غريبة لا تتفق مع ما تعلمته في كلية الطب ، لذلك لم ترفض ولـم تقل لهم دعوه يأتي إلى المستشفى أنا لا أذهب إلى البيـوت . ولعلها كانت أول حالة لها تخرج فيها إلى بيت مريض . ولم تدرك الفخ الذي نصب حولها . وجدت نفسها في حجرتـي . تقوم بفحصي ولم تشعر آن الباب يقفل علينا قفلاً محكمـاً . وظهر وجه الذئب أمامها واضحاً . غير أنهـا قالـت لـي بوضوح :

- أنا امرأة مخلصة .. ولن تجرؤ أن تنال منـي شـيئاً . وإذا حاولت أن تتقدم مني فسوف تكون نهايتك .

سألتها مستغرباً : بأي شئ سوف تضعين نهايتي ؟ ..

قالت بمكر : أقترب وحاول .. وسوف تجد ما لا يسرك .

كانت تحمل حقيبة الفحص في يدها ، فشـددتها منهـا . ونهضت من فراشي ضاحكاً . قالت :

- إن أداة موتك ليست في الحقيبة .. حاول إذاً أن تتقـدم مني فتتخاص من حياتك نهائياً . احترت فعلاً . ماذا يمكن أن تفعل بي ؟ .. لأول مرة في حياتي أشعر بالخوف على نفسي . هل أضيع حياتي من أجل امرأة لن أنالها ؟ ..

قلت حازما أمري :

- على العموم . الحجرة مغلقة . ولن يتسن لك الخـروج ولا حتى لي إلا إذا نلت وطري ، فتمضين إلى بيتك بسـلام وقد نلت غرضي .

قالت صارخة :

- هذا حلم تحلم به .. ولن أحققه لك .

قلت ساخراً :

- ماذا يعجبك في هذا القصير القميء؟ ..

قالت هازئة :

- قصير قميء . إنه رجل شريف مخلص متدين . وليس خائناً فاسقاً لا شرف عنده .

ارتكبت . وجلست على الفراش وأنا أقول :

- إذاً فلنبق نحن الاثنين في هذه الحجرة حتى نموت معاً . لن يدخل إلينا غذاء . ولن نجدد الهواء . وذلـك حتـى نرحل معاً إلى السماء .

وضحكت من هذه القافية والسجع .

جلست متباعدة في نهاية الحجرة على الأرض تستريح . وكانت ملابسها طويلة فغطت قدميها . ولم تكن مثل هـؤلاء

النسوة اللاتي إذا جلسن انكشف نصف أفخاذهن . وقالت : لم أكن أظن أنك مجرم بهذه الدرجة !! ..

قلت أتغاضى عن إهانتها :

- رغبة عارمة ماذا أفعل بهـا . حاولـت ونحـن فـي المطرية فخاب مقصدي . وحاولت وأنا في المستشـفى فلـم تعريني اهتماماً . لم يكن هناك بد إلا أن تجمعنا هذه الحجرة الواسعة معاً . وأطلب منك ..

قاطعتني قائلة : أنا لن ألبي .

مرت عدة أيام ونحن محبوسان في هذه الحجرة . يـدخل إلينا الطعام خلسة ويؤخذ بقاياه خلسة أيضاً . وكنـت أتأمـل الطبيبة وأحاول أن أقترب منها فتزمجر . لا تنام . لـم تـنم خلال هذه الفترة الطويلة إلا لماماً وعندما أستغرق في النوم . ترنحت من قلة النوم ولكنها واصلت المثابرة . ما هذه القدرة التي تملكها؟ .. وما هي الأداة التي تكمش عليها يدها حتـى تقتلني بها حينما أهاجمها . لعل في يدها مشرط مسمم سوف تجرحني به فأموت في الحال ؟ .. هكذا أوحت إلى . ولم لا تموت وهى تمسك بها ألا يتخلل السم مسام يدها ؟ .. وهـل مثل هذا المشرط دائماً في يدها ؟ .. إنني أرى بالفعل يـدها تقبض على شئ . ولا يحدث أن تفتح يدها وتريحهـا . وإذا فتحتها وأراحتها أرى اليد الأخرى تقبض على ذلك الشيء . تستبدله بين يديها وأنا لا أحس بعملية الاستبدال . يبدو أنها تفعل ذلك وأنا أغمض عيني . يبدو أن المشرط محفوظ في جراب لذلك لا تتأثر من السم الغارق فيه .

في النهاية يأست وسرحتها من البيت ، وأسرعت تحمل حقيبتها وتمضي .

وطلبت على الفور من مكواة ونوري أن يبحثا لي عن فيللا في مكان بعيد أنتقل إليها فأنا أعرف بالضبط ما سيفعله ذلك الجنوبي في ، فهو لن يترك ثأره ولا عرضه الذي حاولت أن أمسه دون أن يسدد لي طعنة نجلاء . وبعد أن انتقلت إلى الفيللا طلبت من نوري أن يسرع إلى ابن عمي ، ليصنع لي بطاقة جديدة تحت أسم محسن حسني الحسيني . وقبل أن يحضر نوري البطاقة كتبت عقد تنازل عن وكالة بيع السيارات من صابر صبري صبور إلى محسن حسني الحسيني . وقد دفع صابر قيمة كل الموجودات في الوكالة وتسلمها محسن في أجود صورها . وبعد أن عاد نوري بالبطاقة . نزلت اللافتة القديمة وحلت محلها اللافتة الجديدة .

انتقلت إلى الفيللا الجديدة ومعي نوار بشحمه ولحمه . ولم أفكر أن أرسل إلى أمه أخبرها أن نوار يعيش في كنفي . بخلت عليها بالسعادة . كنت أريد أن تشعر شعور الثكلى كأني أعاقبها على جريمة ارتكبتها . وما هي إلا أم قلقة على ولدها الذي خرج ولم يعد .

***

صرفت النظر عن ملاحقة الطبيبة برلنتي ، فأنا لا تستعبدني امرأة مهما كان جمالها ومهما كانت أنوثتها . واستمررت أعمل في الوكالة الجديدة بالاسم الجديد . تقوم الوكالة بإصلاح السيارات القديمة وقلبها إلى جديدة وبيعها

كما لو كانت جديدة . في نفس الوقت أرسلت نوار إلى طبيب متخصص في الأجهزة التعويضية ، فعاد من جديد يسير على قدمين صناعيتين . وبعد تمارين طويلة اصبح بمقـدوره أن يتماسك دون عكاز يمسكه في يده . فرحت ولأول مرة دمعت عيناي وأنا أراه أمامي منتصـباً . يصـافحني ويشـكرني . ويحاول أن يضمني إليه ليعبر عن امتنانه ، لكني تباعـدت . وقلت له ، وكنت أستقبله في الوكالة : أدخل لتتسلم عملك .

جلست على المقعد أمام مكتبي ، وأنا أشـد أنفاسـاً مـن النارجيلة . وبجانبي مكواة عن يميني ونوري عن يساري .

قال مكواة : عمل الخير عمل كريم حقاً .

قلت متفلسفاً: كل الأعمال واحدة .

تساءل نوري : كيف ذلك يا معلم ؟ ..

قلت : الإنسان هو الذي يوصـف ذلـك العمـل خيـراً ويوصف ذلك العمل شراً . إذا جاءت مصلحته فـي عمـل يقول هذا خير . وإذا جاب العمل عليه ضرراً يقول هذا شر .

قال نوري : هناك أعمال معروف أنها خير .. وأعمـال معروف أنها شر .

قلت : لكن أعمال الخير في زمن قد تكون أعمال شر في زمن آخر . ألم تكن عبادة الأوثان خيراً كاملاً في الجاهلية . ولم يكن أحد يستطيع أن يمتعض منها . فماذا حدث حينمـا جاء الإسلام . أصبحت عبادة الأصنام رذيلة أي شراً وأصبح

الناس يستهزئون بهـؤلاء الـذين يقترفونهـا ويسـتهجنون تصرفاتهم .

قال مكواة : يا معلم .. القتل والسرقة و الزنـا .. أمـور معروف أنها شر . والحب والصـداقة والـزواج .. أمـور معروف أنها خير .

شددت نفساً من النارجيلة وقلت لمكواة : أسكت .. أسكت .. أذهبا إلى عملكما . أذهبا .. لا أريد أحداً بجواري .

خير الله بن الورد

جاءت برلنتي بعد حادثة اختطافها وعودتها بشهرين تقول لي : إنني حامل . أخذتها في حضني وتمنيت لها حملاً هادئاً . ولو أن بذور الشك نمت في صدري . خشيت أن تكون قد ادعت أن لهباً - الشهير بصابر صبري صـبور - لـم يمسسها وقد اعتدي عليها بالفعل ، وحملت منه سفاحاً وتريد أن تنسب الجنين إلي . ولو أني يوم عادت من عنـد لهـب دققت في عينيها وهى تروي لي قصة اختطافها ، وتأكـدت بالفعل أن لهباً لم يمسسها . رأيتها تتذكر انكماشـها بجانـب الحائط ومشاهدتها متحفزة ويدها تمسك بمنديل ورقي كانـت تجفف به عرق يديها . وأوحت إلى لهب أنه مشرط مسـمم وأنه إذا دنا منها فسوف تلمسه به وتجرحه فيموت في الحال من قوة تأثير السم الممزوج بالمشـرط . وصـدق الجاهـل كلامها وخشى على حياته وأفرج عنها بعد طول احتجـاز .

كنت أصدق روايتها ولم أكن لأرفضها حتى لو لم أقرأ فـي عينيها الحقيقة المؤكدة . كانت بطبعها لا تكذب . ولو كنـت رجلاً عادياً لما صدقت وما برأت ساحتها لاتهمتها بأن لهبـاً أغتصبها ، وأن ذلك الجنين بذرة من بذوره . . ومهما أوتيت من قوى خفية فإن طبع البشر لا يزال يسيطر على تفكيري . وأدركت لو جاء المولود أحمر الشـعر والوجـه والعينـين فسيكون ابن لهب .

استمرت الحياة رغم هذا الشك . وكان يراودني من حين لآخر . ويوم عادت من عنده ثار غضبي لما سمعت القصة . ولم أسمح لها أن تأخذ قسطاً من النوم . وذهبت إلـى بيـت لهب بصحبتها لأواجهه بجريمته وأقتص منـه . غيـر أنـه كعادته تبخر من مكان وقوع الجريمة . لديه إحساس بالخطر يجعله يفر قبل القبض عليه متلبساً . سألنا الجيران عنه ، فلم يدلونا على شئ . وكم كان استغرابي أن البيت قريـب مـن بيتي ، كأنما كان يترصدها ذلك الثعبان . وعـادت برلنتـي يومها إلى البيت ونامت ما يقرب من يوم كامل . واستيقظت والإرهاق تبدو آثاره على صفحة وجهها .

بحثت عن محل له في بور سعيد ، غير أني لم أجد محلاً باسم صابر صبري صبور لتجارة السيارات كما فهمت مـن أخوة برلنتي أنه افتتح محلاً يعمل في هذا المجال . كل مـا صادفته محلاً باسم محسن حسني الحسيني . فكرت أن أدخله وأسأل فيه لكني عدلت عن الفكرة . ربما كان يدعي أن لـه محلاً وهو عاطل يبعثر في الأموال التي يكتسبها من الأجرام

. يكفي أيضاً أن الفضيحة مستترة فلم أعلنهـا أمـام النـاس والغرباء . سوف تشم الناس من سؤالي الفضـيحة ومـن لا يعرف سوف يدرك أبعادها فأكون في موقف لا أحسد عليـه وتنتشر الإشاعات ويبدأ نساجو الحكايات في مطها وتأويلهـا وأنا في غنى عن هذا كله .

***

لما ولد مصطفي خير الله بن الورد كانت ملامحه تشـبه وجه أمه . أبيض مثلها . قسمات وجهه هادئة دقيقة ، شعره ناعم . ولم يكن أحمر الوجه أو الشعر أو العينين . مما جعل الطمأنينة تزحف إلى قلبي وترقد فيه . بل أنجبته برلنتي بعد الحادث المشئوم بعشرة شهور . وماتت بـذور الشـك فـي صدري ولم ترتفع لها ساق ، ولم تنبت لها ثمار .

شاهدت ولدي الكبيرين الآن يغدقان الحنان على مصطفي . يجمعان في شبههما بين ملامح مني وملامح من أمهمـا . وتأثرت لهذا الحنان . وتأكدت أن ولدي لو لم يكن من صلبي لنفرا منه .

وجاءت جواهر تحمل هدية لأختها بمناسبة ميلاد الطفل . وجاء أخواها يباركان . أثاروا موضوع اختفاء أختهم أثنـاء الحرب . ورأيت أن أنشر بأسمائنا نداء إليها أن تعـود فقـد انتهت الحرب وأن أموالها متاحة ويمكنها أن تتصرف فيهـا ولن يطاردها العوز أو الحاجة . وكنا نتوقع ألا تقرأ زمـردة ذلك الإعلان ، غير أن الصدفة وحـدها جعلتهـا تقـرؤه . وعادت تحمل طفلاً على يدها وحقيبة ملابسـهما فـي اليـد

الأخرى . ولما سألناها عمن يكون والد الطفـل . قالـت إن رجلاً أغواها وتزوجها ثم هجرها لا تعـرف لـه مقـراً . وعرفت من عينيها أن أسمه صابر صبري صبور . ، لكني لم أذع السر وكتمته في قلبي . ولما حاولت أن تذكر اسـمه منعتها من ذلك . وقد قررت الفتاة أن تعيش وحدها في شقة منفردة تربي ابنها وتستفيد من أرباح متجر والدها المتوفي . وكان شعر الولد أحمر ووجهه أحمر وعينـاه حمـراوين . وعرفت من هذه الخصائص أنه ابن ذلـك اللعـين الطليـق الهارب من يد العدالة . وكيف السبيل إلى الاقتصاص منـه وهو كالبخار موجود ولا يراه أحد .

فعلاً استقلت زمردة بمنزل بعيد قريب مـن الشـاطئ ، وأدركت من خلال السؤال عنها أنها تربي طفلها على كراهية أبيه ، والتصميم على أن ينتقم منه نظراً لفعلته الشنعاء . ولما عارضتها في ذلك أبت زمرد ة أن تحيد عن هذا الخط ، لقد أرضعت الولد لبن الكراهية واستمرت تطعمه من طعام الحقد والغل ، حتى يشب الولد على عدو أسـمه صـابر صـبري صبور . . لكن أين سيجده ؟ ..إنها لا تعرف أن له أسـماء أخري في الزمن الغابر ، وأسماء جديدة في الزمن الحاضر ، وقد يغيرها في المستقبل . فكيف يتسنى لعبد القوي صـابر صبري أن يكتشف أباه ؟ .. أخبرت زمردة أنني أعرف ذلك الرجل وأنه متلون . وإزاء هذا الاختلاف والتجدد لن تجده ، وعليها أن تعلم ولدها حب الخير و تربيه على حسن الخصال وذلك بدلاً من الكراهية والحقد نحو إنسان لن يتسن أن يـراه

أو يصادفه . ادعت التصديق لكلماتي ، بيد أنني قرأت فـي عينيها أنها مصممة على أن تمضي في طريـق الكراهيـة . وأن تزيد الواد غلاً ، لذلك تركتها تفعل ما تريد لعل الأيـام تعلمها أن ذلك أمر لا فائدة منه ، وأن ثمار التربيـة سـوف تنضح بالمر وليست الثمار المرجوة التي تفيض بالعسل .

كانت زمردة قد عاشت في كنف أسرة ريفيـة . عرفـت سرها . وغطت على عارها . ولما أطلعـت علـى إعـلان الأسرة ، عادت إلى بور سعيد لتنعم بالثروة التـي تركهـا أبوها وتمت تنميتها في غيابها . نماها زوج أختها . حاولـت من خلال قصتها مع هذه الأسرة التي احتضنتها أن أعرفهـا أن الخير موجود وليس عليها أن تنكره غير أنها كانت تعتقد أنه كان موجوداً واختفي بعد أن فعل المدعو صـابر فعلتـه معها وتنكر لها .

***

صممت زمردة أن تفتح محلاً لحياكة الملابس . وقالت إن الهدف منه هو الكشف عن صابر صبري صبور ، ذلك الذي اعتدى عليها ولفظها . بجانب السعي وراء توسيع الـرزق . ولم يقتصر محل الحياكة على الملابس النسائية إنما أمتد إلى الملابس الرجالية . كانت وجهة نظرها أن المدعو صابر قد يأتي بزوجته أو عشيقته إلى محل النساء فقط وينتظر حتـى تنتهي مرافقته من قياس ثيابها وتطلع إلى وجهه وتعرفه وتنفذ انتقامها فيه بعد ذلك لأنها تعرف عنوان الزبونة . لكن أكدت لنفسها أنه شخص لاه ، ولا يفكر في مرافقة أنثي إلى المحل

لذلك افتتحت محلاً للرجال فقط ، منفصلاً عن المحل الأول ، ومنه تستطيع أن تسترق النظر إلى الرجال .. إنهـا مـديرة المحلين ولن يشغلها عن النظر شئ . العاملات هن اللاتـي يقمن بقياس الفساتين للسيدات . والعمال هم الـذين يقيسـون للرجال ويفصلون بعد ذلك الثياب المطلوبة وهى تتلقى النقود فقط وتراقب رواد المحل .

أنضم إليها شريك جديد عن محل الرجال ، كمـا أنضـم إليها أخواها وأختها جواهر . وقامت بإدارة المحل . وتركوا محل البقالة لي لإدارته ، وطفقوا يعملون في المحل الجديد .

ولما سألتها عما سوف تفعله بصابر حينما تجده أو تلتقي به . لم تحر إجابةً . بل قرأت في عينيها أنها مشتتة الفكر . أستقتله لكنها لا تجرؤ .أستترك ابنها يقتله . سيقتل الابن أباه . وتتراجع عن الفكرة . يكفي الاعتراف بالابن . لا أهميـة لأن تتزوج منه . إنها محتارة . قلقة . والأيـام تمضـي ولا يظهر صابر المزعوم . ويكبر المحلان ويتسعان . وتفد إليها النساء كما يفد الرجال لكن صابر لا يظهر . ربما يشـتري ثيابه من المحلات التي تبيع الثياب الجاهزة . ربما يرتـدي الجلباب البلدي والعباءة كرجال الأعمـال أبنـاء البلـد . إذاً فلتتوسع وتشتري محلاً لبيع الملابـس الجـاهزة الإفرنجيـة وكذلك البلدية .. لكن حدث ما منعها من التوسع !! ..

***

شغلتني قضية . . قضية رجل ضائع أتهم باغتصاب امرأة عجوز وقتلها . لم أستطع أن أعرف من قاتل المـرأة وأنـا

أعاين الجثة مع الشرطة وقد انتدبتني المحكمة للـدفاع عـن الرجل المتشرد . لا يمكنني أن أقرأ عيون الموتى حتى أقرأ من عيني المتوفاة من قتلها . ورفض المتشرد الاتهام . إنه لم يقتل المرأة ، لكن حينما حاول اغتصابها فعلاً تبين له أنهـا ميتة . وقرر الطبيب الشرعي أن المرأة ماتت مخنوقـة ولا توجد على رقبتها أي بصمات . كانت المحكمة قد انتـدبتني لأن الرجل لم يوكل محامياً عنه ، وكان المحامون يعتذرون عن هذه القضايا المجانية . فالرجل ضائع لـن يـدفع شـيئاً لمحاميه حتى لو أثبت أنه برئ . وكان الرجل ينكر التهمة ، يقر بمحاولة الاغتصاب لكن لما وجد المتوفاة مخنوقة تراجع . إذاً كيف يغتصب امرأة مخنوقة ؟ ! .. ما هي اللذة التـي سوف تعود عليه . إنه فكر فعلاً في اغتصابها ، لكن تراجع بمجرد أن وجد المرأة فاقدة الحياة . كان المتهم يعترف أمام القاضي في بلاهة ودون ترتيب في معاني الكلمات مما أوحى لي أنه أبله وقد فكرت في ذلك ولكن تناسيت إزاء اعترافـه بنيته فهو مدرك للفعل الفاضح فكيف يكون أبله ؟ .. إذاً مـن قتل المرأة ؟ ..مجهول .. مجهول .

دخل على مصطفي في مكتبي ، ورآني حـائراً أضـرب أخماساً في أسداس . ونظرت إليه وأنا أتساءل : أتكون أنـت الآخر يا مصطفي جئت نتيجة اغتصاب ؟ .. سمعته يقول لي : أنا أبنك يا خير الله بك ! .. انتفضت .. إنه مثلـي يقـرأ العيون . إنه ورث الميزة التي تميز بها : قـراءة العيـون . قمت وضممته إلي وقبلته . أخيراً زال الشك يا ولدي .

ثم سمعته يدلي برأيه في القضية . فتش يا أبي في خصال الرجل . قد يحول ذلك دون اتهامه .

وفعلاً ثبت أن الرجل هاجم الضحية وهى ميتة . وأنه لـم يفعل شيئاً سوى الرقود عليها . بل ثبت أنـه عنـين فكيـف يغتصب أنثي ، علاوة على أنه تبين أنه أبله .

برأت المحكمة ساحة الرجل على أساس أنه غير مسـئول عن تصرفاته ، وطلبت إيداعه مصحة عقلية لكن قاتل المرأة العجوز لم يكتشف وأستمر مجهولاً .

اندلعت الحرب . قامت القوات الإسرائيلية بضرب مـدن القناة بلا هوادة . وضاع أبناؤنا في الصحراء . ومن استطاع أن يعبر سيناء إلى جهة الغرب عاد مريضاً مضعضعاً سقيماً . وتم التهجير الإجباري لكل أبناء القنـاة : رجـال ونسـاء وأطفال . هل أترك المعركة وأذهب مع العائلـة المهجـرة بالأمر ؟ ..

لهب بن الشوك

لم أكن أظهر أمام الناس . معظم الأعمال يقوم بها نوري ومكواة ونوار . كنت أدخن النارجيلة في مكتبـي بالوكالـة وأتلقى الأموال . وفي المساء أذهب إلى كازينو . ألتقط نسائم الريح وعطر النساء . وفي الفجر أهجع إلى داري ، وأنـام ملء العينين . كان لا يزال معي في الدار نوار . استضافته قبل أن يفك عجزه ، وأستمر ضيفي حتى بعد أن كان يمشى على قدمين صناعيتين . لكن لم أفكر لحظة أن أقول لـه إن بناءه من صلبي . وما أهمية أن يعرف أنني أبوه ، أو أننـي لست أباه . المهم أن أحداً لم يكن لي صديقاً . لا في الوكالـة ولا في الكازينو ولا في الدار . أنا أحب هذه الوحـدة لأنهـا تصقل مواهبي في إيذاء الناس وجمع الأموال وفعل الموبقات .

كان نوري يرتب لي النارجيلة ويسألني كعادته : لم كانت هناك دنيا وكانت هناك آخرة . وأين هي الآخرة ؟ ..

قلت أؤنبه : هل تظن أن سؤالك هذا عويص يا عقر ؟ .. الدنيا فينا والآخرة فينا . أنظر الروح . إنها فـي الجسـد لكن لا تعرف مكانها . هكذا الآخرة معنا ولكننا لا نراهـا . شئ أشبه بمادة شفافة تتخال مادة صـلبة . كالكهربـاء فـي الأسلاك . أو الضوء في الجو . أو المغناطيس في الصلب . أو الطاقة في السيارة .

أندهش نوري من كلامي . بدا لي أنه يحس أنني رجل وعر متعمق ، وأنا أستطرد :

- الآخرة فينا لكنها غير مكشوفة . سوف يحدث في يوم من الأيام أن تكون الآخرة ظاهرة والدنيا باطنة . مثلما الحال الآن الدنيا ظاهرة والآخرة باطنة . وفي ذلك الوقت سـتكون الروح هي المشاهدة والجسد غير مشاهد .

حدث لي أن انجذبت للفكرة التي طـرأت فـي ذهنـي . ورحت أفسرها بوضوح : سوف يحدث أن ...

ووجدت أن الفكرة لن تروق نوري ذو العقـل البسـيط ، فشددت نفساً من النارجيلة . وتوقفت عن الكـلام . ونـوار يعرض على حسابات الوكالة . ويسلمني إيراد اليوم الماضي . ويخبرني أنه تسلم إعلان قضية من المحكمة مـن عميـل يتهمنا فيه بالتدليس وتزوير أوراق سيارة قديمة على أنهـا جديدة . قلت لنوار : أبحث عن محام عقر .. يخرجنـا مـن هذه القضية . قال نوار : أعرف محامياً اسمه خير الله الورد ، ساعدني في تخطي محنة قطع قدمي . وطفق يتصدق عليّ إلى أن غمرني إحسانك . قلت وأنا أتصنع الهدوء واللامبالاة

: العفو يا ولدي ، أنا لم أفعل غير ما وصتني به أمك ، لكن لا داعي لخير الله هذا .

كلما سمعت اسمه أشعر بالرغبة في حك جلدي . وقلـت في نفسي لعلها حساسية . لكن لم أنطق الكلمة . ورحت أقول : أبحث عن محام آخر .

انصرف نوار ليبحث عن محام ضليع . ومكواة يوصـل الحديث الذي أنقطع فيسأل : لم كانت الدنيا مادامـت هنـاك آخرة . لم لم يحدث إلغاء للدنيا وإبقاء الآخـرة مـا دام الله سامح آدم . قلت متصنعاً الضحك وأنا انتفض ، وأفكار جديدة تصل إلى مخي في الوقت واللحظة : الدنيا تغيـر وكثـرة . والآخرة ثابتة وليس فيها تناسل . كان من اللازم أن يحـدث التناسل أولاً وهو ما يليق بالدنيا . ثم يتوقف ليـدخل النسـل الآخرة .

سألني : ومتى تعتقد أن الآخرة ستأتي ؟

قلت : حينما يتوقف التناسل . حينما تنقرض الأنواع . ألا تلاحظ أن هناك بعض الأنواع تنقرض . فـإذا مـا حـدث وانقرضت جميعها فستأتي الآخرة .

كان نوار ينظر ببلاهة إلي لأنه يسمع أموراً لم يسمع بها من قبل . وأنا أسرد تصوري وأخرف كيف ما أشـاء فـلا رقيب ولا حسيب علي . أنا صاحب المال ، والبـاقي كلهـم تابعون . أليس على رأس الحكم صاحب السلطة ؟ .. من إذا تكلم أصبح كلامه قراراً ؟ .. فلم لا يكون كلامي حقـائق لا

صلة لها بالأساطير وأنا صاحب الصولجان والنقود الخضراء والحمراء ؟ ! ..

***

تعرفت براقصة في أحد الملاهي الليلية الواقعـة قـرب البحر . راقصة متحركة . كل شئ فيها يتحرك . ردفاهـا . نهداها . وسطها . عيناها تغمـزان . وحاجباهـا يرتفعـان وينخفضان .استطعت أن أدفن أحزاني الساخنة فـي نارهـا الموقدة ، فتحرق نارها الأحزان وتحولها إلى شجن لذيـذ . كنت فعلاً حزيناً لأن برلنتي الطبيبة لم ترضـخ لأوامـري وكانت من الممكن أن تقاومني حتى لو ماتت . وذهبت إلى بيتها ولم تبق في داري . ولو بقيت لكنت نلتهـا ونـالتني . وأغدقت عليها كثيراً من المال . واحترقت أحزاني في دفئها . ولما وجدت أن الألم القديم زال أثره ، هجـرت الراقصـة لأبحث عن أخرى ، فأنا أمل النساء بسرعة غريبة .

ذات يوم دخل على رجل بعد هجر الراقصة بفترة ، يقول سائلاً :

- أنت محسن حسني الحسيني ؟ ..

قلت مبتسماً : أنا بلحمه وشحمه .

قال : أنت كنت على علاقة بالراقصة أمتثال ؟ ..

- وانتهت هذه العلاقة .

- ولكنها أثمرت طفلاً . إنها حامل .

- ومن أنت حتى تسألني ؟

-أنا رجلها .. زوجها .

- ألا تستحي أن تقول إن زوجك حامل من آخر ؟
-ولم استحي .. رزق وطرق بابنا فهل أمتنع عن استلامه ؟
- الطفل القادم رزق ؟!
-رزق لأنك كفيله .
سألته : ومن أدراك أنني أبوه ؟
قال وأنا أستهجن في قرارة نفسي كلامه :
- امرأتي شريفة .. لم تتصل بأحد غيرك .
- ولم لا تكون أنت أبوه .
- ذلك لأني عقيم .. لم أنجب منها .. زواجي أستمر سبع سنوات ، ولم تحمل إلا بالاتصال بك .
- وماذا تريد مني الآن ؟ ..
قلت الكلمات وقد نفد صبري . قال :
-أريدك أن تتكفل بالطفل القادم .
نهضت وقد ألقيت مبسم النارجيلة غير المشتعلة ، وكنـت أمسك به طول الوقت وأنا جالس خلف مكتبي ، لعل غضبي يتسرب في هذا المبسم .
- وإذا لم أتكفل ؟
- ألا تخاف الفضيحة ؟
- حقيقي إنك فاجر .. ألا تعرفني ؟
- أنت ألا تعرفني . أنا بلطجي .
- أنا أبو البلطجية .
ناديت على بعض أفراد عصابتي . وقلت لهم :

- خذوا هذا الرجل . أريد أن يتأدب .

وانسحب الباطجي حينما واجهه عشرة رجال أشداء . كل واحد منهم مفتول العضلات . بارز الصدر . يكاد سرواله يتشقق من فرط القوة .

***

يبدو أن نوار أشتاق لأمه بعد سنوات طويلـة ، فأرسـل يدعوها . وعرفها بمكان العمل بالوكالـة . وكالـة محسـن حسني الحسيني . وعرفها بمكان سكنه لدى هـذا المحسـن الكبير . ولما وطأت قدماها أرض بور سعيد ، كان الصـبح قد أنبلج . ففكرت أن تذهب إلى مكان عمله بدلاً من الـدار التي يسكنها . ولم يكن قد وصل نوار إلى المحل . ودخلـت الأم تبحث عن ولدها ، فصادفتني . ونطقت أسمي الحقيقي : لهب . لم تكن تعرف أن محسن المحسن الكبير هـو لهـب مغتصبها القديم ، وقالت : أين نوار ؟ ... قلت : إنه يعمل في وكالتي ويعيش في كنفي . ما الذي جاء بك من سـوهاج إلى هنا ؟ .. قالت : أخبرني نوار أن آتي لأعيش في كنفـه وأتمتع بالعز الذي وهبه الله له . امتعضت وأنا أقـول : أنـا الذي أصنع ذلك العز . سألت سؤالاً محدداً : هل عرفته أنك أبوه ؟ .. تساءلت : وماذا يفيد لو عرف أنني أبـوه أو لـم يعرف . قالت بوضوح : لا .. هناك فرق . إذا كنـت أبـوه فهو وريثك . وإذا لم تكن أبوه فلا علاقة لـك بـه .الحالـة الأولى عدل . والثانية ظلم .

كنت قد خرجت من ملهى ليلي إلى الوكالة ، وقد لعبـت الخمر في رأسي ، ولم أكن قد تذوقت بعد فنجاناً من القهوة . وأثارت المرأة غضبي . ولاحت لي فكرة فورية ، قلت لها : تعالي معي وأنا أعترف له بأبوتي وأنت واقفة أمامه . لاحت تباشير السعادة على ملامحهـا ، شـعرت أن آلام السـنين الطوال ستزول ، وراحة البال ستعود .

ركبت بجواري سيارتي . وكنت أقودها وحدي . وخرجت من بور سعيد إلى الضواحي ، حيث القرى الريفية . وتوقفت عند قرية خالية من سكانها ، كلهم ذهبوا إلى الحقول لرعايتها . أوقفت السيارة ، وألتفت إليها ، وأنا أقول : سوف تشعرين بالراحة حينما أعترف أمامك بأبوته . قالت : خيراً تفعـل . هاجمتها بيدي ، وخنقتها حتى لفظـت أنفاسـها . وفتحـت السيارة حينما أسلمت الروح .. وقذفت بها إلـى الخـارج . وسقطت الجثة الهامدة على التراب .

***

حضرت المرافعة في الدعوى التي رفعـت ضـد نـوار باعتباره المدير المسئول عن وكالة السيارات ، وكان العميل يطالب بتعويض على أساس أن الوكالة باعـت لـه سـيارة مستعملة على أنها جديدة . وقد هدد أن يبلغ النيابة العامة بأنه وقع في شرك نصابين . ولم أكن أظهر في الصورة ، فأنا لا أوقع على عقود ، ولا أتعامل مع زبون ، ولا أدير الوكالة ، القائمون على الأمر هم الذين يظهرون وهم : نوار ونـوري ومكواة .

وفي الطريق لمشاهدة جلسة المرافعة من بعيد . وجـدت خير الله المحامي يدخل بقامته القصيرة إلى مقر المحكمـة ، متجهاً إلى الدائرة الجنائية . فضول اجتاحني أن أرى ذلـك المحامي القميء يترافع . ولما كان نظـر القضـية المدنيـة الخاصة بنوار في قائمة القضايا سيأتي متأخراً ، لذلك اتجهت إلى الدائرة الجنائية ، لأشاهد هذا المحامي الذي أوقعني فـي كثير من المشاكل أفلت منها بخفة .

كانت القضية التي يترافع فيها عن رجـل قتـل امـرأة مجهولة وهو يحاول اغتصابها ، وذلك في الطريق العـام .. عند أطراف بور سعيد . تلك الأطراف الريفية . وكان المتهم فيها أبله . يقرض أظافره ، وغير مستقر في مكانه . كثيـراً ما لكزه العسكري الحارس حتى يستقر . وحدست أن هـذه المرأة هي أم نوار التي قتلتها . وكانت النيابـة العامـة قـد وجهت الاتهام إلى هذا الأبله بأنه حاول اغتصابها فلما تمنعت قتلها . وقدم خير الله المحامي أدلة دامغة أن الأبله عنـين . وأنه أبله لا يسأل عن أفعاله . وكانت المحكمة قد وافقت في جلسة سابقة على الكشف على القـوى العقليـة والجسـمانية للمتهم . وجاء تقرير الطبيبين الشرعي والنفسي أن الرجـل عنين فعلاً وأنه غير قادر بدنياً على مقاومة المرأة المقتولـة لو كانت حية وهو مختل التوازن فضلاً عن أنه يعاني مـن العته ومن ثم لا مسئولية جنائية عليـه . حكمـت المحكمـة ببراءة المتهم وإيداعه مستشفى للأمراض النفسية ، وطلبـت من النيابة إعادة البحث عن القاتل . السذج أيـن سـيجدون

القاتل ؟ .. إن الجريمة ارتكبت في الصباح الباكر ، وقُـذف بالجثة من سيارة أسرعت عائدة إلى بور سعيد . والقاتل على شفتيه ابتسامة . وفي قلبه ارتياح . نحـن الـذين نرتكـب الجرائم الكاملة .. تلك التي لا يظهر فيها الجاني أبداً . وهنا تحتار النيابة العامة فتحفظ القضية بعد لأي .

أما القضية المرفوعة على نوار فقد تم الصلح فيها قبـل دخول الجلسة .ولم يستمع القاضي لا إلى المدعي ولا إلـى المدعي عليه وشطبت القضية . كانت وجهة نظري أنـه إذا أكتشف العميل تدليسنا فإن خير الأمور أن نتنازل عن بعض المال الذي يقضي على شكواه .

***

لما بدأ عبد الناصر يرفع صوته عالياً . عرفت أن الخطر محدق . وتذكرت بور سعيد يوم تعرضت للعدوان في عـام ١٩٥٦ . جمعت العصابة التي أزداد عدد أفرادها . وقلت لهم سوف ننقل نشاطنا من بور سعيد . أعترض نوري وقـال : الأشياء معدن يا معلم هنا . فلم ننتقل . السوق فـي يـدنا . والعملة تجري . والماء سائل . قلت : أنا لا أرتاح لإسرائيل . إنها لو خربت بور سعيد مثلما خربتهـا مـن قبـل هـي وأعوانها ، فسوف تضيع ثروتنا كاملة .

فعلاً أتجه نوار إلى القاهرة . وبحث عن مكـان واسـع لوكالة السيارات . وتم نقل كل البضـائع لـيلاً . والرجـل يجعجع في الصباح . ويأمر قوات الطوارئ الدولية بـالتنحي عن سيناء . ويحرك الجيش إلى سيناء . وأنا أحـرك كامـل

النشاط إلى القاهرة . وقبل ٥ يونية ١٩٦٧ لم يكن لمحسـن الحسيني أثر في بور سعيد . وتحركت بسيارتي إلى القاهرة . يجلس بجانبي نوار . أبني البكر الذي لا يعرف أنني أبوه . وإذا نظرت إلى عينيه أعرف أنه متأكد من هذه الأبوة غير المعلنة . ولو عرف أنني قتلت أمه لما غفر لي أبداً . لكن لا أهمية عندي للمغفرة ، فليذهب إلى الجحـيم ، إذا لـم يكـن راضيا .

فعلاً حدث ما توقعته ، هاجمت إسرائيل مدن القناة كلها . وأخذ المهاجرون يهاجرون زرافات صارخين ..مولـولين . تطاردهم الكآبة . ويلطمهم اليأس . ويذبحهم الفقر .

خير الله بن الورد

تزاحمت الأمم على القطار المتجه إلى القاهرة . هـاربين من العدوان الآثم .وكانت برلنتي قد كلفت بالعمل فـي أحـد المستشفيات العسكرية في القاهرة . ولم تكن فـي نيتـي أن أغادر بور سعيد لولا هذا التكليف . وحملنـا أمتعتنـا إلـى القاهرة حيث أعطتنا وزارة الحربية سكناً وظيفياً مؤقتاً طوال فترة الانتداب . وكانت جوهرة وزمردة وأخواهما قد غادروا بور سعيد ناقلين نشاطهم إلى القاهرة آبقين من تلك الحـرب الغادرة وقفلت البقالة إلـى حـين . وفـي وسـط الزحـام المضطرب بحثت عن مصطفي فلم أجده . ولدي العزيز لـم أعثر له على أثر . وأنطلق القطار وسط الحقول متجهاً إلـى العاصمة . وأنا أبحث في داخله عن مصطفى لعله دخل من باب آخر للقطار خطأً . وأنا أبحث عنه أردد : مصـطفى .

ولا من يجيب . وأمه جالسة جزعة قلقة خائرة القوى لضياع طفلها . كانت الهزيمة قد لحقت بالوطن . وضياع مصـطفي هزيمة لحقت بالأسرة بل قل كارثة عصفت بها . انتظـرت في محطة مصر حتى أنقشع ضباب الركاب . ونـزل كـل الركاب وليس من بينهم مصـطفى . وبكـى عبـد الله والمدثر ولدي الآخران لفقدان أخيهما الصغير . وانخرطـت برلنتي في نشيج طويل . عزمت أن أعود إلى بـور سـعيد للبحث عنه . لا بد أنه لم يركب معنا . وحال الزحام بيننـا وبينه . طلبت منها أن تتجه إلى إسكانها الوظيفي في القاهرة ، وسأعود إلى بور سعيد للبحث عنه . لكنها طلبت منـي أن آخذها إليه حتى أعرفه ولا يتوه أحدنا عن الآخر بعد ذلـك . وعلى أقل تقدير حتى أعرف مستقرهم في القاهرة .

بعد أن عرفت موقعنا الجديد ، قررت العودة إلـى بـور سعيد للبحث عن مصطفى . مررت بكل الشوارع لم أجده . أيكون قد غادر القطار في إحدى المحطات ظناً منه أن هـذه هي القاهرة .. إنه لم يتجاوز تسع سـنوات ، ولا يفهـم أن للقطار محطات . وقد ظن أن مجرد وقوف القطار في محطة فتكون هذه هي محطة القاهرة . وكانت الحرب مندلعة فـي سيناء ، لم يبلغ أوارها بور سعيد بعد . ولو أنها كانـت قـد وضعت أوزارها في ستة أيام .

عدت إلى القاهرة بعد ضياع ولدي فـي بـور سـعيد ، والدموع محتبسة في عيني ، فقد فقدت أعز الأعزاء . أحببته بشدة لما عرفت أنه ورث عني قراءة العيون . وتأكدت يومها

أنه ولدي ومن صلبي . وأن امرأتي مخلصة لم تخن خيـراً الورد مع المزعوم لهب الرجيم .

أمام المسكن وجدت سيارة واقفة وسـائقها يعـاني مـن اختناق في صدره . أسرعت أسأله عن حالـه ، لكنـه لـم يستطع أن ينطق . ودخلت به على برلنتي والولدين ، ففزعوا حينما شاهدوني أحمل الرجل ، كأنهم اعتقـدوا أننـي قتلتـه وأريد أن أواري جثته في المنزل حتى يحين المساء وأسربه بعد ذلك !! .. قلت على الفور لبرلنتي : هذا الرجل يعـاني من أزمة ربو .. ألا يوجد لديك علاج . أسرعت إلى حقيبتها الطبية وفتشت عن حقنة . وبعد فترة وجيزة هـدأت أنفـاس الرجل وتمكن من استعادة وعيه وقد سكنت ملامح وجهـه ، وقد كانت تتقلص من الألم وضيق الـنفس . وصـنعت لـه برلنتي كوباً من النعناع كانت تحمل محتوياته فـي العـزال القليل الذي حملته . ولما هدأ الرجل سأل : أيـن أنـا ؟ .. قلت له : أنت في بيتنا . سأل : ماذا حدث ؟ .. قالت برلنتي تهدئه : أزمة وعدت .

وتحاورنا . عرفنا منه أنه رئيس تحرير جريـدة كبيـرة الشأن . وعرف أن برلنتي طبيبة منتدبة للعمل في مستشـفى عسكري . وأننا مهاجرون من بور سـعيد . وسـألني عـن عملي . أخبرته أنني محامي ولكن يبدو أنني سأتعطل عـن العمل ، فقد قفلت مكتبي في بور سعيد وليس من السـهل أن أفتح مكتباً في القاهرة . سألني : ما رأيك لو اشتغلت عنـدي في الجريدة ؟ .. قلت : وماذا أعمل ؟ .. قـال : مستشـار

قانوني . قلت : لا .. أنا أريد أن أكون مراسلاً عسـكرياً . كنت أريد أن أبحث عن مصطفى في بور سعيد . وتنبأت أن المعركة القادمة ستكون في مدن القناة أو على أطراف خليج السويس . وهناك قد أجد مصطفى ، ربما لم يغادر بور سعيد لكنه تائه ولم يتمكن بحثي في يوم واحـد أن يكشـف عـن وجوده وفي الأيام التالية سوف أركز في البحث حتى أعثـر عليه . قال الرجل : تعال في الغد وسوف أتعاقد معك .. أراد الرجل أن يسدي لي معروفاً مقابل ذلك الصنيع الذي فعلته له وأكملته زوجي الطبيبة .

***

انقلبت حياتنا من أسرة مستقرة إلى أسرة مهاجرة . ولكنها غير مشردة . وصارت برلنتي لا تلتقـي بولـديها عبـد الله والمدثر إلا ساعة في الظهيرة وساعة قبل الإخلاد إلى النوم . تلاطمها في الصباح مناظر العساكر العائدين مـن ميـدان الوغى ، ولم يكن هناك وغى ولا حتى هدوء إنما اضطراب في النفوس والمجتمع . كان ميدان المعركة هو ميدان الألم . عاد بعض الجنود .. منهم من عاد مشوهاً بسبب ما لحق به من نيران النابالم . ألقته الجيوش الحديثـة فـي إسـرائيل . ومنهم من عاد مكسور القدم أو اليـد أو متـورم القـدمين ، بسبب السير على الأقدام مئات الأميال ضائعاً في الفيـافي . وانهمكت في عملها تبكي الولد المفقود وتحاول أن تنساه لكن لا أمل في النسيان .

قابلت رئيس التحرير في اليوم التالي . وكلفني بمهمة في البحرية المصرية . وعدت من هناك بأخبار ضرب المدمرة إيلات في البحر . وبينما كان الفخر يملأ الجرائد المصرية . كان العار يكلل البحرية الإسرائيلية . وجرائد إسرائيل تحاول أن تخفف من وقع المصيبة . وكتبت أخبار انتصار الضفادع البشرية كتابة هزت الوجدان .

ثم كتبت مرة أخري عن موقعة رأس العش . وكان لـي الشرف أن أرافق الجنود المصريين إلى داخل رأس العش . حيث أبلوا بلاء حسناً . ورجعت وأنا أنتفض من الزهو . لقد عادت الروح إلى الجندي المصري ، وكانت قد سحبت منـه في الطريق إلى سيناء . وواريت في أعماقي انتقاد الحكومة المصرية على ما ارتكبته من أخطاء في سـيناء . ووجهـت سهام النقد إلى هذه المحاكمات التي حدثت ضد قواد الطيران والدفاع الجوي والجيش وكان المخطئ في نظري على رأس القمة لم يزل يحكم . ويحاكمهم . ماذا يفعل العسكري إذا كان قائده يوجهه خطأ ؟ .. ولم تخرج سهام النقد إلى حيز الوجود . كنت أكتفي بتدوينها في وقتها وأسجلها ربما في يوم مـن الأيام أستغلها في تحرير كتاب عـن الحـرب ، وبعـد أن أسجلها أخفيها .

أصبحت أتنقل بين بور سعيد والإسـماعيلية والسـويس ألاحق الأخبار من جهة إلى أخرى . أفـتش عـن الخبـر . وأتفحص الناس لعلي أجد فيهم من يعرف مكان مصـطفي . كان شغلي الشاغل ذلك الطفل البريء الضائع .. ولو أني لم

أكن أنسى أنني في حالة حرب لا تجيز لحظة أن أغفل عـن تسجيل حوادثها .

رصدت أخبار مدرسة بحر البقر ، وهى تضرب بالقنابل والأطفال يقعون صرعى . ماذا فعل الأطفـال لإسـرائيل . أتوجه القنابل إلى المدنيين أم إلى العسـكريين . هـل هـذه قوانين الحرب التي تعرفها الدولة الديمقراطية الحديثـة فـي إسرائيل ؟ ..

بكيت في موقع المدرسة ، وجثث الأطفال مـن حـولي . أبحث فيهم عن مصطفي ولا أجده . وأحمل المصـابين مـع المسعفين إلى السيارات . وأهرع لأنجد طفـلاً يـئن تحـت الأخشاب .وبكيت وأنا أسترجع النظر . أبكي هؤلاء الأطفال الذين تركوا آباءهم إلى الأبد ، وأبكي مصطفي الذي فقـدناه مبكراً ..

كنت أذهب إلى بور سعيد ولا أمر على شقتي القديمـة ، لم تكن القنابل قد طالتها . وبقيت صامدة لم تتهدم رغـم أن القنابل عصفت ببيوت كثيرة حولها . وفي ذلك اليوم ذهبـت إليها . وكان مفتاح الشقة لا يزال في جيبـي ، أحملـه فـي سلسلة مفاتيحي ولو أن تحولي إلي شـعاع والعـودة إلـى التجسيم يساعداني على اختراق الأبواب . ذهبت لأكتب عن الصورة المؤلمة التي شاهدتها في بحر البقر . ولما دخلت لم أجد على صفحات الأثاث تراباً . شعرت كأني بصدد معجزة . معجزة أن تترك الشقة كل هذه المدة ولا يتربع العثير على أثاثها .ولما جست في الحجرات تأكدت أن الشقة يسكنها الجن

أو الأنس . وفي المطبخ زاد تأكدي وأنا أشم رائحة القمامـة في صندوقها . إنها قمامة ناضجة لم تفسد بعد . لـم تمـض عليها شهور حتى تتحلل وتنبعث منها روائح كريهة . كانت روائح أشياء غير فاسدة .. بقايا طعـام ، بـل تـذكرت أن برلنتي لم تترك قمامة في الشقة بعد هجرتنا . مـن يسـكن الشقة ؟ . . لعل أحد الناس قرر ألا يترك بور سعيد وآثر أن يأوي إلى هذه الشقة التي لم تصبها القنابل بعد .

بدأت أكتب عن مأساة مدرسة بحر البقر . أكتـب عـن الأطفال الذين اغتالتهم إسرائيل . وصمة عـار فـي جبـين الصهيونية سيضاف إلى الآثام التي ارتكبتها من قبل وسددتها إلى صدور العرب .

بينما أنا منهمك في الكتابة ، شاهدت من طـرف عينـي شبحاً يتأملني . ألتفت . من وجدت ؟ .. وجدت مصـطفي واقفاً يتأملني . يريد أن يضمني ولا يقدر حتـى لا أصـاب بالفزع . انطلقت مني كلمة واحدة : مصطفى . وهرعت إليه أضمه وأقبله في كل جزء منه . وكان قد شب قليلاً عما قبل . ولكن وجهه الجميل لا يزال ناضراً . وجه أمـه لا يـزال مرسوماً على ملامحه . جلست بعد فترة طويلة من الأحضان والبكاء والفرح القاتل أو الهائج أستمع إلى مصـطفي . روى لي باختصار أنه ضاع في الزحام ، ولم يـتمكن أن يركـب القطار . وعاد حسيراً إلى البيت . وكسر قفل الشقة وأصلحه بعد ذلك ليعيش فيها . (ولعل خاصية اختراق الأشـياء لـم يرثها أو لعلها تتكون بمرور الزمن) . وصار يرتزق مـن

بيع الشاي للجند الذين افترشوا الخنادق في شوارع المدينة . ولم يفارق بور سعيد على أمل أن نعود يوماً نجده في الشقة . كان يتنقل بين الدبابات والأسلحة المتحفزة . يوزع الشاي على الجنود ويتناول منهم الثمن . بـل وبـدأ يصـنع لهـم السندوتشات ويبيعها لهم . فقد كان تعيينهم - كمـا يسـمى طعامهم بالجيش - غير كاف وغير منتظم .

أخذته في ذلك اليوم مقيداً يدي بيده حتى لا يتـوه مـرة أخرى . وحملته إلى أمه ، تلك التي عاهدتها يوماً أن أعـود ومعي مصطفي ، وهاأنذا أحقق تعهدي .

***

رغم أنني عثرت على مصطفي المفقود الحبيب ، إلا أنني لم أطلب تحويل عملي من مراسل حربي أو عسـكري إلـى مستشار قانوني . وكان من الممكن أن يقبل رئيس التحريـر ذلك ، فقد كان إنقاذه من هلاك محقق جمـيلاً لا يمكـن أن ينساه ، ذلك لأني وجدت أن نقل أخبار الحياة العسكرية فـي مدن القناة هي من أعمال المصلحة العامة . والحقيقة أن أسم خير الله الورد لم يستلفت المخابرات العسكرية ولـم يفكـر واحد منهم أنه سبق دفن محام شاب بهذا الاسم في صـحراء ألماظة بمعرفتهم فقد كان الكل منشـغلاً بالمعركـة وشـيكة الوقوع .

سارعت لنقل أخبار جزيرة شدوان التي نزلت بها القوات الإسرائيلية وقاومتها القوات المصرية ببسالة . ونقلت أخبـار تفجير خزانات النفط في الزيدية في السويس . كنت أظهـر

على الورق الشهداء وجثث الأبرياء والثكـالى والأرامـل . وأمتد قلمي إلى المطالبة بوقف حـرب الاسـتنزاف غيـر المتكافئة ولو أنها كانت تشعل حماس الجنود المصريين مـن أجل الأخذ بالثأر ورد الصاع صاعين لكنها منهكة لهم فهـي تدربهم على القتال العملي حقاً لكنها تخرب في نفوسهم ببطء من طول الانتظار والملل .

بل قمت بمرافقة بعض الفدائيين وهم يتوغلون في سـيناء للرد على عدوان إسرائيل المتكرر . وعدت بمقالات قويـة مليئة بالحركة والحيوية دالة على عظمة الجندي المصـري مما أدهش رئيس التحرير . وكتبت عن الشهداء في مواقـع بناء قواعد الصواريخ المضادة للطائرات . وإسرائيل تحاول أن تعيق بناء هذه القواعد ، فكان يتم هدم البناء صباحاً وبناؤه من قبل المصريين الأفذاذ ليلاً . حتى أكتمل البناء وصارت طائرات العدو المغيرة تتساقط . وكان من المستحيل إيقـاف العمل . كان المصريون ينحتون في الصخر ويشكلونه وفـق إرادتهم .

***

دخل مصطفى المدرسة مع أخوته وأنتظم فيها . وكان قد تعطل كثيراً خلال فترة فقدانه . وعجبت لهذا الفتي الذي شق طريقه في الحياة ولم يعبأ باليتم الفعلي الـذي عـاش فيـه . وكنت أترصد خطاه وهو يكبر ويتفوق في دراسته . هذا هو خليفتي في قراءة العيون . وكان أخواه لا يقلان عنه ذكـاء وقد ورثا ذلك الذكاء من أبيهم وأمهم في نفس الوقت .

بينما أنا أدبج مقالة من المقالات . دق على الباب بعنـف في الفجر . وفتحت لأجد قوة مـن الشـرطة العسـكرية ، يطلبون مني أن أتفضل معهم . ما السبب ؟ .. قال رئيسـهم إنني سوف أعرف بعد قليل .

خرجت برلنتي بقميص النوم تستطلع الأمر سـألت : لـم تريدونه ؟ .. لم يجب الضابط ، وأطلق أبخرة من فمه علامة الزهق والنفور من الحديث . ارتديت ثيـابي علـى عجـل والأولاد الثلاثة يستطلعون الأمر مثل أمهم ، وهم يفركون في عيونهم التي انطبقت على بعضها البعض مـن أثـر النـوم العميق والقلق المفاجئ ، يريدون أن يفر النوم من عيـونهم ليشاهدوا أباهم قبل الرحيل . كانوا يريدون إنقاذه من الخطر لكن ظهر أن لا حول لهم ولا قوة . فقد خرج أبوهم يحيطونه الجنود من كل جانب ظناً منهم أنه قد يفر ، ولا يعرفون أنه لو أراد الفرار لما حال أحد دون ذلك .

ركبت السيارة الصندوق وأنا أحاول أن أتذكر ماذا فعلـت من جرائر في نظر الحكام . طـرأ علـى ذهنـي اجتمـاع للمحررين . كنا نتنـاقش فيـه عـن الحريـة والحـرب . والديمقراطيـة والحـرب . رفضـت أن تعـوق الحـرب الديمقراطية أو الحرية . أكدت أقوالي من خلال عرض مـا كانت عليه الديمقراطية والحرية وقت الحرب العالمية الثانية في بريطانيا . إنهما لم يصادرا ولم يشلا بسبب ذلك الظرف . وكانت أحداث الطلبة في الجامعات قد تفاقمت ، وتم القبض على زعمائهم ، وشجبت ذلك التصرف . لقد فوجئت ثـورة

يوليو بأبنائها يتمردون عليها وينتقدون تصـرفاتها . هـؤلاء الذين ولدوا في عام ١٩٥٢ في أحضان الثورة أو قبل ذلـك بقليل ورضعوا من لبن مبادئها وأهدافها انقلبوا عليها في عام ١٩٦٨ فماذا ذلك يعني ؟ .. يعني أنهم يرفضون هذه المبادئ والأهداف ، ويندوون بحرب الاستنزاف التي استنزفت مصر أكثر من إسرائيل . فمصر تدفع ثمن السلاح وأمريكا تهـب إسرائيل السلاح . فمن هو المستنزف ؟ .. ولما كان البعض يرى أن في تلك الحرب تحريك لقضية احتلال الأرض مـن قبل الإسرائيليين غير أني كنت أنادي بالحد منها حتى تكتمل مقومات الدفاع . كان لا يجوز - في رأي - ألا نخوض في حرب الاستنزاف إلا بعد أن تكتمل هذه المقومات . وهذا ما حدث فعلاً . ويوم اكتملت هذه المقومات تساقطت الطائرات الإسرائيلية .

يبدو أن لهباً آخر كان جالساً في هذا الاجتماع .. اجتماع المحررين في الجريدة . وكان اجتماعا عفوياً لم يتم تنظيمـه من قبل . يحدث حينما يجلس المحررون يعدون مادتهم للطبع . ونقل ذلك اللهب الأقوال إلى السلطات . أو بالأحرى أوشى بي ، فأسرعت للقبض على ذلك المتمرد خيـر الله المحـرر العسكري بالجريدة . إنه ينادي بالحرية والديمقراطيـة فـي زمن الحرب . أليس ذلك ضد قانون الحرب ؟ ..

كنت أفكر ماذا سأفعل ؟ .. هل أدخل إلى المعتقل وأتصنع الموت من جديد وأخرج من قبري وأبدأ حياة جديدة في مكان بعيد مثلما فعلت من قبل . ولم يكشف وجودي أحد اللهـم إلا

ابن لهب ، ولكن حـرب ١٩٥٦ أودت باكتشـافه أو وأدتـه بالفعل . وأترك في هذه الحالة برلنتي وأولادي منها يكافحون .. أم أبقى وأتحمل الاعتقال ؟ ..

لهب بن الشوك

حالة انعدام الوزن تعرضت لها فجأة . شقة فاخرة مؤثثة تأثيثاً رائعاً . بها كل المستلزمات التي يطلبها الإنسان .. وأنا وحدي أقيم فيها . لم يقم نوار معي هذه المرة . تركني على أساس أن يستقل . لكن هذه الشقة لا يعرفها أحـد من أفراد العصابة . هكذا أكتشف لأن أحداً لم يتصل بي في اليوم التالي . بل إن نوار نفسه لم يأت لزيارتي ، لأنتقل معه إلى مقر الوكالة الجديد فهو مدير أعمالي في بور سعيد ولـم يتغير الوضع بانتقالي إلى القاهرة . لكن نوار لم يظهر . لقد نقل وكالة السيارات من بور سعيد إلى القاهرة وأستأجر لـي هذه الشقة ، وأنا في بور سعيد أدخن النارجيلة ، وأتكلم عن الإخلاص كلام الفلاسفة ويسمعني نوري بإنصـات . وهـو يجلس بالقرب مني يغير لي الفحم المشتعل فوق المعسـل . لكن اكتشفت أن لا إخلاص هناك . خدعني ولدي الذي مـن

صلبي . خدعني وغرر بي وأحتال علي . نقل الوكالـة ولا أعرف مكانها . وأستولي على كل الأموال وكل الممتلكـات وكل المنقولات وكل السيارات دون أن يعرف أحـد أفـراد العصابة . بل كل واحد منهم عرف مكاناً وهمياً عن اتجـاه المنقولات والسيارات ولا نعرف طبعاً أين مكان الافتتـاح أو أين خزنت المسروقات . وأنا كالرطل جالس أدخن النارجيلة أتغنى بإخلاص رجالي . أين هم هؤلاء الرجـال ؟ .. إنهـم حتى لا يعرفوا أين تقع شـقتي الجديـدة وإلا لـو عرفـوا لأسرعوا إلي . كيف سرقني ولدي ؟ .. وهل وثقت به إلـى هذه الدرجة ؟ .. لقد وعد الرجال أن يلتقي بهم أمام المحل الجديد وأعطاهم عنوانه ووعدني أن يأتي صباحاً ليأخذني إلى المحل . انتظرت كما تنتظر المرأة رجلاً ستهرب معه بعيداً عن أعين عائلتها ولا يأتي . هذا المغفل مـاذا يسـتفيد مـن السرقة ؟ .. هبر مليونين أو ثلاثـة ؟ .. هـل سـيتمكن أن يستمر في عمله الجديد بعيداً عني ويحافظ على هذه الأموال ؟ .. لا أعتقد .

مر يوم ثم يومان دون أن يتصل بي لا نوار ولا أحد من أفراد العصابة . هم معذورون لا يعرفون عنـوان السـكن الجديد . هل اتفقوا معه على سرقتي أم أنـه قـام بالسـرقة بمفرده أم عاونه بعض الأفراد والبعض الآخر لـم يعـرض عليه المؤامرة ؟ .. وأين مكواة ؟ .. وأين نوري ؟ .. هـل لهذه الدرجة كان خبيثاً فلم يعرفهم موقعي ؟ . وعلى العموم كثر خير نوار فلم يبخل عليّ بهذه الشقة الرائعة . ظن الكلاب

أنني سوف أفلس ولا يعـرف أن الأرض الزراعيـة التـي أمتلكها في الريف ويديرها أبن عمي تدر ذهباً يتراكم عامـاً بعد عام . وهذا القريب - أبن عمي - أكثر إخلاصاً من أبني ذلك الأفاق المحتال . ولكنه لا يعرف أنه أبنـك ولـو كـان يعرف لما أرتكب هذه الجريمة . ربما . وربمـا مـا كـان يمنحني حتى هذه الشقة . على العموم ما أخذه هو تعـويض يستحقه على قتل أمه ، رغم أنه لا يعرف أنني قتلتها . لكنه كان متباعداً عنها ينكرها ولا يتصل بها كأنه كـان يعاقبهـا على ما ارتكبته من زنا . غير أنه أخيراً دعاها إلـى بـور سعيد وهناك سفكتُ دمها . ولم ستذهب بعيداً ؟. . إن قـوى الشر التي تسري في عروقه ورثها منك ، فأنت إمام الأشرار في كل مكان .

***

فتحت باب الدار في القرية بسوهاج .. تقع عند أطراف القرية . وجدت فيها حياة . وكنت قد هجرتها منذ العـدوان الثلاثي على مصر . وكانت اتصالاتي بـابن عمـي عبـر الهاتف أو بالخطابات . وجدت هناك نوري ومكواة ينتظراني . ماذا حدث ؟ .. أين أنت ؟ .. لم نعرف لك مقراً . خـدعنا نوار الكلب كلنا . نظر نوري نظرة ذات معنى يريد أن يقول إنك ائتمنته أكثر من اللازم . وقال مكواة : وأين سيذهب منا ؟ .. لا بد أن نعثر علي وكالته الجديدة . كم وكالة للسيارات محترمة في مصر . قلت : لو أشتغل ببيع وشراء السـيارات لكان دغفاً كبيراً . ، لأننا لا محالة سوف نصل إليه . وهـو

يعرف أننا لن نرحمه في هذه الحالة . قال نوري : تذكر أنك كنت تكلمني عن الإخلاص .. قلت : ومازلت أصـر علـى رأي أن الإخلاص قائم بين الخيرين بل هو قائم بين الأشرار أيضاً . ويكاد شرير لا يطعن في شرير مثله . ألا تلاحظ أن اللص لا يسرق من مكان يخص لصاً آخر . وأن النصاب لا ينصب على نصاب مثله . قال نوري : لكن ها هـو نـوار سرقك دون أن تشعر ، وكأنه يريد أن يقول لك ها هو لـص يسرق . . لكنه أمتنع عن مواصلة الحديث لأن فيـه إهانـة لزعيمه . قلت على الفور : لكل قاعدة استثناء بل استثناءات . وعلى العموم فإن نوار خائن . وهو شرير خان خيرين !! .. وبان على وجهيهما الاستغراب ، وقال مكواة متـدخلاً : أرجو أن يكون شغلنا الشاغل في البحث عن ذلك الأفاق ! ..

قال نوري : لقد أواه المعلم وأنفق عليه وأشترى له قدمين صناعيتين . وجعله مديراً لأعماله . ثم يخونه في الخاتمـة . ما أقبح الخاتمة !! ..

قلت : هذه غلطتي . لولا حبي للرفاهية والكسل لما حدث ذلك . المهم أنني لست معكم فـي البحـث عنـه ، ليـذهب بالملايين الثلاثة إلى الجحيم . ولسوف يذهب بها إلى جهنم ، فهو ليس أهلاً للنعمة .

تاه أفراد العصابة في القاهرة يبحثون عن شـقة المعلـم وعن الوكالة المزعومة . ووزعوا أنفسهم على القاهرة كلها . وكلّوا . ثم عادوا إلى سوهاج يائسين قانطين . تفور الكآبـة من وجوههم . وأكبرت نوار ذلك اللص الذي استطاع بمهارة

وذكاء فارطين أن يسرق اللصوص جميعاً . ويهرب بوديعته دون أن يعرف أحد أين المقر ؟ .. هل سكن القاهرة ؟ .. هل سكن الإسكندرية ؟ .. أم هاجر إلى الخارج تصاحبه الملايين الثلاثة ؟ .. لا يمكن أن يهاجر فالحرب علـى أشـدها ولا سبيل إلى خروجه . لعل حرب يونية فاجأته وهـو يحـاول الإفلات . كانت صدمة قوية له .

شعرت كأني دخلت حرباً مع نوار . كانت أسلحتها الدهاء ، فكان كيده أقوى من كيدي . تفوق الابن على أبيه . ولـولا أنني أعرف أنه ابن الخطيئة لجاهرت بذلك . لكـن الحقيقـة ليست سبة . ما يضير الكلب حينما تنعته بالكلب . وما يضير الساقطة لو سببتها بالساقطة وهي فعلاً ساقطة ، وابنها لص .

دخل أفراد العصابة الدار وهـم مطـأطئي الـرؤوس . وأتضح أن نوار كان يتصنع الاتفاق مع بعض الأفراد حـول الوكالة . ويبدو أنه كان لا يتفق معهم ويوهم مرافقـوه مـن أفراد العصابة بأن الاتفاق قد تم . بل أنكروا جميعـاً إنهـم كانوا يعرفون ميعاد نقل السيارات الجديدة والقديمـة سـابقة الاستعمال من وكالة بور سعيد إلى الوكالة المزعومـة فـي القاهرة ولا يعرفون وجهتها ، لقد طلب منهم أن ينتظروه في الفندق ليأتي ليأخذهم إلى الوكالة الجديدة ولم يـأت .. كيـف خدع نوار ستين رجلاً ذلك ما لم يدر به أحد ؟ ! ..

اشتقت للشقة التي أستأجرها لي نـوار فـي القـاهرة ، وعزمت على الرحيل إليها ، وحرب الاستنزاف على أشدها

. وقلت للرجال إن في هذه الحالة يحلو لنا خلق سوق سوداء في المأكولات . وتسلمت مبالغ طائلة من أبن عمي . تبـر ر الأرض الزراعية . وكان أبن عمي ذكياً لماحاً . قسم الألف فدان – تلك التي زادت بمرور السنين من ثلاثمائة فدان إلـى ألف قبل الثورة - التي أملكها على أفراد وهميين . كلهم في النهاية هم لهب بن لهب بن الشوك ، فكان هناك عشرة أفراد بأسماء مختلفة ببطاقات مختلفة يملك كل واحد منهم مائة فدان . ولكن إذا نظرت إلى صورة البطاقات الخاصة بهـم فهـي صورة لهب . وكلهم جميعاً أعطوا أبن عمي وكالة بالتصرف في الأرض بالزراعة والاستثمار والإدارة دون البيع . وبذلك تحايل أبن عمي على ذلك القانون المزعوم الخاص بتحديـد الملكية في الأرض الزراعية . وعجبت لإخـلاص الرجـل لإنسان شرير مثلي . وقلت أشكك في ذمته إنه لابد مسـتفيد من تلك التصرفات وذلك الوضع . هنا الإخـلاص ملـوث بأدران المصلحة ، ولكن لا عيب في ذلك .

افتتحت عددا من المحلات لها مخـازن فـي القـاهرة . وبدأت أكدس فيها البضائع حتى إذا حدثت أزمة فـي أحـد الأصناف أرفع سعرها وأبيعهـا . وتعمـدت ألا أحـتفظ إلا بالسلع القابلة للبقاء أو المعمرة . وكانت الأسعار تلتهب فـي كل مكان في مصر بسـبب مصـاريف الحـرب وفـرض الضرائب الظاهر والمستتر . وكنت أراقب المحاسب الخاص بهذه المحلات وهو يسجل إتلاف السلع ويؤويها في المخازن

غير المعروفة . ويبدو الربح مستحيلاً ومأمور الضرائب يقر بالواقع المر . وهكذا أزداد الربح وأمتنع دفع الضرائب .

***

كانت الشقة التي أختارها نوار تقع على كورنيش النيل . وأتضح لي أنه كان يسكنها منذ زمن بعيد . وأنـه اسـتطاع الحصول عليها عندما نوى أحد الأجانب الهاربين من العدوان الثلاثي تركها . وكان أحياناً يضطر إلى النزول مـن بـور سعيد إلى القاهرة لتصـفية الرسـوم المتعلقـة بالسـيارات المستوردة . ولم يقل لي إنه أستأجر شقة إنما كان يحاسـبني على المبيت في فندق . وقد أتضح لي ذلك عنـدما طـالبني البواب بالإيجار ووجدت أن أسم المسـتأجر نـوار لهـب . استمررت في الشقة فلا أعتقد أنه سيفكر في أن يترك الشـقة لأنه لن يظهر أمامي مرة أخري . يخشى أن أكون قد أبلغت الشرطة عنه . ولا أعرف لم تغاضيت عنه ، لعل عاطفـة الأبوة الكامنة في قلبي - دون أن أدري - هي السبب . إنه يستحق تعويضاً يواجه به الحياة لأنه ولد سفاحاً . وعلى أبيه أن يدفع ذلك التعويض .

اتخذت شبرد الجديد - مرة أخرى - مقراً صباحياً لـي ، حيث أنه كان قريباً من بيتي . وهناك أتعرف بكبار رجـال المال والأعمال . هناك اكتشفت أن الحكومة قد بـدأت فـي بناء قواعد للمدافع المضادة للطائرات والصواريخ المضـادة لها أيضاً وتحصينها ، وأن البلد في حالة عطش للأسمنت . بدأت أشتريه من السوق وأقوم بتخزينه . وكانـت إسـرائيل

تعمل معي دون أن تدري . كانت تحطـم قواعـد المـدافع والصواريخ المضادة للطائرات فتضطر القـوات المسـلحة لإعادة بنائها من جديد . وفي كل مرة يطلبون أسـمنتاً مـن المخزون عندي فأرفع السعر ويزيد المكسب . لم أكن أرفعه على وزارة الحربية إنما كنت أرفعه على مقاولين البنـاء . وكانوا يضطرون إلى الدفع حسب السعر الجديد لأن احتكار الأسمنت كان من نصيبي . كان كل فرد من أفراد العصـابة مقاولاً يشتري الأسمنت ، ولكن في النهاية يتجمع كـل مـا يشترونه في مخازني . ولا أحد يدري عن ذلـك الاحتكـار المستتر شيئاً .

كان نوري يأتي ليأخذ مني التعليمات أو أنتقل إلى مكتبي الرئيس لأصدر التعليمات . وهناك يسألني : أليس حراماً أن نزيد الأسعار بهذا الجشع ؟ ..

أقول : ألم يكن حراماً أن يسرق نوار ثلاثة ملايين جنيـه ويختفي ؟ ..

يقول نوري : لا شك أنه حرام . ولكن ما صلة ذلك برفع الأسعار ؟ ..

أقول : هذا تعويض لي يدفعه الناس على ما لحقني مـن خسارة وما فاتني من كسب .. وعلى العموم فالأسمنت إذا ما أقيم تخربه إسرائيل ، فما رأيك في تخريب إسرائيل لقواعـد الصواريخ ؟ ..

يقول نوري : حرام طبعاً لكنها الحرب .

تذكرت أنني كنت عميلاً للعصابات الإسرائيلية عند نشـأة إسرائيل . وأن من الأفكار العبقرية أن أتصل بهـم ثانيـة . أقول لها أين تبني القواعد فتقوم بدكها ، فيطلـب المقـاولون أسمنتاً من جديد . وأعرف أين الموقع الجديد فأخطرها بـه فتدكه ، وهكذا . قلت لنفسي : لا بد أن لها أعواناً يخبرونهـا أولاً بأول عن أماكن هذه القواعد .

لكن توقف طلب الأسمنت حينما بدأت هدنة بـين مصـر وإسرائيل . انتهزت مصر الفرصة وبدأت تبني بسرعة هـذه القواعد وتحصنها . حينئذ بدأت أتشمم ما يمكن أن يحتكر من سلع حتى أرفع ثمنها وأقوم بتخزينها وبيعها بالأسعار الجديدة وأكسب مالاً ..

يسألني نوري : ألا يوجد حد لدي الإنسان لوقف شراهته للمال ؟ ..

أقول : المال كالنار . كلما أرسلت لها وقوداً تسألك هـل من مزيد ؟ .. كذلك المال كلما قمت بتجميعه يسألك هل من مزيد ؟ ..

***

صعدت بالمصعد القديم في العمارة القديمة بعد أن تركت الملهي الليلي في المساء . ودخلت شقة نوار لهـب . كـان يقلقني أنها شقته ، فقد يتنازل عن الإيجار فجأة للمالك كطعنة يوجهها إلى فيقوم صاحب العمـارة بطـردي لأنـي لسـت المستأجر . مما قد يحدث بعض الارتباك في حياتي وأعـود من جديد إلى عيشة الفنادق . لكن أموالي - في ذلك الوقـت

- سوف تنقذني من التشرد في القاهرة . ويبدو أن نوار لـم يفكر في ذلك فلا يزال يحس أن في عنقه جمـيلاً نحـوي لا يجوز أن ينكره أو يلوثه بتصرفات صبيانية .

از جرس الباب الموسيقي . . توجهت لأفتحه ، فأجد غادة أمامي . غادة بمعنى الكلمة . بيضاء . مستديرة الوجـه . حلوة الملامح . شعرها طويل حريري . وجسدها بض مدملج . تسأل : هل نوار موجود ؟ ..

أدخلتها على اعتقاد أن نوار لا يزال مقيماً في هذه الشقة . جلسنا معاً نتكلم .عرفت منها أنها كانت رفيقة نـوار . وأن علاقتهما كانت سرية لأنها من عائلة محافظة عالية المقـام . وأن الدهر أخنى على عائلها . وأنها لم تجد غير نوار أمامها بعد هجر طويل . لجأت إليه لينقذها من وهدة الفقر ، رغـم أنها تعلم سلفاً أنه قد يطردها لأنه صرفها مـن حياتـه بعـد مشاجرة طويلة .إذ أنها طالبته أن يقترن بها فرفض -يقلـد أباه في عدم الاقتران بأنثي - وربما يخجل أن تكتشف أنه ذو قدمين صناعيتين فتعايره بعاهته عند أول خصام بينهما ، ففي حالته يمكن أن تصرح أنها تقبل الزواج منه رغـم عاهتـه لكنها لم تصرح لي فهي إذاً لا تعرف شيئاً عنها . قدمت لها عرضاً أن تبقى في البيت وأن تديره . وبدلاً مـن أن ألـتهم طعامي في الأسواق تطبخ لكلينا . وأن تكون مدبرة المنـزل لو أرادت وأن تكون ابنتي فأهلاً وسهلاً . وقبلت على الفور .

لكن لم تستمر ابنتي طويلا ، فقد جـاءت إلـى حجرتـي حاملة شاي الساعة الخامسة . فضلت أن آخذه في الحجـرة بدلاً من تناوله في مقهى شبرد . ولما وضعته بجوار الفراش . أمسكت يدها وسألتها : هل أنت سعيدة هنا ؟ .. قالت وهى لا تحاول أن تسحب ذراعها من يدي : سعيدة جداً . سألت : ألا يزعجك أن تبقي بجانب رجل عجوز . قالت وأنا أشـدها لتجلس بجانبي على الفراش ولا تزال يدي تمسـك بـذراعها الناعم : أنت شباب يا محسن بك . ضممتها إلي وأنا أقبلهـا فلم تتراجع أو تنتفض أو تشجب محاولتي .

وواجهت نفسي وأنا أستغرق معها فـي قبلـة طويلـة : أتسرق خليلة أبنك ؟ . . قلت : ألم يسرق هو مالي ؟ ! . إن ذلك الموقف لو صور لكان أخذاً بالثأر من هذا الابن اللص . أنت لص أيضاً . إذاً في عالم الأجرام ليس هناك شرف . من استطاع السرقة فليسرق .. بغض النظر عن أي اعتبارات .

كانت غادة - وهذا هو أسـمها - تـدنو مـن الثالثـة والعشرين ، بينما كنت أقترب من السابعة والأربعين . كانت وقوداً لشيخوختي إذ جعلت – تلك الشـيخوخة - تختفـي وجعلت الجسد كله ينشط . نعومتها . جمالهـا . حسـنها . سذاجتها . كلها كانت تجديداً للشباب . استفادت هي المـأوى والمال والملبس وكل ما تشتهيه . كنت أسأل نفسـي : مـاذا أفعل بها لو حملت تلك المرأة ؟ .. هل سأترك لهـا الشـقة وأرحل أم أنني سوف أطردها من الشقة عنوة وجبروتاً ؟ .. لكن للأسف كانت هي المرأة الوحيدة التي اتصلت بها اتصالاً

مستمراً ولم تنجب . كنت ملهوفاً أن أعرف السبب . إلى أن قال لي أحد رجال الأعمال المخضرمين في عالم النسـاء : البنت التي لا يحمل رحمها تبدو ناعمة أكثر مـن الـلازم . أنثى بمعني الكلمة . وترجمت ذلك القول على حالة غـادة ، فعرفت من نعومتها الشديدة ورقتها ودلالها أنها قد تكون بلا رحم ناضج بعكس أي أنثى . لذلك فهي لم تنجب حتى الآن . ولو أنني كنت أقول إن من الممكن أن تكون بذوري شاخت ، وأصبحت غير قادرة على الإنجاب .

***

لأول مرة أتحول من إنسان يعيش خارج البيت إلى إنسان يعيش داخله . جذبتني غادة لأن أستقر بجانبها ، كأنما كنـت أشعر بالشيخوخة فكان شبابها فيه من الـدفء مـا يصـهر أعراض الشيخوخة . لم تطالب بالذهاب إلـى المسـرح أو السينما أو حتى السفر إلى الإسكندرية أو مرسى مطـروح . إنما اقتنعت ورضيت بالبقاء في البيـت معـي . ولا أدري السبب في أنني اكتفيت بها ، ولم أتطلع إلى هـؤلاء النسـوة اللاتي يصطدمن بي ويزخر بهن الفنـدق . يعـرفن أننـي مليونير وأن من واجبهن على أنفسهن اقتناصي . ويستغربن وأنا العجوز الأعزب لا أتهافت عليهن . كانت غادة تكفيني . وأكبرت فيها أنها لم تكن تسألني شيئاً عن الماضي . بل لـم تعد تذكر نوار حبها الأول . كانت كل ما ذكرته من الماضي : هل أنت أبو نوار ؟ .. قلت لها : إن أسم أبي نوار هو لهب . وأنا أسمي محسن حسني الحسيني ، فكيف أكون أبـاه ؟ ..

سألتني : ألا توجد صلة قرابة بينكما ؟ . قلت : لا . ولكـن الشراكسة حينما امتلكوا الأرض في سوهاج كانت وجـوههم متشابهة . وقد يكون أبوه شركسياً مثلما هو أبـي . هـزت رأسها كأنها فهمت ، وقالت : أقول ذلك لأن الشـبه بينكمـا كبير . كنت أظن أن لكما صلة قرابة أحدكما بالآخر .

أصررت - مرة أخرى - أن لا يكون لي صـلة قرابـة بنوار . لا أعترف ببنوتـه . ولا أدري السـبب . ولعلهـا اطمأنت لأنها لم تخن حبيبها السابق مع أبيه .

***

اندلعت حرب أكتوبر . وقيل وقتها إن الميزانية وصـلت إلى الصفر لذلك فكرت أن أستغل الموقف وأستفيد من النقود التي ستطبعها الحكومة دون غطاء .وبدأت أطرح المخزون لعلي أستفيد من فروق الأسعار فأغنم مالاً كثيراً . وعمـل معي أفراد العصابة بهمة ونشاط . استغربت أن يكون من لا صلة لهم بي فيهم هذا الإخلاص والولاء . ونوار من تجري دمائي في أوردته و شرايينه تجرد من ذلك . بل أنكر جميلي عليه . أيكون قد عـرف أننـي أبـوه وأتنكـر لـه فـأراد الانتقام . أيكون أدرك أنني قاتل أمه فأراد الأخذ بالثأر ؟ . .

التقيت بابن عمي في زيارة سريعة لي بسوهاج وسـألته عن المدعو نوار : هل تراه ؟ ..تصنع أبـن عمـي الجهـل بنسب نوار وسألني : جاء مرة إلى سوهاج ولم يلبـث فيهـا أياماً ثم مضى . حينما عرف أن أمه خرجت تبحث عنـه . سألته باستغراب : خرجت لتبحث عنه أين ؟ .. قال : لقـد

أرسل لها خطاباً يطلب منها الحضور إلى بور سعيد حيـث يعيش في نعمة ويطلب منها أن تنضم إلي هذه النعمة . وقـد ذهبت إليه ولم تعد . وجاء هو وعاد ولم يرجع سوهاج مـن أيامها . قلت : ألم تعد حتى الآن ؟ .. قال : وهو أيضاً لـم يعد !! .. سألت نفسي : أخرج ليبحث عن أمه أم توقـع أن أباه قتلها حتى لا تفشي سر نسبه إليه ؟ ..

هناك أسئلة لا يتسنى للمرء في هذه الدنيا أن يجد إجابـة شافية عليها .

سألني مكواة كأنما يقرأ أفكاري : لم يحيط الدنيا الغموض ؟ .. قلت : يا مكواة . إن الدنيا جاءت من تراب . والتـراب لا يعقل . والروح جاءت من القوة العليا التي تحكم الكـون ، فهي قمة العقل . حينما امتزجت أو انبثقت الروح في التراب . مسح التراب ما فيها من عقل . والعقل عاش فـي ظـلام دامس ، لكنه بالتدريج يحاول أن يخترق هذا الظلام . لـذلك فإن الصلة بين الدنيا والعقل مفقودة . ويعمل العقل على ربط هذه الصلة ويحاول في كل لحظة أن ينير الطريق حتى تزول بلادة التراب وينجلي نور العقل .

سمعت نوري يسألني : لكنك قلت أن الأشياء كلها ترجـع إلى أصل واحد يا معلم هو القوة الأولى والأخيرة فقد بـدأت بالنور وانتهت حتى وصلت إلى الإنسان فكأن العقل مصدره التراب . . ارتبكت ثم بعد مدة أجبت : لكـن خصـائص التراب دامسة مظلمة . وخصائص العقل نور مبهـر . وإذا

تداخل الاثنان غاب الظلام في البدايـة حتـى ينمـو النـور فيتلاشى الظلام .

كنت معجباً بنفسي كيف أفلت بسهولة هكذا من كل مأزق .

***

سمعت وسط لفيف من رجال الأعمال أن حرب أكتـوبر تمثيلية قام بها السادات بالاشتراك مع جولدا مائير . صـرح بعض المغرضين بذلك ونحن جلوس في فندق شبرد . فزعت من الرأي . أيضحي السادات وجولدا مائير بهذه الأرواح من أجل تمثيلية . وما فائدتها ؟ .. ولم أحدثت إسرائيل ثغرة في السويس ولا تريد أن تفارق سيناء ؟ .. لأول مرة لا أشـجع رأياً فاسداً ، ولكن لم يحدث أن رميـت بـالرأي المضـاد . اكتفيت بالصمت . وسمعت نفسي تهمس : الساكت عن الحق شيطان أخرس . ضحكت من نفسي وأنا أقول : وأنا مـتكلم شيطان وأنا أخرس شيطان .. أخرس متكلم .. هذا لا أهمية له .

لما عدت إلى شقتي الفاخرة على كورنيش النيل في ذلـك الوقت . قالت غادة : أحضر البواب إيصال الإيجار وأعطيته القيمة . ثم سكتت وعادت تسأل : ألا تزال الشقة باسم نوار ؟ ..قلت أكشف لها الحقيقة :

- نوار كان عاملاً عندي . وأستأجر هذه الشقة لقضـاء أوقات الفراغ في القاهرة أو بعض المصالح الخاصة بعملي . وكان يحاسبني على استئجار غرف في فنادق فـاخرة فـي

القاهرة . ولما قامت حرب يونية سرق كل أموالي في وكالة كانت لبيع السيارات وفر هارباً . كل ما فعله أنه أوهمني أنه يأخذني إلى القاهرة لأباشر أعمالي في الصباح فـي وكالـة جديدة . وتركني في هذه الشقة ولم أر وجهـه بعـد ذلـك . سألتني : كم سرق ؟ ..قلت : ثلاثة ملايين جنيه . اندهشـت وصاحت : ولم لم تبلغ الشرطة ؟ ..قلت : وما الفائـدة ؟ .. أين سيجدونه ؟ .. لعله فر خارج البلاد . ولم أقـل لهـا إن نفسي لم تطاوعني أن أخبر الشرطة عن جريمة أقترفها أبني في حقي .

خير الله بن الورد

بعد تحقيق طويل مضن ، لم يسفر عن أي اتهام ، وإنمـا قيل إنني من النوع الخطر ، الذي يحرض دون أن يتورط ، مما أدى إلى استمرار اعتقالي .

قررت داخل المعتقل أن أقود المعتقلـين لتـأليف حـزب ينافس الاتحاد الاشتراكي ، القائم .. خارج المعتقل . حـزب ليس له هيئة مركزية ، ولا مؤتمر ، ولا أي هياكل إدارية ، إنما هو روح تسري وسط المعتقلين ، يقوم أفـراده بتنفيـذ إرادته المشتركة دون اجتماعات أو مؤتمرات ، إنمـا مـن خلال مناقشات من زنزانة إلى أخرى ، تسري الروح كمـا يسرى النار في الهشيم .

من أجل ذلك الحزب ، قررت ألا أغادر المعتقل . ومـن السهل علي أن أخترق الحوائط والسدود وأخرج إلى العراء .

ومن أجل العودة إلى أسرتي في يوم مـن الأيـام دون تشرد أو اتصالات خفية ، قررت البقاء . ففي المرة الأولـى لم يكن هناك إلا صفاء ، وكان من السهل أن تلحق بي فـي

أي مكان ، لولا أن تم سحقها . أما في هذه المـرة فهنـاك زوجة وثلاثة أولاد ، الزوجة مستقرة في عملهـا ، والأولاد في مدارسهم ، فكيف أخرج إليهم دون موافقـة السـلطات ، وأشتتهم معي وأعيش بلا هوية ؟ ..

اخترنا في المعتقل الديمقراطية والحرية . وكان الموضوع الثاني وضع دستور للحياة السياسية في مصـر بـدلاً مـن دستور ١٩٥٦ الساري المفعول . وقررنا أن يكون كل عضو في السلطات منتخباً من قبل الشعب سواء فـي السـلطات التشريعية أو التنفيذية أو القضائية . فرئيس الجمهورية يجب أن يكون منتخباً من الشعب من خلال المرشحين لشغل هـذا المنصب ، وذلك بشرط أن يؤيد المرشح للرئاسـة خمسـون ألف ناخب من هيئة الناخبين كتابة ، وذلك حتى لا يتقدم كل من هب ودب يطلب أن يكون رئيساً للجمهورية . ورئـيس الوزراء والوزراء ينبغي أن يكونوا أعضـاء فـي السـلطة التشريعية لأن ذلك معناه أن الشعب أختارهم ابتداء . والقضاة أيضاً يجب أن يختارهم الشعب من بين المحـامين ورجـال النيابة العامة في نطاق كل دائرة انتخابية .

احتدت المناقشات بين الجميع لكن تمكنا أن نصـل إلـى قواعد أجمع الكل عليها . واستطعنا في مدى ثلاثة شهور أن ننتهي من وضع مواد الدستور الجديد . وبدأنا نـدخل فـي بلورة السياسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . كنت أنـا الوحيد الذي يجلس مع كل مجموعة ويبلور ما وصلت إليه . وأكتب تفاصيل الاجتماعات الدقيقة وأصيغ التوصيات النهائية

وأقرأها عليهم ويوافقون عليها وأحـتفظ بالنصـوص تحـت فرشتي في الزنزانة .

ويوماً تم جمعنا جميعاً ، وأطلق سراحنا . إذ أن الـرئيس الجديد رفض أن يكون هناك معتقلون . وخرجنا من المعتقل ، والنصوص لا تزال تحت الفراش ، ولم أفكـر أن أعـود للاحتفاظ بها . وجدت أن كلام الليل مدهون بزبـدة وحينمـا يأتي عليه النهار ينصهر . والغريب أننا في المعتقـل كنـا نناقش ونبلور المناقشات ولما خرجنا إلى الحياة مرة أخـري لم يفكر واحد منا أن يتصل بالآخر ولم نجتمع مرة ثانية .

***

قدمت نفسي لرئيس تحرير الجريدة الجديد ، تلـك التـي كنت أعمل بها . وقد أيقنت أن عصر المحاماة قد عفا عليـه الزمن ، ودفنه في جيبه العميـق ، فقـد ركـدت العمليـات القانونية بسبب تأميم المنشآت والشركات والخسارة العسكرية واتجاه الدولة إلى التسليح استعداداً للحرب . عرضت عليـه نفسي أنني كنت المحرر العسكري للجريدة .. فسألني كأنمـا لا يعرف شيئاً : أين كنت ؟ .. قلت بكلمـة خاطفـة : فـي المعتقل . سألني : ولم اعتقلوك ؟ .. قالت نفسي : ألا تعرف ؟ .. وأجبت : لا أعرف . وجدتني محمـولاً لـيلاً أو عنـد الفجر . وأخذ المحققون يحققون معـي . وجـدوني معـدوم الصداقات فاستبعدوا أن أكون مشاركاً فـي مـؤامرة . ثـم استمروا في التحقيق ووجدوا أن أفكـاري لا تختلـف عـن الأفكار المعلنة للحكومة استبعدوا أن أكـون متمـرداً علـى

السلطة . لكن يبدو أنهم وجدوا أن أفكـاري تتعـارض مـع الأفكار الخفية للحكومة فـآثروا السـلامة بتخفـيض عـدد المعارضين الطلقاء ، فأوصوا بأن يستمر اعتقـالي . وأراد رئيس التحرير أن يحرجني فسأل : ماذا كنت تعمل ؟ .. قلت : مراسل حربي الجريدة . قال : ولكني لست في حاجة إلـى مراسل حربي . أريد محرراً في بـاب الفـن . وأيقنـت أن الجوع ينتظرني في الخارج لو رفضت رغم أنني لا أجـوع ولكن أولادي يجوعون . ومن غير المقبول أن أترك امرأتي تستمر في الأنفاق على البيت إلى أجل غير مسمى . قلـت : وما المانع ؟.. وكأنما أصابه الإحباط . قرأت في عينيه أنـه كان يريد أن يتملص من توظيفي بغية السلامة بسبب أننـي معتقل سابق . يريد أن يرتاح من هم وعبء المعتقلين . قال أذهب إلى رئيس قسم باب الفن . وشعرت وأنا أنهض أننـي أدخل عالماً لم أرتاده من قبل إلا على هامش الحياة .

***

كانت رأسي مليئة بأفكار كثيرة . كنت أريد أن أكتب عن مذبحة القضاء بالتفصيل الممل ، حيـث أحالـت الحكومـة القضاة غير الموالين لها إلى المعاش ، وهم أصلاً ممنوعون من العزل . وكنت أريد أن أكتب عن ثورة الطلبة وكيف لـم يرض جيل الثورة عن تصرفات سياسية لأصحابها ولم يقبل أن يحرك كقطع الشطرنج دون أن تكون له كلمة فـي حكـم بلاده . وكنت أريد أن أكتب عن تشتيت الصحفيين من بـلاط

صاحبة الجلالة إلى بلاط الشركات العامة . لكن العالم الجديد منعني من ذلك .

استقبلني رئيس القسم مبتسماً . وقرأت في عينيه أنه يشفق على حالي لاعتقالي دون جريرة تذكر خـلال هـذه الفتـرة الطويلة . وكان يريد أن يقول لي إننا في زمـن لا يجـوز الدعوة فيه إلى الديمقراطية والحرية . وإذا كنت من المؤمنين بهما فعليك أن تكتم إيمانك مثلما كتم المسلمون الأوائل إيمانهم حتى لا يتعرضوا لبطش قريش . لكن رئيس القسم لم ينطـق بشيء . ولم أحاول أن اعرفه أنني قرأت ما يدور بخلده . لقد عاهدت نفسي ألا أبين قدراتي للناس ، لكن في عـالم الفـن بدأت أستعرض هذه القدرات مع الممثلات خصوصاً ، حتى أنهن انبهرن مني وكنا يتسابقن لقراءة أفكـارهن . وأخفيـت ذلك كله خلف قراءة فنجان القهوة .وبذلك تمكنت أن أحصل على الأخبار الطازجة إلى درجة الفضائح لكن كنـت امتنـع عن الإعلان عن الفضائح وأواريها في سلة مهملات الفكـر .. النسيان .

لقد أحسست وأنا أعمل في مجـال الفـن ، أن سـنوات المعتقل أثرت في تأثيراً بليغاً . فلم اعد أتعرض لا للحريـة ولا للديمقراطية ولا للاشتراكية . بل تحاشيت الكلام في هذه الثلاثية العتيقة . كيف حدث ذلك؟ .. هل جبنـت ؟ .. إننـي أستطيع أن أنفذ في الحديد ، ولكن عائلتي لا تستطيع . إنهـا القيد الذي يدمي معصمي ، لو حاولت التماص منه . وهكـذا

يصبح الرجل ذا القدرات الخارقة مغلـولاً بأصـفاد التقاليـد والأوضاع الخارجية والمشاعر الصادقة .

***

قامت حرب أكتوبر بغتة . وكان الناس جميعهم يظنون أن لا حرب هناك . واشتاقت نفسي أن أزحف إلـى السـويس لأتعرف على الثغرة هناك وأقدر ما سأفعله من أجل الوطن . لكن رئيس التحرير حال دون مباشرتي المراسلة الحربية مرة أخرى . كان فيما يبدو أن الأمر صدر إليه باستبعاد خير الله الورد من التحقيقات العسكرية والسياسية .

ناداني رئيس القسم وقال لي :

- هناك ممثلة ناشئة .. أذهب إليها وأجر حديثاً معها .

سألته : أين أجري الحديث ؟ ..

قال : في بيتها .

سألته في بلاهة : وهل تقبل ؟ ..

قذف إلي بالعنوان ، وذهبت إلى طريق الكورنيش علـى النيل في الزمالك . وميزت العمارة العالية القديمة من بـين العمارات المناظرة الجديدة الواطئة .

أيقنت حينما استقبلتني الأسباب التي من أجلهـا يسـقط بعض الرجال صرعى الممثلات . كانـت رائحتهـا الذكيـة تسبقها . ووجهها الأملـس يضـئ . وذراعاهـا العاريتـان وصدرها المكشوف يؤكدان أن الحديث سيكون معها ملتهباً . لكن حاولت أن أتماسك حتى لا يجرفني تيار جمالهـا إلـى بحورها العميقة وأخرج عن وقاري الذي أتميز به . ولو أني

لا زلت بشراً يفتني الجمال ويذوبني الجنس ولو أنـه مقيـد عندي أن يكون حلالاً .

لما بدأت معها الحديث كنا شربنا القهوة ، فبدأت أقلب في فنجانها ، سألتني : هل تقرأ البخت ؟ .. قلـت ضـاحكاً : لا أقرأ الطالع . قالت : هات ما عندك .

سألتها : ما أسمك ؟

قالت : كاميليا .

نظرت في عينيها في الحال ، وتأكدت أن أسمها الحقيقـي غادة . قلت لها : كاميليا هذا أسم الشهرة ، وغـادة الاسـم الحقيقي . بهتت . سألتني : كيف عرفت ؟ .. قلـت : مـن فنجانك . قالت بسذاجة : ألهذه الدرجة تعرف اسـمي مـن الفنجان . قلت مبتسماً : إلى حد ما .

أستغرق الحديث ساعة وهـى هيمانـة .أدري مـا هـي الجاذبية التي تشـع منـي حتـى تهـيم بـي ، إن مجـالي المغناطيسي الذي يحيط بي يدغدغها ، رغم أن صـورتي لا تبدو في البداية غير جميلة لكن هذا المجال المغناطيسي يؤثر على القوي المختلفة في الإنسان الذي يخاطبني فيهـيم بـي خاصة إذا كان أنثى . ثم تأتي طلاوة حديثي تثير الغرام فـي النفوس .. نفوسهن ، لذلك تجنبت كثيراً النساء فـي حيـاتي العملية لكن العمل الحالي اضطرني إلى الاتصـال بهـن . وكنت من حين لآخر ألمح - وهى تخفـي الحقيقـة - إلـى واقعنا الفعلي . ادعت أنها متزوجة من المنتج . قلت لها : قد يغضب لدخولي البيت دون وجوده . قالت : إنه هـو الـذي

أتصل بالجريدة لعمل دعاية لي . سألتها ما قصة فيلمك القادم . قالت : سيكون فيلماً تاريخياً . قلت على الفـور : ولكـن السيناريو سوف يرفض . استغربت قائلة : كيف ؟ .. وكنت قد قرأت ملخص السيناريو الذي علق بذاكرتها وذلـك مـن خلال عينيها ، قلت : إنه يتعرض لحياة هارون الرشيد على اعتبار أنه مستبد . وهذا تعريض برئيس الدولـة الآن . ألا تعرفين أن رئيس الدولة كـان يمثـل أثنـاء اعتقالـه فـي الأربعينيات دور هارون الرشيد . ثم إن السيناريو يحاول أن يقول لنا إن هذا هو المستبد فيجب أن نتمـردوا عليـه . إن السيناريو يرمز للواقع الحالي من خلال الماضي . قد ترفضه الرقابة . سألتني : كيف عرفت هذا كله ؟ .. قلت ضـاحكا : من فنجانك . سألتني بسذاجة وكأنها صدقتني : وما العمل ؟ .. قلت : إن الأمر يحتاج إلى تعديل . تعديل المواقف التـي يظهر فيها هارون الرشيد وهو يكنس البرامكة من الوجـود مثلما كنس السادات مراكز القوي في ١٥ مايو . قالت : هذه حقائق تاريخية . قلت : نعم ولكن من الخطورة إسقاطها على الحاضر ذلك يضر بمستقبلك الفني . سألتني : أتعرف ترزياً يقوم بتفصيل ملا بس عصر هارون الرشيد . قلت : نعـم .. أعرف .

بعد انتهاء الحديث وفيه أبشر بميلاد نجمة جديدة أسـمها كاميليا ، طبقاً لطلب رئيس القسم الفني في الجريدة . . قامت معي كاميليا لزيارة حائكة الملابس أخت زوجتي: زمـردة . عرفتها بالنجمة الجديدة المنتجـة واتفقـت معهـا أن تقابـل

المخرج للاتفاق على تفصيل ملابـس الممثلـين الرئيسـيين والثانويين في فيلمها الجديد الحادث في عصر هارون الرشيد . شكرتني زمردة على صنيعي وكانت قد اتخـذت القـاهرة مقراً لعملها بعد حرب ١٩٥٦ . استمرت مقيمة فيها حتى بعد حرب يونية لوجود زبائنها الكثيرين بها فضلاً عن أن أبنهـا الوحيد دخل جامعة القاهرة فلا مناص في البقاء في القاهرة . دخل في ذلك الوقت أبنها يريد مالاً من أمه ، ما كادت تـراه كاميليا حتى ارتبكت . توجهت إلى عينيها لأقـرأ السـبب : صورة طبق الأصل من محسن . تمعنت في عينيها وعرفت أنه يشبه زوجها المزعوم المنتج السينمائي وأسـمه محسـن حسني الحسيني . وعرفت أيضاً أنها زعمت أنه زوجها وهو - في الحقيقة - عشيقها . غير أنها أخفت ارتباكها ولم تنبس ببنت شفة . كتمت ما أثارته رؤيتها للشاب فـي صـدرها وشبه العجيب بعشيقها . لكن من لا يبوح علانية يكشفه خير الله خفية .

***

توثقت العلاقات بيني وبين كاميليا اعتبرتني مدير الدعاية لها . كما توثقت بين كاميليا ومخرج أفلامها وزمردة ، فليس من السهل صناعة الملابس بين يوم وليلة ولابـد أن تقـيس زمردة الملابس وتحبكها على الأجساد قبل تفصـيلها وذلـك يستغرق أكثر من مقابلة . ورغم المعاملات المسـتمرة لـم يظهر المنتج محسن الحسيني . وكدت أومن أنه لهب تحـت أسم جديد وما أكثر ما يستعمل من أسماء . . ومن قـراءة

السيناريو عرفت أنه يريد أن يدمر الحياة الاجتماعيـة مـن خلال السينما ومن خلال مفاهيم مختلفة متوارية تنتقد الحيـاة السياسية من زاوية انتقاد التاريخ وسلوك الحكام . وقد مـلأ الفيلم بالجنس والمعارك الوحشية والمؤامرات .

لما بالغت زمردة في تكاليف الملابس . طلبت منها كاميليا أن تقابل المنتج . وفي لحظة تاريخية التقت زمردة الباحثـة عن رجل معين لتنتقم منه ورأته ماثلاً أمامها . لكنه تصـنع أنه لا يعرفها وناقشها في تفاصيل التكاليف . عرفـت أنـه صابر صبري صبور الذي كانت تبحث عنه . غريمها القديم وأبو طفلها العزيز المعذب بسبب سـفالة الأب الهـارب أو بالأحرى المتنكر لأفعاله غير الشريفة .

تركت مكتب شركة الأفلام والإنتاج فجأة ، وذهبت إلـى أبنها : ابن العشرين . وقالت له في هدوء : حانـت لحظـة الانتقام من أبيك المجرم . سألها : هل وجدته ؟ .. قالـت : بلحمه وشحمه . سلمته مسدسا كانت رخصته لهذه اللحظـة وقالت له : تعال معي .

كانت كاميليا تظن أن زمردة خرجت غاضبة لأن منـتج الفيلم فاصلها مالياً في أدق التفاصيل . وما كادت تعرف أنها خرجت والعنف يجري وراءها يطارد شياطينها حتى قررت أن تطيب خاطرها . وكلمتني في الجريدة تريد أن أقوم بدور المصلح لوضع حد لغضبها . وما كدنا ندخل عليهـا وهـي تتفق مع أبنها على تنفيذ لحظة الانتقام حتى عرفت ما تنـوي فعله . . . وكانت قد سممت أفكاره ولونتها بـاللون الأسـود

الغامق زهاء تسعة عشر عاماً . تصنعت أنني ذاهـب إلـى دورة المياه ، وأفلت إلى مكتب لهب .

رأيته جالساً بملابسه البلدية ، يدخن النارجيلة ، وحاولـت سكرتيرته الحسناء منعي من الدخول ، غير أنني دخلت عنوة ، وهى تعتذر له وتصرح بأني تعديت حدودي . ونهض لهب قائلاً : خير الله . وكان يجلس نوري بجانبه متحفزاً . قلت له : إن أبنك من زمردة سوف يأتي الآن ليقتلك ، فأفلـت إلـى الخارج حتى تهدأ ثورته ..

قال مستغرباً : أبني !! ..

قلت : أتذكر الفتاة التي انتهكت عرضها وأنت في قريـة المطرية بالقرب من دمياط .. أيام العدوان الثلاثي . أندهش ثم قال وهو يعرف أنني أقرأ أفكار الناس ولا سـبيل أمامـه للإنكار : زمردة . قلت : نعم زمردة . أنجبت منهـا ولـداً ودربته على أن يثأر منك . وسوف يأتي الآن للتنفيذ .. الآن يا لهب .

- وكيف عرفت ؟ ..

- إنها حائكة أزياء فيلمك الجديد .

- هذه المرأة التي كانت عندي منذ قليل ..

- نعم هي بلحمها وشحمها . وتأمل قليلاً وهمس لنفسـه وكنت أقول أين رأيتها من قبل ؟ ..:

قلت وهو يفغر فاه : أنت تنسى ضحاياك ، لكن الضـحايا لا ينسون .

***

اختفى لهب من مصر كلها ، خاف على حياته . ولم ينتج الفيلم . واختفت أخبار كاميليا من الصحف . وانـزوت فـي شقتها في شارع الكورنيش . ولم يأت الإعلان عن النجمـة الجديدة بمفعول . ويبدو أن ذلك كان يرجع إلـى توقـف الإنتاج . لكني استمررت على علاقة وطيـدة مـع النجمـة المنزوية . كنت كمن يتكفل بها بعد أن هجرها عشـيقها دون مورد رزق غير القليل . ولم يكن ذلك بعيد عن شيمه ، فهو لا يلتفت إلى أحد غير نفسه . وأعترف هنا أنني اقترفت شراً . وذلك بدافع نداء الغريزة في أو حب الجمـال الصـارخ . انتقلت من الضفة الشمالية فـي خلـيج الأعمـال الإنسـانية وارتكبت ذلك الفعل . يبدو في ظاهره خيراً وفي باطنه شراً . كنت - كما يبدو - أبعد لهباً عن مصر حماية له من القتل . وفي نفس الوقت كنت أريد أن أبعده عن تلـك الجـوهرة الجميلة التي تعيش في الوحل معه . كنت أريـدها لنفسـي . ملكتني مشاعر قوية تجاهها أجد لديها صدي لنفس المشـاعر . وتغاضيت عن أني زوج ولي ثلاثة أولاد من بينهم واحـد يقرأ الأفكار مثلي ، من ثم يمكن أن يكتشف أمري بسرعة .

قد يقال إن لكل إنسان كبوة . وقد تكون تلك كبـوتي . أن أزيح لهباً من طريقي بإفلاته من القتل ، وأنا أستولي على غادة الشهيرة بكاميليا . ممثلة تم الإعلان عنهـا فـي كـل الصحف لكن لم تظهر . عاشت لأول مرة في الحـلال مـع محرر صحفي لباب الفن في الصحافة المصـرية . حركـت عواطفي تلك المرأة الناعمة ، ولـم أسـتطع أن أقاومهـا .

قاومتها فقط في أن أنالها في الحرام ، عقـدت عليهـا أمـام المأذون .. دون أن تعرف زوجتي ، ولم يكن في الشريعة ما يوجب على الرجل أخطار امرأته الأولى بزواجـه الثـاني . وسهل عليّ ذلك أن برلنتي رحلت إلى أرضها القديمة هـي وولدها مصطفي وبقى الولدان معي في القاهرة في الجامعة . ولم يكن لأي واحد منهم قدرة على قراءة الأفكار . عـادت إلى أرضها بعد أن عاد شريان النقل إلـى الحيـاة وأنتهـي انتدابها إلى المستشفى العسكري وذلك في نفس اليوم الأسود ٥ يونية . بينما أنا أذوق لأول مرة جمالاً لم تشهده عين كان يتمتع به شرير الحياة الذي لا يتوقـف عـن الشـر غيـر المعروف باسم لهب .

جاءت زمردة إلى بيت غادة ، لم أكن موجـوداً . كنـت أباشر عملي في أحد الاستوديوهات حيـث أجـري حـديثاً طويلاً مع فنان . وسألت عن ذلك المدعو محسـن حسـني الحسيني . وكان معها أبنها شبيه محسـن فـي رأي غـادة يتلصص . أجابت أن محسن غادر البلاد . ذهلـت زمـردة وكادت تترنح .عذاب السنين يضيع هدراً بهروبه . شـعر ابنها بترنحها فأسندها على كتفـه حتـى تفيـق . وأسـتأذن بالانصراف ، وهو يمشي بها حتى ركبا سيارة أجـرة إلـى شقتهما . روت لي غادة تلـك المشـاهد وهـى مسـتغربة تصرفات المرأة التي كانت تتكلم وهى تتلمظ . ولم تطـرق بابها بعد ذلك .

***

لهب بن الشوك

أصاب غادة الملل ، فأنا أتركها لرعاية مصالح شـركاتي المختلفة ، فليس من المعقول أن ألدغ من باب النصب مرتين . كنت أعود ليلاً ، وهى زافرة نافرة ، فحياتها خاليـة مـن الأصدقاء . سألتني : أريد أن أشغل وقت فراغي . ضحكت وأنا أقول لها : مثلي في السينما .

راقت لي الفكرة وأنا أطلقها ساخراً . حب التدمير لاح لي من جديد متجسداً في الدخول من باب الإنتـاج السـينمائي . ماذا سيحدث لو دخلت من ذلك الباب المخملي ؟ .. إن الهدم المادي كالقتل والسرقة وهتك العرض يجعلني أتلذذ ، لكن لا تدوم اللذة إلا قليلاً ، فلأجرب الهدم المعنوي ، فقد تدوم فيـه اللذة دهراً ، وأقرب مثال لهـذا الهـدم هـو هـدم التقاليـد والأعراف والعقائد عن طريق السينما . كنـت أعـرف أن

أفلام الجنس والعنف والشك في العقائد أفـلام رائجـة فـي الغرب يتحكم في أغلبها الصهاينة . روجتها الصهيونية حتى تقضي على كل العقائد والأديان وحب الخير ويتمكنون بعـد ذلك من السيطرة على أناس ضعفاء ، وهكذا كانـت غـادة وسيلة للدخول من هذه البوابة ، فقمت بإنشاء شـركة إنتـاج سينمائي هي نجمتها .

كنت قد حقدت على السادات لأنه بدأ يقضي على مراكـز القوى وينادي بالحريات . وأنا لا أعرف أنه يمشي في طريق الاستبداد بخطوات ملتوية متخفية . اتفقت مع كاتب سيناريو له نفس نوازعي أن يكتب فيلماً يندد فيه بالحريات . عرضت عليه أن يكتب سيناريو فيلماً تاريخياً تمثله غادة ، عن فتـرة تاريخية قديمة ، ينتقد فيه سلوك الرئيس وخيانته للأصـدقاء واستبداده في الحكم . عرض علي حياة هارون الرشيد الذي قضى على البرامكة وكانوا أخلص الناس له على الأقل فـي الظاهر . وكان الموقف في تصرفات هارون الرشـيد مـع البرامكة يشبه سلوك السادات حينما قضى على مراكز القوى في مصر . وكان هارون الرشيد يستند إلى تعاليم الإسلام في هجومه على البرامكة مثلما كان السادات يستند إلى الحريـة والديمقراطية كمثل عليا للمجتمع حينما فتك بعصر مراكـز القوى كله . ولو كنت أعرف أنه سيتحول إلى مستبد بعد ذلك لما فكرت أن انتج الفيلم ولا انتقده أبداً .

طلبت من الصحف والمجلات من خلال مدير الدعاية في الشركة تلميع النجمة الجديدة . وأذعت على رؤسـاء هـذه

الصحف أن يوجهوا دعايتهم إليها . وكانوا يجلسون معي كل يوم في شبرد . أطلب لهم الطلبات وأصـرف المصـاريف الطائلة حتى يستحوا ويمتدحوا النجمة الصـاعدة كاميليـا . وجاء إليها من كل جريدة ومجلة مندوب ومصور حتى إذا ما سبقتها الدعاية وضعتها على عرش المجد الفنـي . وكانـت تروي لـي كـل الأحاديـث وأسـئلة منـدوبي الجرائـد واستفساراتهم وأنا أستسلم للنوم العميق ولم أكن أسمع شيئاً .

ولما كان الفيلم تاريخياً فقد اقتضى ذلك أن يقـوم حائـك للثياب بتفصيل الملابس اللازمة اللائقة بالعصر العباسـي . وفي نفس الوقت عرضت الشركة السيناريو على الرقابـة . اعترضت الرقابة على بعض المواقف والكلمات في الحـوار فطلبت من السيناريست ألا يجعل الكلام مكشوفاً إنما يرمز له فيفهم الناس المقصود ويتسرب إلى نفوسهم المعنـي دون أن تشعر الرقابة . وهكذا يحس الناس بالسخرية المريرة دون أن يكتشف أحد مرارتها .

وقد قدم المخرج كشفاً بمبالغ طائلة من حائكة الثياب التي تعرفها غادة ، فرأيت أن أناقشها فيه . فأنا أريد أن أهدم لكن بأقل التكاليف .

غريبة تلك المرأة . كأني رأيتها من قبل . سمعت صوتها . حاولت أن أتذكر أين رأيتها . كانت تتأملني بعمق . تستنكر أن يكون أسمي محسن . تلمح أن يكـون أسـمي صـابر . أضحك ولا نصل إلى شئ . أيقنت أنني التقيت بها يوم كـان أسمي صابر لكن أين ؟ .. هذه هي المعضلة .

خرجت غاضبة لأننا لم نتفق على المبلغ . ولـم أهـتم . بدأت أدخن النارجيلة ونوري يضع الفحم على الوردة ويدفن المعسل تحت الفحم .

بغتة دخل علينا خير الله المحامي . يخطرني أنني معرض بالقتل . وأن قاتلي هو أبني من حائكة الثياب . زمردة أخت برلنتي التي حاولت اغتصابها وفشلت . أنجبت زمردة ولـداً وغذته بالكره والحقد والرغبة في الانتقـام والثـأر لعـاره وعارها ذلك الذي صنعه أبوه صـابر صـبري صـبور . أدركت أن خير الله لا يكذب وتذكرت المرأة وما كـان لـي معها . وقررت أن أغادر البلاد إفلاتاً من القتل . كان جواز السفر جاهزاً . تركت كل شئ لمكـواة يـديره . وحملـت ملابسي إلى الطائرة . أفر بجلدي من القتـل المنتظـر . لا أعرف كيف خشيت المواجهة وأنـا رجـل جسـور لعـل الشيخوخة بدأت تزحف إلى قلبي فتجعلني أجبن وأفـر . إن خير الله لا يكذب وهو يعرف ويعني ما يقولـه . لكـن لـم أنقذني الرجل من القتل المحقق . قد تكون الرغبة في منـع سفك الدماء . لا يريد أن يورط الولد المتهور في اغتيـالي . سوف أموت وفي الوقت نفسه سوف يـتم إعدامـه . لكـن فراري سوف يبقيني حياً وسوف يجعل الولد يتفادى الإعـدام أو السجن مدى الحياة أو على الأقل ارتكاب جريمة أياً كـان وصفها .

كنت في حاجة فعلاً إلى تجديد الحياة والنشـاط . وكنـت أريد أن أهرب فعلاً لأن المحاكمات لكبار التجار كانت قـد

بدأت . وكان يجب أن أتفاداها وألقي المسئولية على غيري . وإذا ما كُشفت المخالفات الصارخة وطُلب أن يغرق فيها أحد فليغرق مكواة .

صاحبني نوري على متن الطائرة . وحملتنـا بجناحيهـا الكبيرين إلى باريس . هاأنذا أعود إليك يا جميلتي بعد أكثـر من ثلاثين عاماً . وإذا لم تعجبيني فسوف أنتقل إلى جارتـك بريطانيا التي قضيت فيها أيام الهول العـالمي . كنـت قـد فررت منك بعد أن بدأ الألمان احتلالك وهاأنذا أعود إليـك وأنت حرة .

الغريب أن غادة لم تتمسك بي ولم تطلب أن تغادر معـي كأنها رحبت بقراري مغادرة البلاد . أرتبت في الأمر ، لكن لم أهتم . ليس هناك امرأة تجذبني إليها بحيث أنسى حيـاتي المعرضة للخطر وأبقي بجانبها .

***

كنت مرتاحاً جداً أن تركت لمكـواة إدارة مؤسسـاتي : المقاولات - بيع الأغذية - و إنتاج الأفلام . وقد وعـدني بإغراق دور السينما بأفلام المقاولات ، تلك التي تقوم علـى الجنس والعنف والمخدرات والسكر والعربدة . وهى تجـذب المشاهدين وتخلق لغة ركيكة في التعامل بين الناس يقلـدها الشباب فتنهار القيم ، وأحقق هدفي في التـدمير . وعـدني مكواة بذلك لأنه مثلي كان يحب التدمير . سألني نوري يوماً ونحن نجلس في مقهى الفنانين : لم تحب التدمير ؟ ..

- التدمير والبناء وجهان لعملة واحدة . إن بدنك تنمو فيه آلاف الخلايا وفي نفس الوقت تموت فيه آلاف الخلايا . وإذا كان هناك رسل للبناء ، فهناك رسل أيضاً للتـدمير . هكـذا بنيت الحياة . وعلى هذا كان أساسها . إن الزلازل والبراكين أدوات من أدوات التدمير مثلها مثـل الحـروب والأوبئـة والمحن , وفي نفس الوقت تجـد آلاف الأبنيـة والمصـانع والمحلات تشيد كل يوم . هناك حضارات ترتفع وتسمو وفي المقابل هناك حضارات تنحدر وتخبو .

ولما داف الليل قررنا العودة إلى الفندق .

وفي الطريق كان يترصدنا المـوت ..كبيـر الهـدامين .عصف بنوري . وغيبني فترة عن الوعي . لقد اصـطدمت شاحنة بسيارة الأجرة التي نستقلها . اصطدمت بنا من الخلف سيارة كان يقودها رجل وبجانبه امرأة نقلت إلى المستشـفي ومعي سائق سيارة الأجرة والرجل والمرأة . ومات السـائق ولحق بنوري . أما الرجل والمرأة فقد كان ميعادهمـا مـع الموت مؤجلاً . ما أعجب هذه الدنيا ! .. أفلت من القتل بيد أبني . ويساندني نوري في هروبي ، فيموت نوري وأبقـى حياً . أما سائق الشاحنة فلم يحدث له شئ . مجرد أنه سحق سيارة الأجرة بمن فيها ، وجعلها تلف حول نفسها وتصطدم بسيارة الرجل والمرأة . كل ذلك عرفتـه وأنـا أفيـق مـن الصدمة .

***

كان الرجل يرقد في سـرير ملاصـق لسـريري فـي المستشفي . كانت هناك ضمادات حول وجهه فلم أتبين شكله . وكنت أنا سليماً غائباً عن الوعي ، لكن حينما أفقت كـان يتجمع حول السرير الخاص بالرجل أمه وحماته .

لم يكذب من قال إن الدنيا قرية صغيرة . كانـت حمـاة الشاب هي صاحبة المدرسة الفرنسية التي تعلمت فيها اللغـة الفرنسية في مقتبل العمر حتى أستطيع التعامل مـع تجـار السلاح الفرنسيين . وكانت أمه هـي الزوجـة الإنجليزيـة صاحب المدرسة الإنجليزية . الأولى أنجبت بنتـاً والثانيـة أنجبت ولداً . وتصادف أن تعارفا فتزوج الولـد البنـت .. وكان الأب في كلا الحالتين واحداً هو لهب بن الشوك المدعو بين الخلق وقتها باسم بصابر . ولأول مـرة أشـاهد عمـلاً تجربة زواج أخ من أخته .

كانت المرأة الفرنسية تتأملني وتسألني : ألست أنت السيد صابر صبري صبور ؟ .. ألا تعرفني أنا ماتيلدا . تذكرتها . وكيف أنساها وكنت ألتقي بها في فندق شـبرد القـديم فـي الأربعينيات مرات عديدة . ثم نظرت إليّ المرأة الإنجليزيـة وقالت : أوه سيد صابر .. ألا تذكرني . أنا روزالينا . سألتها المرأة الفرنسية باستغراب : أتعرفينه ؟ .. قالت : : إنه كان تلميذاً عندي في مدرسة زوجي . قالت الفرنسية : إنـه كان تلميذاً عندي أيضاً في مدرستي التي كانت تعلم الفرنسية في مصر . همست روزالينا بعد التعارف العميق والقـبلات الحارة . إن الراقد في الفراش هو الفونسو الولد الذي رزقت

به منك . .. وكانت الضمادات تغطي وجهه ولـو نزعتهـا لرأيت لهباً آخر نائماً . سألتها : كيف تعرفـت بماتيلـدا ؟.. قالت : في السفينة ونحن عائدتان إلى مرسيليا وكنت أريد أن أذهب منها إلى بريطانيا ونحن عائـدتان خـلال العـدوان الثلاثي على مصر . مات زوجي وأولادي الأربعة منه فـي غارة جوية على السويس وقررت العودة مـع ولـدي إلـى بريطانيا عن طريق فرنسا . ودعتني ماتيلدا إلى الإقامة معها في فرنسا حينما عرفت مأساتي وفي السـفينة تعـرف الفونسوا أبني على كارولينا ابنة ماتيلدا . ولما شبا معاً قررا الزواج . استقرت روزالينا بالقرب من أبنتها في بـاريس . منذ سنوات مات زوج ماتيلدا وهي الآن تعيش مع ابنتها في كنف أبني . وهمست ماتيلدا إليّ دون أن تتبـين روزالينـا صوتها أن كارولينا ابنتي التي أنجبتها منـي . ولكنهـا لـم تعرف أن ألفونسوا كان أبني ولو أنـه منتسـب إلـى زوج روزالينا . كيف تعلق الأخ بأخته ؟ .. إن رابطة الدم تحولت إلى رابطة زواج . ظنا أن ما يجمعهما هو الحب بين رجـل وامرأة ولم يعلما أنه حب أخوي ينشأ بين الأخ وأخته .

بدأت أفكر في هذه العلاقة الغريبة . وأنا أتلذذ أنني حققت شيئاً غريباً لا يخطر على بال مخلوق .. حقاً في الأزمنـة القديمة كان الأخ يتزوج أخته والأب يتزوج أبنته والأم تقترن بولدها ، لكن تلك الأوضاع توقفت بقوانين صارمة منعتهـا من التحقق . لكن هل أنا الذي رتبت هذا الأمر إن ذلك كان مجرد صدفة . عرفت أنهما تزوجا منذ فترة طويلـة . وأن

كارولينا أجهضت ثلاث مرات في هـذه الفتـرة . إذ كـان رحمها ينشق ويسقط الجنين ميتاً . أو يمـوت فـي رحمهـا فيلفظه الرحم متخلصاً منه . عرفت السبب أنه زواج الأقارب أو بالأحرى المحارم . لكن روزالينا وماتيلدا لا تعرفان .

***

لم تنقطع صلتي بالمرأتين بعد خروجي من المستشـفى . وبالتالي لم تنقطع صلتي بألفونسـوا وكارولينـا . وسـكنت بالقرب منهما . وطلبت من مكواة أن يرسل إليّ ما يزيد عن ثلاثة ملايين فرنك أضعها في بنك فرنسي حتى لا يتعـرض أحد من رجال الشرطة لإقامتي . ويدعي أنني أقيم إقامة ضد القانون . وطفق يزيد الملايين شهراً بعد شهر . وتعمـد أن يعقد صفقات مؤسسة الأغذية مع تجار فرنسيين حتى يمكـن أن يحول المبالغ اللازمة باسمي أو بالأحرى حتى يمكـن أن يهرب هذه الأموال . فقد كان إخراج العملة الصعبة محظوراً إلا في المعاملات التجارية . وكان يرسل باسمي المبالغ على اعتبار أنني صاحب المؤسسة ومديرها وسوف أتعاقد باسمي مع هذه الشركات لصالح مؤسستي في مصر .

أبلغني مكواة هاتفياً أنه أنتج فيلماً بشركة الإنتاج السينمائي الخاصة بي سيرفع راية الفن المصري في الخـارج . وقـد ألهب ألسنة النقاد من فرط الثناء عليه . ولما شاهدت الفـيلم في مهرجان كان خرجت مهموماً ، لأن الفيلم خـالف كـل المواصفات التي تركتها لمكواة . خرج الملعون عن تعليماتي ، أنتج فيلماً يمجد التقاليد ويدعو للعادات الكريمة لبر الوالدين

. ولم يحاول أن يضيف إليه الجنس أو العنف أو المخدرات . بل لم يستعن بالعشيقة التي تركتها في مصر كنجمة للفـيلم . لقد أنتهك الرجل أهدافي في تحطيم المجتمع . وضرب شبابه بشيوخه . والعصف بنسائه وسحق أطفالـه حتـى ينشـئوا يرضعون الرذيلة ويشبوا رسلاً في طريق الشر .

جلست مهموما في أحد مطاعم مدينة كان ، لكن لمـا لاح لي انتصاري الذي حدث في باريس صدفة . شعرت بارتياح . لقد حققت دون أن ادري جمعاً بين المحارم . أقتـرن الأخ بأخته دون ترتيب مني . فمن كان يدري أن ماتيلـدا سـوف تركب البحر بجانب روزالينا . وأن ماتيلـدا سـوف تـدعو روزالينا للإقامة في باريس . وأن روزالينا سوف تقبـل لأن ليس لها جذور تربطها بإنجلترا . وأن العلاقة بـين طفلـي منهما سوف تتوثق ولم لا تتوثق وهما أخوان . وسوف تزداد توثقاً بزواج ألفونسوا الإنجليزي من كارولينـا الفرنسـية . أبوهما واحد وأمهما مختلفتان .

بغتة وجدت القضاء المستعجل خير الله المحـامي يسـقط فوق رأسي . كان ضيفاً من ضيوف مؤتمر كان .. كيـف ؟ .. لا أعرف . جاء على ما يبدو في مهمة صحفية . وجلس يقرأ أفكاري عن كثب دون أن أدري ، وأنا وحيد مسـتغرق في اجترار همومي وانتصاراتي . وقال لي :

- كان من اللازم أن أترك أبنك من زمردة يقتلك حتـى تنتهي شرورك إلى الأبد . أمن المعقول يا رجـل أن تتـرك

أبنك يقترن بابنتك . وقفت مرتجاً مبهوتًا ونويت أن انصرف وأنا أقول :

- كيف عرفت ؟ ..

بيد من حديد ، أرغمني على الجلـوس . وقـال لـي : أعترف بالتفاصيل . لقد قرأت في عينيـك بعضـها . ولمـا أستمع إلى القصة ، وأنا أرويها بتلاذذ وشماتة مـن التقاليـد والعادات . قال لي على الفور : يجب وقف هـذه الجريمـة الآن . قلت : أي جريمة . . إن الولد أسمه ألفونسو جورج . والبنت أسمها كارولينا جان باتيست . قال : ولكنك تعرف أن ألفونسوا وكارولينا ولداك . ولدا سـفاحاً . وأنـت أبـو الخطيئتين . فكيف تقبل ارتكاب هذه الجريمة ؟ . . ثم أنـت قلت أنهما لا ينجبان وذلك بسبب أنهما أخوان . ألا تعرف أن زواج الأقارب محرم في بعض الولايات الأمريكيـة ، فمـا بالك بزواج المحارم ؟ .. أنهض وتعال معي . دعني أوقـف هذه الجريمة . حاولت أن أتملص لكنه دفعني . جـاء اليـوم الذي يدفعني فيه خير الله ولم أكن أدري أنه بهـذه القـوة . سألته : ماذا ستقول لهما ؟.. هل ستقول أنكمـا أخـوان فليترك كل واحد منكما الآخر . قال : وهل تعرف أنني أزيد الطين بلة ؟ ..

***

خير الله بن الورد

قرأت في عينيها الخيانة . عرفت أن نوار بن لهـب قـد زارها ، وأنه ضاجعها . ضاجع امرأتي الجديدة غادة . يبدو أنه عرف من الجرائد أن الوجيه محسن سافر إلى الخـارج فجاء إلى الشقة ليسرقها مرة أخرى أو قد يجد فيها شيئاً ثميناً فيلتهمه غير أنه وجد فيها حبيباً هجره . ورضخ الحبيب غير مبال بالعقد الذي ارتبط به . ويبدو أنها استمرأت الحب معه لأنه مليونير . وكانت قد تحدثت معي على أن محسناً اسـماً كما تعرف (لهباً فعلاً كما أعرف) قد أخبرها أن نوار سرق منه ما مقداره ثلاثة ملايين جنيه وهرب . وكانت غادة مـن قبل عشيقة نوار ولما جاء إليها تجدد الحب ولفظت الصحفي الفقير وقـررت أن تخونـه مـع المليـونير ذي القـدمين الصناعيتين الأكثر شباباً من زوجها والأعظم قوة ومالاً منه . لما كشفت من قراءة عينيها أنها خائنة . قلت لها إنني لـن

أعيش معها بعد الآن ، وسوف أسرحها بمعروف . وطلقتهـا وهى لا تحاول أن تعرف السبب . كانت سعيدة لأنها ستعود حرة تفعل ما يحلو لها . لم أثر ولم أطلـب الثـأر لشـرفي المهدر ، فهذه كلها أمور زائفة لا يجوز لإنسان أن يغضـب ويحتدم ويتدفق الدم في رأسه بسببها ، المعروف مطلوب في عقد القران وفي تسريح المرأة .. ولم تعرف زوجتي برلنتي أنني تزوجت وأنني طلقت من تزوجتها . وعرفتُ يوم عدتُ إليها أن الشرف يرقد في فراشي وبجانبي لكني أهملته .

كانت مهنة المحاماة قد عاد عصر أزدهارها ، ففكرت أن أعود إلى فتح مكتبي في بور سعيد بجوار زوجتـي ، لكـن مرتبي في الجريدة أرتفع ، وتبوأت رياسة قسم باب الفنون ، فجاءت حساباتي لصالح البقاء في الجريدة . ولو أن في إعادة فتح مكتبي عودة لاستقرار أسرتي رغم أن الولدين كانـا لا يزالان يدرسان بالجامعة . وطلب مني رئـيس التحريـر أن أسجل أسمي في نقابة الصحفيين ، وأن أتنازل عن قيد أسمي في نقابة المحامين لأنه لا يجوز الجمع بين النقابتين في وقت واحد ، بيد أني فضلت أن أنقل أسمي إلـى جـدول غيـر المشتغلين بنقابة المحامين .

ولما تقلدت المنصب الجديد ، طلب مني رئيس التحريـر أن أسافر إلى مؤتمر السينما السنوي في كان ، حتـى أتتبـع الحركة الفنية العالمية في ذلك المؤتمر .

ذهبت إلى بور سعيد ، وجلست يوماً كاملاً مع أسـرتي . وتفرغت إلى الطبيبة الجميلة زوجتي وأولادي منها . وفـي

الصباح قبلتهم جميعاً لأسافر إلى فرنسا .. حيث المؤتمر في كان .

***

لما وصلت إلى كان ، واستطلعت الأفلام المصرية المعروضة . عجبت أن أجد فيلماً من إنتاج شركة محسن الحسيني . ويبدو أن من قام بإنتاج الفيلم أحد صبيان لهب . والعجيب أن الفيلم ممتاز ودسم وملئ بالمواعظ الخفية التي تليق بصناعة السينما يحسها المشاهد ولا يسمعها في لغة الحوار . هل تاب صبي لهب عن إنتاج أفلام المقاولات ؟ .. ورأيت لهبا حاضراً يشاهد الفيلم . إذاً فهو موجود في فرنسا . آه لو عرف أبن زمردة لسافر إليه ليقتص من أفعاله . بل لعل أبن زمردة أحجم عن قتل أبيه ، لكن النار لا تزال تشتعل في قلب المرأة المطعونة في الصميم . لقد منعها اغتصابها من أن تتزوج رغم أن مدير أعمالها في القسم الرجالي لمحلها عرض عليها الزواج لكنها تعللت بأنها تربي أبنها . ولا يزال يلح عليها رغم أن الولد ألتحق بالجامعة .

تتبعت لهباً بعد عرض الفيلم المصري . ورأيته مهموماً ينفث غضباً . وفي مطعم من المطاعم طفق يأكل طعاماً أوصي أن يكون نصف مطعم باللحم لا يزال فيه الدم لم يجففه الشواء . كأنما يتلذذ بمنظر الدم وهو يسيل من فمه . كأنه مصاص دماء متنكر في صورة إنسان . وشاهدت الغضب ينقشع من رأسه ، وينسي ذلك الذي توعده وأسمه مكواة . ذلك الذي أنتج الفيلم في غيابه ، ويعود إليه الصفاء

وهو يتذكر أن الأقدار أنجزت له عملاً خارقاً . زواج ابنـه من ابنته . صعقت لما قرأت أفكاره . لقد أوصانا الرسول أن نقوم الخطأ بالعمل على إزالته باليد فإن لم نسـتطع فبـالقول فإن لم نستطع فبالقلب ، وهذا أضعف الإيمان ، لذلك توجهت إليه وعاتبته . صببت عليه لعناتي . ولا أعرف لم يخشـاني هذا العملاق . لعله يعرف أن قواي خارقة وأن لا الرصاص يقتلني ولا الخنجر . لقد أصبح يعمل لي ألف حساب . طلبت منه أن يقودني إليهما . إلى ابنه وابنته المتزوجين . تملـص في البداية لكنه في النهاية رضخ .

عرفني بهما وأفلت من الاجتماع . خشي منهما أن يصـبا عليه جاما غضـبهما . والحقيقـة أن المـرأتين أماهمـا مسئولتان فقد خانتا زوجيهما في سالف الزمـان . اسـتغربا الولد والبنت أن أتقرب منهما . قلت لألفونسوا : أنت ولـدت في مصر . هذا واضح من عينيك . حاول أن تتذكر الماضي وأنت تنظر إلي حتى أقرأه لك . لأنك لو كنت تفكر في شئ آخر لما تذكرته . والتفت إلى أمه وقلت لها تـذكري أنـت الأخرى الماضي . وكانت تجلس معنا كارولينا وأمها فطلبت منهما نفس الطلب . غير أن ألفونسوا تساءل : ما الهـدف ؟ .. قلت له سوف تعرف فيما بعد . أنا أقرأ العيون وأريـد أن أهديكم إلى صراط مستقيم . قلت وأنا أنتقل من عـين إلـى أخري : سافرت مع أمك وأخوتك إلى بور سعيد حيث كـان أبوك يعمل في شركة قناة السويس قبل تأميمها . وأمم عبـد الناصر القناة لذلك حدث العـدوان الثلاثـي علـى مصـر

لاسترداد القناة . وفقدت أبيك وأخوتك الأربعة فـي غـارة جوية على الفيللا التي كنتم تسكنون فيها وكانت بالقرب منها دبابات متخفية تحاول اصطياد الطائرات المغيرة فبدلاً مـن ضربها ضـربت الفـيللا وضـاع الأب والأخـوة تحـت الأنقاض . . مات الأب والأخوة في الغارة وعدوا في عداد ضحايا العدوان . لم تتحمل أمك الصدمة وغادرت بور سعيد إلى الإسكندرية لترحل منها إلى بريطانيا عن طريق باريس . تعارفت أمك روزالينا بأمها ماتيلدا في السفينة . لقـد كانـت هي الأخرى عائدة إلى فرنسا بنفس الباخرة . وسوف تذهب وزوجها وابنتها كارولينا إلى باريس عن طريق مرسـيليا . دعت ماتيلدا روزالينا أن تقيم في باريس مادام ليس لها جذور في إنجلترا . قبلت المرأة فقد كانت تجد غصة في حلقهـا أن تعود إلى بلادها دون زوجها وأبنائها الأربعة أخوتك . وسكنا في شقتين متقابلتين واستمرت الصداقة بينهما كما نشأ الحب في قلبك نحو كارولينا . لكنه في الحقيقة هو حـب أخـوي وليس حب رجل لامرأة .

توقفت عن الكلام وسط ذهول الجميع فأنا لم أرو هـزلاً إنما أقص حقائق . واستطردت أقول : هذه هي الحقيقـة يـا ألفونسوا . أبوك أبو كارولينا . لقد أنجبتك أمك مـن نفـس الرجل الذي كان أبو كارولينا الحقيقي . . ألتقي بأمك وأسمه صابر صبري صبور ، وألتقي بأمها في القـاهرة . وكانـت ثمرتا خطيئتهما هي أنت وكارولينا . فهل تقبلان أن يتـزوج

الأخ أخته ؟ .. أنتما تدركان الآن لم لم تنجب كارولينا منـك لأنك محرم لها .. إني أوصيكما بالانفصال .

سأل ألفونسوا أمه : هل ذلك صـحيح . نكسـت رأسـها وقالت والعبرات تخنقها : صحيح . وسألت كارولينا أمها : هل كلام ذلك الرجل صحيح يا أمي ؟ . نهضت الأم فزعـة وهى تقول : نعم لقد أخطأت مع رجل أسمه صابر هو ذلـك الرجل الذي كان موجوداً معنا منذ قليل . والتفتـت إلـى أم فرانسوا وسألتها : هل كان هو ذلك الرجل يا ماتيلـدا الـذي أخطأت معه ؟ .. قالت ماتيلدا وهى تزرف الدمع بعصبية : نعم .. نعم . وتسحب منديلا ورقياً تحـاول أن تجفـف بـه الدموع ومخاطاً يتساقط من أنفها .

نهضت وأنا أقول : نعم إنه هو . كان ولا يزال لاهياً في حياته وكنتما ثمرتين من ثمرات لهوه مع النساء . إن اسـمه كان صابر صبري صبور . واسـمه الآن محسـن حسـني الحسيني . والحقيقة أن اسمه لهب بن الشوك .

تركتهم وكارولينا تحزم حقائبها وحقائب أمها ليغادرا بيت ألفونسوا .

لقد تأكدت لهما الحقيقة المرة وكان يجب أن يواجهاهـا . لقد ظهرت للاثنتين الحقيقة كاملة حينما تعرفا علـى رجـل أصيب في حادثة ، وكان منوماً في المستشفى الذي يرقد فيها ألفونسوا وكارولينا ونادتاه في نفس واحد : صـابر . كيـف لامرأة جاءت من بريطانيا وأخرى جاءت من فرنسا تشهقان في نفس واحد باسم صابر .ويأتي هذا العراف ليقول لهما إن

أباهما أسمه صابر . ولما تأمل ألفونسوا شكل صابر وتأمـل شكل كارولينا وشكله عرف أن الأشكال الثلاثـة متشـابهة : الشعر الأحمر والوجه الأحمر والعينان الحمراوان . والرجل مصري وهما مختلفان عنه في الجنسية . بل إن ألفونسوا ظن في بداية حياته أن كارولينا أخته وهى الأخرى ظنت ذلـك . وها هما الأمان تعترفان بواقعة الزنا . لذلك فهمـا أخـوان يجب أن يفترقا .

خرجت متجهاً إلى بيت صابر أو محسن أو لهب ، وكان يسكن بالقرب من العائلة المحزونة . وسألت عنه قيل لي إنه رحل .

ركبت القطار عائداً إلى كان . ولا ادري أين اختفي لهب . ولعل أبنه من الإنجليزية توجه إليه ليحقق معه ولعله وجده قد فر . ولعل كارولينا ذهبت معه لتتأكد من أقوال العـراف ولم يكفها أن تعترف الأمان . أمور لم أعرفها ولم أفكـر أن أبقي لأعرفها . كل ما تأكدت منه أن الأخت قررت أن تهجر أخاها باعتباره زوجاً توطئة للطلاق . شعرت بالفخر وقطار الليل يمضي إلى مبتغاه ، ولو أني أشعر أنني تركت في حلق كل منهم غصة . فقد أحب الأخ أخته حباً جمـاً لكـن مـاذا يفعلان إزاء الحقيقة الصارخة . واستغربت أن يشاركني في فعل الخير لهب نفسه ، ولو أني أعتقد أنه لو وجـد فرصـة للهروب مني لهرب . كأنه كان مجبراً على فعل الخير. لعلها المرة الأولى التي يساعد فيها على محو رذيلة فعلها . ولـو أنه لم يفعلها عمداً إنما صنعتها الأقدار وساقتها إليه صدفة ،

لكن خطأه الوحيد أنه باركها ولم يفعل ما يؤدي إلى طمسها . كأن يخبر الأمين بالحقيقة ويعملون معاً على التفريـق بـين الأخ وأخته .

لهب بن الشوك

عدت إلى القاهرة ، ويا ليتني ما عدت . وجدت مكواة قد أنحرف عن رسالتي . صارت كل مؤسساتي تعمل على خط مستقيم . منع الغش في البضائع . وحرم رشـوة مـأموري الضرائب . وضرب بيد من حديد على الذين تعودوا الفساد . بل امتدت أوامره إلى وقـف أفـلام المقـاولات . وطالـب السيناريست بعمل أفلام لها معنى وهدف تدعو إلى الصـدق والفضيلة ، بل عرفت أنه دفع لزمردة كـل تكـاليف إنتـاج ملابس فيلم هارون الرشيد ، وأنتج الفيلم بصـورة جديـدة ، تبين منه أن الرجل كان يتبع في أعماله نصـوص القـرآن وهدى السنة . ولم يشرك كاميليا في بطولته .

عدت إلى القاهرة ، ويا ليتني ما عدت . لم أجـد غـادة الملساء في الشقة . بل لم أجد المسكن باسم نوار . وجدت أنه تنازل عن إيجار الشقة لآخر لا يعرفه إنما يعرفـه صـاحب العمارة . لم أجرؤ أن أطالبه بالشقة ذلك لأن الإيجـار كـان

باسم نوار . وقد قبض نوار مبلغاً كبيراً مقابل التنازل عـن الشقة الواقعة في طريق هام من الزمالك .

لم يتضح لي ما إذا كان مكواة قد سرق أموالي أم أنـه لا يزال يتاجر باسمي . لم أحاول أن أحصل على اعتراف منه بذلك . كان يتصرف في المؤسسات التابعة لي كأنه صاحبها. وقد توقف عن مبادلتي الحديث . يدعي دائماً أنه مشـغول . مجرد أن يصافحني ثم يهملني بعد ذلك .

قررت أن أعود إلى سوهاج حيث بيتي في القرية القريبة من عاصمة المحافظة . فتحت الباب فلم أجد أحـداً . كانـت الدار ساكنة . التقيت بصبي في الطريق ، سألته عـن ابـن عمي . قال إنه يعرفه . طلبت منه أن يخبره بأن ابن عمـه عاد من القاهرة ويريد أن يراه . انتظرت يوماً أو يومين أن يأتي ابن عمي لزيارتي ، لكنه لم يأت . عللـت الأمـر أن الصبي لم يبلغه ولم يلتق به . ذهبت إليه . وجدته مشـغولاً عني ، يتكلم مع آخرين ، كأني روح لا يراها ولا يبصرها ، فكيف إذاً صافحها وسمح لها بالجلوس ؟! ..

كيف أصبح ابن عمي لا يهابني ؟ .. أين ضاعت هيبتي . لعل نوار هو الذي ثلمها من قبل ، وتسرب إلـى الآخـرين الخبر ، مما ساعدهم على ثلمها هم الآخرون .

***

ذهبت إلى المصرف في سوهاج ، ذلك الذي كانت تـودع فيه الأموال العائدة من الأرض باسمي ، لم أجد إلا فتاتاً رجعت إلى ابن عمي الذي كلمني بعد طول انتظار . قال لي

إنه خاف أن يستمر في لعبة الألف فدان بأسماء مختلفة لرجل واحد فوزعها على الفلاحين . لم يعد ما يملكه لهب بن لهب بن الشوك إلا مائة فدان . سألني : من تكون الآن ؟ .. قلت : أنا أحمل بطاقة محسن حسني الحسـيني . قـال : أذهـب وأبحث عن بطاقة لهب حتى تسترد أموالك ، فإن الألف وجه الآن لم تعد تفيد .. بحثت في داري عن بطاقة لهب وجدتها . ووجدت بجانبها بطاقة صابر صـبري صـبور . تناولـت البطاقة الأخيرة وفي نفسي أمر . تحول إلى مرض . أصبح يلح علي . لم لا أذهب وأعترف لأبني من زمردة بأني ابوه . وزمردة الآن صاحبة مصنع لحياكة الملابس الجاهزة . وأتزوج منها وأعيش على حسابها . لم أعد قادراً على أن أؤلف عصابة . تسرق وتقتل وتسفك الدماء وتنهب الأموال . أتحول إلى نصاب . وأدعي أنني تبت وأعيش في كنفها .

كنت أعرف أين يقع محل البيع ، وتتبعتهـا إلـى البيـت .ودخلت عليها ، وواجهت ولدي منها .قلت له :

- أنت تريد قتلي فاقتلني .

قال ذو الشعر الأحمر والوجه الأحمر والعينين الحمراوين :

- من أنت ؟ ..

قلت له وأمه تتأملني بغضب :

- أنا أبوك . قال لي الأستاذ خير الله المحامي أنك تريـد قتلي ، ولكن لم أرد أن أعرضك لهذا الموقف أن تكون قاتل

أبيك فسافرت إلى الخارج ، بيد أنني شعرت بذنبي ، وجئت إليك لتقتص مني ، فهيا أقتص .

ذهل الولد وهو يقف بين يدي أبيه . وتأملني بعمق ، وقال منكسراً :

- لا أستطيع .. تربيت فعلاً على أن أكون قاتلك . لكن لا يمكن أن أدنس يدي بقتلك . كان الغضب يملؤني ، غير أني الآن لا أشعر بذلك الغضب .

كانت أمه قد انصرفت ، وعادت وهى تسمعه يقول كلماته فقالت له :

- جبان .

ثم استطردت قائلة :

- هذا هو الذي رمى بذرتك في جوفي وتنكر لي . أتريد أن تتركه الآن دون أن تقتص منه . لقد غـدر بأمـك فهـل تتركه دون عقاب على غدره ؟ ..

قال الولد وهو واقف منكسر : لا أستطيع .. لا أستطيع ..

وأنصرف إلى حجرته . لم يضمني لأني اعترفت به . لا يشعر نحوي بعاطفة البنوة .لا يحس أنني أبوه . إن أكثر من عشرين سنة فاصل بيننا . فكيف يتجاوز هذا الفاصل ؟ .. إن سداً غذاه الحقد والغل والغضب يقف بيننا . إنه سد منيع .

ألتفت إلى الصيد الآخر وقلت :

- أريد أن أصحح أخطائي يا زمردة . أريد أن أستردك . أريد ن أكون زوجك .

تأملتني بقرف وقالت :

- هذا أبعد الأشياء عن شاربك .

ولم يكن لي شارب فاستغربت . كنت أحلقـه باسـتمرار حتى أتميز عن أهل قريتي . وسألت :

- أفهم منك أنك لا تريدني .

قالت : لا .. لا أريدك . وبمجرد أن تغادر هـذا البيـت سوف أرفع السماعة وأوافق على الزواج من الرجـل الـذي طلبني منذ أربعة عشر عاماً ولا يزال يطلبني . سوف أوافق على الزواج منه . إنه ينتظر ، وأنا أرفض . ولكني الآن لا أرى داعياً لذلك .

قلت لها أحثها على ارتكاب الجريمة :

- إذاً اقتليني حتى تهدأ نفسي إلى الأبد .

قالت : أمض . لن أدنس يدي بدمك .

كيف تنعت ابنها بالجبان وهى تخشى أن تقتلني ؟ .. يبدو أن الحث على ارتكاب الجريمة أمر سهل أما الصعب فهـو اقترافها .

خرجت مطأطئ الرأس . ماذا يحدث ؟ .. كيف انحسرت الدنيا عنى فجأة ؟ .. كنت أعـيش بـالطول وبـالعرض ، أصبحت الآن أعيشها لكن في ضيق . تحسست بطاقة باسم صابر صبري . لم تعد تنفع الآن ، لأبقـى محسـن ، فـإن مؤسساتي كلها بهذا الاسم . ولا يمكن لمكـواة أن يختلسـها مني .

***

أدركت أن مكواة لا يريد أن يسرق أموالي . إنه لا يزال يقر أنني المالك لكني مالك مع وقف التنفيذ . لقد حجر علـي قسراً كأني سفيه أو مجنون . ولعل الحجر كان حتى يسـير أموالي ويسير عقاراتي في الطريق المسـتقيم . إنـه حجـر للتقويم . يقوم بتشغيل هذه الأموال في الصراط الشريف . لا ينحرف ، ولا يحتال ، ولا يستغل . ومن الذي أعطـاه هـذا الحق ؟ .. من الذي عينه قيماً على . إنه عين نفسه . تـاب الكاب ويريد أن يجعلني أتوب مثله .

لم أستطع أن أنحيه . لم أجرؤ . أستنكر في نفسـي هـذا الضعف ، وقررت أن أستسلم للأمـر الواقـع . أن أخضـع لمشيئة مكواة . لو كان نوري حياً لربما أنقـذني مـن هـذه الورطة . ورطة أن أكون مالكاً وليس لي حق التصرف في ممتلكاتي . هذه حالة لم أشهدها ولا حتى في الأفلام . قلـت لمكواة :

- ما رأيك لو أنتجنا فيلماً عن رجل له أملاك شاسعة ولا يستطيع أن يديرها كيف ما يشاء أو يتصرف فيها .

قال : يا معلم ..

قاطعته قائلاً : أين هو المعلم .. لقد خفضت بـه سـابع أرض .

قال مكواة : سوف تكتشف في الخاتمة أنني رفعتك إلـى سابع سماء . أنت الآن لا تفعل شيئاً . لا تفعل معصية . وما عليك إلا أن تتوب . وتفعل عملاً صالحاً .

لقد كنت ثرياً وفعلت كل الموبقات : سرقة . قتل . زنا . رشاوى . والآن وأنا محدود الدخل فقير ، ماذا يمكنني أن أفعل ؟ ..

***

لم يكن مكواة صلفاً مثل أبن عمي . ذلك الذي أستولي على الأرض وزعم أنه وزعها على الفلاحين . وأين ذهب المقابل ؟ .. أكانت هبة منه وهو لا يملكها لهؤلاء الذين لا يقدرون على دفع الثمن ؟ .. كان مكواة كريماً معي .. من مالي . أستأجر لي شقة في الزمالك كأنما يريد أن يوحي لي أنني لا زلت ثرياً أتمتع بأموالي . وأثثها أثاثاً فاخراً .

وضعت نفسي موضعه . وتأملت الموقف . لو كنت أنا الذي أستولي على أموال مكواة ، لكنت لفظته وألقيت به إلى الشارع ، لكن الرجل لم يرد أن يؤذيني هذا الإيذاء الكبير . وحدد لي مبلغاً أعيش به منه . ولم يكن المبلغ كبيراً مثلما كان يتواجد في جيبي من قبل . بل يمكن أن يجعلني أعيش - كما يقول العامة - مستوراً ، لذلك امتنعت عن ارتياد الملاهي العامة ، بل لم أستطع أن احصل على أنثي تعيش معي في هذا الفقر المدقع في نظري .

كنت مشتاقاً أن أفعل رذيلة . أن أقتل . أن أسرق . أن أزني ، لكني لم أفعل . كان القتل يتم والرجال تحيطني . قد أدس الخنجر أو أطلق الرصاصة في صدر الضحية ، لكن الرجال تقف حاجزاً بيني وبين من يحاول أن يأتي بحركة

غدر ضدي أو يمنعني من إتمام المهمة . وهكذا كانت السرقة تتم ، ولو أن الاغتصاب كان يتم بيني وبين الضحية .

ويبدو أن الانحدار في المال أدى إلى الانحدار في السفالة ، فقد كانت النساء اللاتي أعرفهن من عائلات محترمـة أو ثرية أو أصيلة في بعض الأحيان ، مثلما كانت غـادة التـي اختفت . أو زمردة التي لفظتني لكن لم يكن ينحدر بي الأمر إلى درجة أن أطارد بائعة يانصيب . فقد بـدأت أترصـدها على أمل أن أقتنصها . كانت تطاردني حتى أشتري منهـا . وتأملتها .. راقت في نظري . تصنعت أنني نسيت النقود في البيت . وطلبت منها أن تتبعني . تمنعت في البداية . ولمـا أعلنتها أنني سأشتري منها كمية من الأوراق . جاءت ذليلـة إلى شقتي . أدخلتها متصنعا عدم الاهتمام بها ، ولما قفلـتُ الباب ، وحاولت لثمها قاومتني بشدة وأنا أحـاول أن ألـتهم شفتيها القذرتين . وأقول لنفسي : إلى هذا الحد هبط مستواك يا لهب ؟ .. ثم قالت لي وهى تنفر مني : لم يبق إلا أنت يـا أيها العجوز ! ..

صدمتني الكلمة . لأول مرة أسمعها .

كانت رائحتها كريهة كأنها لم تستحم يومـاً واحـداً فـي حياتها . صفعتها حينما تمنعت ، وطردتها من الشقة لوقاحتها .

سمعت دقاً على الباب بعد قليل . وفتحت لأراها أمـامي تسأل :

- ألن تشتري أوراق اليانصيب يا أستاذ ؟ ..

أعجبتني كلمة أستاذ ، ولعلها قالتها لأنها شاهدتني أرتدي القميص والبنطلون . وقد خلعت عني الجلبـاب والعبـاءة . كان ذلك حتى يتفق الشكل مع ما هو سائد في الزمالك فـلا يظن أحد أنني غريب عن الحي .

شددتها وقلت لها : أدخلي .

وقفت داخل الردهة حائرة . وسألت : ماذا أفعل ؟

قلت لها : أذهبي.. استحمي ، فإن رائحتـك لا تطـاق . الحمام على الجهة اليمنى وأنت داخلة .

أسرعت كأنما خافت أن تفقد المقر الجديد . وقلت لها : لا أريد أن أشم لك رائحة . وقبل أن تجري إلى الحمام سألتها :

- ما أسمك ؟ ..

قالت : عيوشة .

***

فوجئت بعد أيام برجال الشرطة في بيتي . ورجل أعـور العين منضم إليهم . يتهمني أنني غررت بقاصر . قلت له : من هي القاصر؟ . . قال : عيوشة . قلت : كيف غررت بها ؟ . . قال بوقاحة : أدخلتها بيتك وجامعتها . قلـت لرجـل الشرطة : إن عيوشة تعمل عندي خادمة . ولم أعتد عليهـا ولم أتصل بها . ثم قلت : من تكون أنت ؟ .. قال : أنا أبوها .

وسمعت عيوشة من الداخل تنفجر قائلة : أنت لست أبي . غمز بعينه الواحدة وهو يقول : يا بنت !! ..

طلبت من الضابط والعسكر أن يغادروا الشقة ، لأني لـم أغرر بعيوشة ، وأنها تعمل عندي خادمة ، وأن الرجـل - كما تقول عيوشة - ليس أباها . توجه الضابط إلى الرجـل وسأله : هل لديك ما يثبت أن عيوشة أبنتك ؟ ..قال : وكيف أثبت يا سيدي وعيوشة لم تبلغ بعد الخامسة عشرة من العمر . إنها بلا بطاقة . قال : يثبت ذلك في بطاقتك العائلية . قال الرجل وهو يطأطئ الرأس : ليس لدي بطاقة عائلية . تدخلت عيوشة قائلة : هذا معلم يا سعادة الضابط ، يعطينا أوراق اليانصيب لنبيعها ، وأنا تحررت منه لأني أعمل لدى ذلك الرجل الطيب . ووقعت الكلمة الأخيرة موقعاً غريباً في نفسي . متى كنت رجلاً طيباً ؟ .. إنني ما دعوتك إلى البيت إلا لأنك رقت في نظري ولم أجد غيـرك أقتنصـه . قـال الضابط : ومن هو أبوك ؟ .. قالت : أنا لقيطة ليس لـي أب ولا أم , وتربيت كخادمة عند ناس وشجعني ذلك الرجل على بيع أوراق اليانصيب . وشعرت بالذل حتى عملت لدى ذلـك الرجل الطيب وأكرمني بالفعل . هل تكره أن أكون معززة مكرمة يا سعادة الضابط ؟ ..

أنصرف الضابط وقد أخذ معه الأعور ليحرر له بلاغ أنه لا يحمل بطاقة لا عائلية ولا حتى شخصية بالإضـافة إلـى إزعاج السلطات . ظن الرجل أنني أحتجز عيوشـة لـدي . وأنه بمجرد أن يدخل الضابط مطالباً إياها ، حتى تهرع الفتاة إليه . ولكنها كانت أمنية لم تتحقق ، فقد فضلت الحياة عنـد رجل محدود الدخل من المال من كنف سافل يـذيقها المـر

وتعيش معه عيشة التشرد . ويبدو أنه رآها تدخل وتخرج من العمارة . تحمل سلة الخضراوات والفاكهة ، فعـرف أنهـا أفلتت من قبضته ، استمرأت الحياة الجديدة ، فأراد أن يجرب هذه اللعبة معها ومعي ، ففشل .

في ذلك اليوم عرفت السبب في أن كبار السن يتزوجـون من صغيرات السن . لقد أمتعتني فعلاً عيوشة ولم أكن قـد دنوت منها . كنت أترقب ماذا ستفعل بي خلال إقامتها عندي . كانت متحفظة في البداية ولو أني اكتشفت أنهـا خبيـرة . شكرتها في البداية على أنها أنقذتني من هذه الجريمة المحققة . فلو ادعت أن الرجل أبوها لربما ثبتت جريمـة التغريـر بقاصر . ولكني وجدتها تنحني على يدي وتقبلهـا وتقـول : أسديت لي معروفاً فكيف أرده لك طعنة ؟!. لكنـي سـحبت يدي منها ، وضممتها إلى ، وقبلت خدها ، وأنا أقول : ليس هناك جميل ، أنت بنت لطيفة تستأهلين أن يراعك أحد . ولما ضممتها إلى لم تنفر كما فعلت أول مرة ، لكنها استقرت في حضني .

***

لم تطلب مني الزواج ، ولو أنها أعلنتنـي أن الرجـل لا يزال يحوم حول البيت ، وقد يختطفها . إذ أنه رئيس عصابة تتاجر في كل شئ رخيص ولا يرضى بالهزيمة . قلت : وما الحل ؟ ..

قالت : لا أقول لك نترك الشقة ، فإن الشقق الآن نـادرة وغالية . قلت لها : أتزوجك فلا يجرؤ على أن يقترب منك . قالت : إنه حل أمثل .

تزوجتها عرفياً باسم محسن حسني الحسيني . ولم أفكـر في تغيير الاسم ، لأن كل مؤسساتي باسم محسـن حسـني الحسيني ، ولو أني لا أملك ما يثبت ذلك ، كل المستندات - وهى مستندات عرفية - مع مكواة . وهو يسيطر تماماً على الوضع . ولم أفكر أن أطالبه بأي إثبات حتى لا يحجبه عني ويتوقف عن صرف المصروف المحدد الذي يحولـه علـى المصرف في كل شهر . رفض أن أذهـب لاسـتلامه مـن المؤسسات لعله يريد أن يبعدني عنها بأي طريقة حتـى لا يربط بينها وبيني أمام الناس .

وجدت عدة عقبات في زواجي من القاصـر عيوشـة . استخرجت لها بطاقة شخصية بالاسم الذي كانت تشتهر بـه بعد أن ساعدني في ذلك أحد رواد كازينو على النيـل كنـا نحتسي كؤوس الويسكي معاً كنت أرتاد الكازينو لقربه ولعدم غلو أسعاره وتعرفت هناك به . كانت العقبة الوحيد أنها بـلا ولي أمر ، لذلك عرضت عليها الزواج العرفـي ، فوافقـت حتى تبلغ الحادية والعشرين ، فتصبح ولي نفسها . ولم تفكر أن أحرض رجلاً على أن يمثل أنه ولي أمرها . لـم تكـن نضجت بعد في عالم الأجرام .

***

جاءت متأخرة بعد خروجها في ذات نهـار . امتعضـت لأنها تأخرت في الخارج . ولم يقم أحد بتسخين الطعام الذي كانت تطبخه . سألتها : أين كنت ؟ .. قالت دون مواربة : لقد وجدت أنني جاهلة في القراءة والكتابة فالتحقت بإحـدى المدارس حتى أتعلم . هززت رأسي ولم أقل سوى : لنتغد .

تقدمت عيوشة في دروسها . وكنت أظن أن طفلاً يمكـن أن يشغلها عن ذلك . غير أن بطنها لم تتكور . اسـتغربت الأمر . وسألتها : لم تحملي حتى الآن ؟ .. قالـت : حينمـا يكون الزواج شرعياً أحمل . لا أريد أولاداً من الخطيئـة . يكفي أنني ثمرة من ثمارها .

سألتها : وهل زواجنا العرفي خطيئة ؟ ..

قالت : لا .. إنه طبقاً للشريعة مقبول وصحيح ، لكن طبقاً للقانون مرفوض وغير معترف به . وإذا أنكرت أولادك مني فكيف أثبت أنك أبوهم ؟ ..

لقد بدأت الملعونة تتثقف . سوف تسبقني في العلم والتعلم . وسألتها : وكيف تجنبت إذاً الحمل يا مثقفة ؟ .. قالت : لقد جعلت طبيبة في مستوصف قريب تضع لي لولباً يمنع الحمل .

سألتها : أهكذا دون استئذاني ؟ ..

قديماً لم يكن يهمني أن تستأذن المـرأة أو لا تسـتأذن . وماذا جد من جديد حتى يثير الأمر اهتمامي ؟ .. لا أعرف . لكنى وجهت إليها السؤال فأجابت : إن الموضوع لا يحتـاج

إلى استئذان . حينما تكلله بما هـو مشـروع . أكـون مستعدة لإنجاب أطفال منك .

***

سألتني مرة : من أين تأتيك النقود ؟ ..

قلت : من مؤسساتي . إن لي مؤسسة لبيع المواد الغذائية . ومؤسسة للمقاولات . ومؤسسة لإنتاج الأفلام السـينمائية . سألتني : لم لا تدير أملاكك ما دمت ...

قلت أقاطعها : ليس لي نفس ، إن مكواة هو الذي يديرها . كانت تعرف مكواة ، زارنا عدة مـرات حينمـا طالبتـه بالشهادة هو وآخر على عقد الزواج العرفي ، وحينما طالبته بزيادة الراتب الشهري لزيادة المصاريف بعد الزواج . ثـم أنقطع عن الزيارة . لكنه لم يقطع عني الراتب الشـهري . قالت : أنا لا أصدق ..

أخذت نقوداً منى لتشتري آلة كاتبة تتعلم عليهـا . وفـي ظرف ثلاثة شهور أجادت الكتابة عليها . ثم انتقلت إلى تعلم الآلة الكاتبة باللغة الإنجليزية . استغربت همتهـا . تجلـس بالساعات لتتعلم . وبدأت تقرأ في الكتب الصغيرة ثم الكبيرة . سألتها : هل انتظمت في الدراسة ؟ . . قالت : لا ولكنـي أقرأ قراءات حرة . وكنت أقرأ ما تقرؤه . وأكتب ما تكتبه ، حتى أني لاحظت أنني أصبحت أجيد القراءة والكتابة . لعـل الغيرة هي التي دفعتني . وقد يكون الفراغ القاتل الذي أعاني منه هو الذي قتل الجاهل داخلي . كنت مجرماً مـع وقـف التنفيذ فماذا يفعل أثناء هذا الوقف ؟ ..

جاءت يوماً تقول إنها اشتغلت في مؤسسة من مؤسساتي . قلت أي مؤسسة ؟ .. قالت : مؤسسة إنتاج الأفلام . قلـت : ماذا تعملين ؟ .. قالت : أكتب على الآلة الكاتبـة . قلـت : ومن شغلك ؟ .. قالت : مديرها العام مكواة . إن أسمه ليس مكواة . قلت : أعرف ولكني سميته هكذا . لأنه كان يعمـل كواء في بلدي .. فاخترت الآلة التي يعمل بها لتكون اسـمه الحركي . ضحكت وسألتني : ولم لـم تسـميني ورقـة أو يانصيب . قلت : لو كان أسمك عائشة لسميتك عيوشة . وقد راقني الاسم فلم أغيره .

طلبني مكواة يوماً وقال عبر الهاتف : إن عيوشة تتقـدم في عملها . قلت : يبدو أنك تراعيها . قال : أبداً ولكنها ذكية وتفهم كل شئ . وتدرسه إنني سأجعلها مديرة الإنتاج . قلت : مرة واحدة مديرة الإنتاج . هذا كثير ولكن ليكن .. كمـا تشاء .

ولا أدري ما الذي كان يجعلني لا أتـدخل فـي أعمـال المؤسسات مع أن ذلك كان وارداً في أيامي الأولى في الحياة العملية . يبدو أنني قرفت من العمـل واسـتمرأت الكسـل وتركت الحبل على الغارب حتى أهنأ مع الزغلولة الصغيرة . بل لعلي لم أعد أصلح إلا للاستجمام المستمر .

دخلت على عيوشة تحمل كل المستندات التي يحتجزهـا لديه مكواة . تلك المستندات الدالـة علـى ملكيتـي لهـذه المؤسسات . قلت : هل سرقتها ؟ .. قالت : مكواة أعطاهـا لي . على أن أعطيها لك . شعر بأنه يدير مؤسساتك بالحلال

ووجد أن تكون وثائقها معك لأنك صاحبها ، فتحتفظ بهـا . لكنها لم تعطها لي إنما احتفظت بها ولم أهتم .

كانت قد بلغت الحادية والعشرين ، طلبت مني طلبـين : الطلب الأول أن أعطيها الحق في إدارة أموالي وأعمـالي . توكيل عام بذلك . توجست خيفة . ماذا يحدث لو آلت إليها كل ممتلكاتي بهذا التوكيل ؟ .. وطلبت منـي أن أتزوجهـا رسمياً . ولم يكن لدي مانع . مع أنها لو قابلتني قبل ثلاثـين سنة لما وافقت على ذلك أبداً . ووجدت أن توكيلاً بـالإدارة فقط ليس فيه ضياع لأملاكي فوافقت عليه . وعند المـأذون عقدت على عيوشة .

وكانت أول عمل عملته أن عضدت اليد التي عاونتهـا إذ نحت مكواة عن مباشرة أي عمل . وعاد مكواة إلى سوهاج واختفى عن الأنظار . وباشرت عيوشة هانم أعمال الوجيـه محسن حسني الحسيني . وهى لم تتجاوز الثانية والعشـرين من العمر . وحينما سألتها معاتباً : لم اتخذت قرار تنحيـة مكواة ؟ ..

قالت إنه أصبح درويشاً .

خير الله بن الورد

كنت قد استأجرت سكناً في العباسية ، بجانب ما لي مـن سكن في مدينة بور سعيد ، واحتفظـت بـه طـوال فتـرة العدوان وإزالة العدوان وحرب أكتوبر والفترة المائعة ما بين تلك الحرب والاتفاق على معاهدة كامب دافيد تلك التي يحلو لبعض العرب تسميتها بإسطبل داود والتي وقعت فيها معاهدة بين مصر وإسرائيل . وقد استمرت زوجتي تعمل في بـور سعيد بعد إلغاء انتدابها إلى مستشفيات وزارة الدفاع بالقاهرة . وكان الابن الأكبر قد دخل الجامعة فـي كليـة الهندسـة والأخر ألتحق بكلية أصول الدين بالأزهر الشـريف . ولمـا ألتحق مصطفي الصغير بكلية الطب جامعة القاهرة أصـبح من واجب الأم أن تنضم إليهم في القاهرة . تقـدمت يومهـا

بطلب إلى وزير الصحة بنقل زوجتي إلى القاهرة لجمع شمل الأسرة واستجاب الرجل حينما كلمه رئيس تحرير الجريـدة التي أعمل بها وأوصاه بطلبـي . وهكـذا جـاءت برلنتـي ومصطفي إلى القاهرة وانضما إلي وعبد الله والمدثر .

انغمست في العمل الصحفي ، وانغمست برلنتي في العمل الطبي ، غير أنها كانت لا تغفل عن أعمال البيت وطلبـات أبنائها ، ولو أن خادمة كانت تشاركها في تلك الأعمال جئت بها من الوجه البحري .

بدأت أنتقد الأفلام في باب الفن في الجريـدة ولا أكتفـي بالأخبار فقط أو الأحاديث . ونقدت فيلماً كان لشركة محسن الحسيني ، ذلك المعروف لي أصلاً باسم لهـب . وجـاءت مديرة الإنتاج تقابلني وأسمها عيوشة . تسألني عـن نقـاط الضعف والقوة في الفيلم . ولما عددت لها النقاط سألتني :

- لم لا تكتب للشركة القصة والسيناريو والحوار حتى نتلافى أي ضعف في الفيلم ، فأنا ألاحظ أنك دقيق وقدير ؟ ..

قلت على الفور : العفو يا آنسة ؟ ..

قالت : أنا سيدة .

وقرأت الصورة والأفكار التي ارتسمت في ذهنها في ذلك الوقت. عرفت أنها زوجة محسن الحسيني . زوجة تتحسـر على نفسها لأنها متعاقدة معه بعقد عرفي . فهمت أنهـا قـد تكون من ضحايا لهب الجدد، لكني أدركت بعد تمعن وتعمق

في شخصيتها أن المرأة ليست سهلة يمكن أن يطويها ذلـك الرجل .

قلت أفاجئها : ما رأيك لو كتبت عن مشكلة العقد العرفي بين الرجل والمرأة ؟ .. كان وجهها أسمر ، لكنه تحول إلى وجه أحمر قان . عرفت أنني أمس وتراً في قلبها مشدوداً يؤلمها مسكه أو حتى لمسه .

قالت على الفور : لا مانع .

***

انكببت على كتابة السيناريو والحوار من واقـع قضـايا المحاكم فيما يتعلق بالزواج العرفي . ولم أحـاول أن أكتـب قصة عيوشة تلك التي قرأتها في عينيهـا . بائعـة لأوراق اليانصيب . تزوجت مليونيراً بعقد عرفي وزعـم لهـا أنـه سوف يتزوجها رسمياً فيما بعد . وكانت قاصراً فقبلت لأنها تحتاج إلى ولى أمر لها لعقد قرانها . وتناولـت عـدداً مـن القصص المتداخلة التي تعرض للزواج العرفـي وأضـراره ومزجتها في قصة واحدة . وكانـت تـدور فـي المحـاكم فاستغربت عيوشة وهى تقرأ ما فيها مـن قواعـد قانونيـة وسألت :

- هل أنت على إلمام بالقانون ؟ ..

قلت : أنا محام أصلاً ولكني اشتغلت بالصحافة .

قالت : ولم لا تعمل بالمحاماة ؟ ..

- كانت هذه المهنة قد كسدت سوقها لذلك انصرفت عنها . أما الآن فقد بدأت تروج بعد أن غير السادات من سياسـة الدولة من اقتصاد مقفل إلى اقتصاد منفتح .

- لم لا تعود إليها ؟ ..

- أفكر حالياً .

كان مجال الفن خصباً مليئاً بالأحداث والتعقيدات : زواج وطلاق ونفقة وقضايا ضد القذف والخوض في الأعـراض والفضائح المصطنعة والحقيقية . فكرت فعلاً أن أفتح مكتبـاً إذ لا زلت منتسباً إلى نقابة المحامين مقيـداً بجـدول غيـر المشتغلين .

أغدقت عيوشة علي المكافآت مقابـل مـا أعددتـه مـن سيناريوهات وحوار لأفلامها الجديدة .وبدأ المخـرج عبـد الحافظ يخرج الفيلم . وكان من اللازم أن أكون قريبـاً منـه حتى إذا تطلب وضع من الأوضاع أو مشهد مـن المشـاهد تعديلاً معيناً أقوم على الفور بأجرائه. وفي نفس الوقت كنت أعرف أخبار أهل الفن من الأستوديو وأبلغ بها الجريدة التي أعمل بها .

***

وطلبت عيوشة مني رواية أخرى بعد أن نجحت الأفـلام القديمة التي كتبتها . وكانت تصر على أن تكون فـي عـالم الجريمة . وهكذا توثقت صلتي بعيوشة .. تلك التي أصبحت مدير عام شركات زوجها محسن حسني الحسيني . ويبدو أن

زوجها أستسلم لها وقبل أن يتزوجها رسمياً ، وهو الذي كان ينأى عن الزواج الرسمي من قبل .

جاءت في يوم تسألني ماذا تفعل وقد غاب زوجهـا عـن منزل الزوجية . مضى أسبوع لم يظهر فيه . قالت إنه رغب في السفر إلى الإسكندرية أو مرسى مطروح ومشاغلها حالت دون أن ترافقه ، لكنها انتظرت أن يعود غير أنه لم يعد .انتظرت مرة أخري أسبوعاً آخر ، وقررت أن تبلغ الشرطة عن اختفائه . أين ذهب ؟ .. وما السبب في اختفائه ؟ .. هل أختطف ؟ .. لكن أحداً لم يبلغ عن اختطافه ومطالبة ورثتـه بفدية وورثته هي زوجه ، فهو وحيد لا أب ولا أم له ولـيس له زوجة سابقة ولا أولاد سواء ذكور أو إناث . كما تـرآى لها بالطبع .

دخلت عليّ مكتبي في الجريدة وقالت :

- أستاذ خير الله .. يبدو عليـك أنـك سـوف تمـارس المحاماة من جديد .. من أجل خاطري !! ..

وكنت بالفعل قد مارستها . افتتحت مكتبـاً فـي وسـط العاصمة ، أباشر منه قضايا لأهل الفن . استقلت من نقابـة الصحفيين على أن أستمر في الكتابة في الصحافة بل وتركت منصب رئيس قسم الفن في الجريد لنائبي .

قلت : خيراً !! ..

أخبرتني بقصة جديدة غريبة حدثت لها .. امرأة وبناتهـا الثلاث يطالبن بفرض الحراسة على مؤسسات محسن حسني الحسيني . تدعي المرأة أنها زوجه وأن البنات بناته . وقدمت

المرأة في القضية التي رفعتها علـى المؤسسـات الخاصـة بمحسن الحسيني وثيقة زواجها هي بسيمة فكري عبد الحميد من محسن حسني الحسيني وكلاهما من أبناء سوهاج . كمـا قدمت وثائق تثبت أن بناتها الثلاث من صلب محسن حسـني الحسيني . كيف ذلك وأنا أعرف أن محسن هو لهب سـفاح سوهاج المختفي المتخفي . لكن كيف أثبتت ذلك ؟ .. وأيـن محسن الآن ؟ ..

أطلعت على أوراق دعوى فرض الحراسة وعرفت أنهـا رسمية ، لكن أين محسن الحقيقي ؟ .. هل أختفي هو الآخر ؟ .. إن المرأة تزعم أنه غـادر سـوهاج ليشـتري وكالـة سيارات في بور سعيد من شخص أسـمه صـابر صـبري صبور . وضحكت لأني أعرف أن صابر هو محسن . وأنه أنتقل قبل العدوان على بور سعيد إلى القاهرة وأفتتح عـدداً من المؤسسات . وأنه كان على اتصال بهن طوال هذه الفترة . وأن البنات الثلاث يبلغن من العمـر الآن سـت وثلاثـين وأربع وثلاثين واثنتي وثلاثين سنة . إنهن فعلاً بنات محسن حسني الحسيني، لكنهن لسن بنات لهب المنتحل لذلك الاسم . من وراءهن ؟ ..

كان من اللازم أن أسافر إلى سوهاج لأسـتطلع الوضـع بالضبط . كيف أثبت أن محسن ذلك أسمه الحقيقـي لهـب . وأن هذه الشركات جميعا ليست لمحسن الحقيقي .. مشـكلة فعلا .. لكن على من ؟ ..لم أقابل السيدة وبناتها ولا ذهبـت إلى محاميهن ، إنما انتظرت حتى جن الليل ودخلت مكتـب

صحة سوهاج فأنا من السهل أن أخترق الجدران وأجوس في الظلام وأفتش في سجلات الموتى قبل عـام ١٩٥٦ . وهـو عام العدوان . ذلك العام الذي غير فيه لهب أسمه من صابر إلى محسن وباع وكالته لنفسه بالاسم الجديد . لابد أن أحـداً في السجل المدني يساعده على ذلك . يلتقط له أسماء الموتى ويصنع له بطاقات بأسمائهم . هذه كانت نظريتـي . وعلـى العموم إذا لم أجد أسم محسن بين الموتى فسوف أبحث عنـه في السجل المدني . هناك فاصل بين السجل المدني وسـجل الموتى . وإذا أراد الإنسان أن يتأكد أن محسن ذلـك الـذي على قيد الحياة أسم لميت فعليه أن يلجأ إلى سجل الموتى وإن كان أسم لحي فعليه أن يلجأ إلـى السـجل المـدني والأول يخضع لوزارة الداخلية والثاني يخضع لوزارة الصحة ! ..

فتشت في السجلات حتى وجدت فعلاً أن محسن حسـني الحسيني مات في أكتوبر ١٩٥٥ . أي قبل الحرب بعام كامل وشهر . وخرجت من مكتب الصحة لأعود لنفس المكتب في الصباح أطالب بشهادة وفاة محسن حسني الحسيني .

ابتهجت عيوشة وهى ترى المستند الدامغ علـى أن زوج السيدة بسيمة فكري عبد الحميد أبا بناتها ليس هـو محسـن حسني الحسيني صاحب مؤسسات المقاولات والأغذية وإنتاج الأفلام . سألتها : أين زوجك في ظنك ؟ ..

- لا أعرف .
- هل تعتقدين أنه وراء هذه القضية ؟ ..

فغرت فاها وسألت : كيف ؟ ..

- ربما قترت عليه في المصروف فأصطنع هذه القضية حتى يسترد أمواله منك ويعاقبك على تقتيرك .

- كنت أعطيه مرتباً شهرياً مثلما كان يعطيه صديقه ومدير أعماله السابق مكواة .

- هل طالبك بزيادته ؟ ..

- كان يلمح ولكنه لم يكن يصرح .

- على العموم سوف تفاجأ الأرملـة فـي المحكمـة أن زوجها مات وهى تعرف ذلك جيداً ، وأن محسـن صـاحب المؤسسات التي تريد فرض الحراسة عليها ليس زوجها .

- لكن في وثيقة الزواج هناك رقم بطاقة الرجـل وذلـك يثبت أن محسن زوجي هو زوجها .

- لا .. الثابت في الوثيقة رقم بطاقة الزوج قبل الـزواج وليس رقم بطاقته العائلية . علماً بأن نظام البطاقـات وقـت زواجك كان مختلفاً عن وقت زواجهـا . إن نظـام السـجل المدني كان قد تغير . إن دليل وزارة الصحة يثبت أن الرجل مات وهو زوج السيدة وليس زوجك . كما أنك لما تزوجـت محسن حسني الحسيني تزوجته في سنوات تاليـة لخروجـه المزعوم إلى بور سعيد وكان الزواج ببطاقة شخصية وليس عائلية فأين البطاقة العائلية التي تخص زوج السيدة في هـذا العقد الخاص بك لو كان محسن المطلوب فرض الحراسـة عليه هو زوجها ؟ .. فوجئت السـيدة ومحاميهـا وبناتهـا بالوثيقة الدامغة يقدمها خير الله المحامي ، وهو يقول :

- سيدي القاضي . إن أمامكم حالة تشابه فـي الأسـماء استغلتها هذه السيدة لصالحها . إن السيدة افترضت أن زوجها لا يزال على قيد الحياة وأنه يعمل ، رغم أنها أبلغـت عـن وفاته في أكتوبر ١٩٥٥، فكيف أستمر الرجل يحيا ويغـادر سوهاج قاصداً بور سعيد ويشتري وكالة للسيارات . إن ذلك الذي غادر سوهاج كان شخصاً ينتحل أسم محسـن حسـني الحسيني وعاش باسمه أو تشابه اسمه مع أسـم زوجهـا . وأقدم لسيادتكم الدليل على أن محسن حسني الحسيني مـات ودفن في سوهاج في أكتوبر من عام ١٩٥٥ . أي قبل ظهور محسن الآخر في بور سعيد .

ذهلت بسيمة فكري عبد الحميد ارتبكت . وظنت أنها قـد تسجن ، فتسللت منسحبة من الجلسـة . وغـادرت بناتهـا المحكمة بعدها في هدوء ودون أدنـى ضـجة . ومحاميهـا يجفف عرقه بمنديل أصفر اللون كأنه فوطة لتلميع السيارات .

سألني القاضي :

- فمن هو محسن حسني الحسيني ؟

أجبت : إنه رجل أنتحل أسم محسن حسني الحسيني وكون هذه الثروة التي تديرها موكلتي . وربما يكون هاربـاً مـن العدالة وانتحل الاسم . وربما شخصاً سوياً . لا نعرف لأنـه غادر منزله منذ زمن وانقطعت أخباره . إذا ظهـر محسـن حسني الحسيني الغائب ربما نعرف منه الكثير ، لكن المؤكد أن لا صلة لزوج هذه السيدة (حاولت أن أشير إليهـا فلـم

أجدها) . وبنات هذه السيدة (حاولت أيضاً أن أشير إليهن فلم أجدهن) . وزوج هذه السيدة (وأشرت إلى عيوشة وكانت واقفة صامدة فرحة بقرب كسب القضية) ثم الثابـت من الأوراق أن الزوج الغائب كان يتعامل ببطاقة شخصية لا عائلية مما يدل على أنه لم يكن متزوجاً وذلك ثابت من عقد زواج موكلتي بزوجها . ولم يكن وقت مـوت زوج السـيدة بطاقة شخصية ولا عائلية إنما بطاقة ألغيت فكان على الرجل لو كان حياً حتى إبرام عقد القران بالسيدة عيوشة أن تكـون معه بطاقة عائلية والثابت من عقد الزواج أنه تزوجها ببطاقة شخصية . انتهيت من تجفيف عرقي وسمعت القاضي يقول :

- تؤجل القضية إلى أكتوبر ١٩٧٥ للنطق بالحكم .

***

تركت قضية عيوشة ، وهي مبسـوطة الوجـه ، فلـديها توكيل عام من زوجها المدعو محسن حسني الحسيني بإدارة مؤسساته . ورغم أنه متغيب من شهور طويلـة ، غيـر أن الحكم بغيابه لا بد أن يصدر بعد ثلاث سنوات من هذا الغياب . والزوجة المدعية طالبة الحراسة لا صلة لهـا ولا بناتهـا بزوج عيوشة .

عدت إلى منزلي لأجد قضية جديدة . قضية أبني عبد الله الطالب بكلية الهندسة . كبر الأولاد وكبرت مشاكلهم .

طلبت برلنتي أن أنتبه إليها ، وأن أعيرها سـمعي لمـدة نصف ساعة . لقد تعرف عبد الله بطالبة جميلة فـي كليـة

الهندسة . تدرس معه في نفس القسم . والداها تركاهـا فـي القاهرة ، وهما يعيشان في دبي . الأم هنـاك تعمـل والأب أيضاً يعمل . ولم يكن في استطاعتهما إزاء زغللة المـال أن يتفرغا لرعاية أبنتهما . وكانت قد بلغت الحادية والعشرين ، فهي راشدة . وكانا قد تركاها منذ السنة الأولى فـي كليـة الهندسة ، وعاشت وحدها قوية متزنة . وكانا يأتيان إليها كل ثلاث شهور ليقضيا معها أسبوعاً أو أكثر من أسبوع . غير أن حبها لعبد الله كان جارفاً . كان الولد وسيماً فيه جمال أمه . بياضها ورقتها وحلاوتها وطراوتها . انجذبت إليه وأنجذب إليها . وفقدت في بيتها أعز ما تملك الفتاة الشرقية . وقـرر عبد الله أن يصحح غلطته وأن يتزوجها . وذهب إلـى أمـه وهى معه وحكى لها قصتهما . فماذا تفعل ؟ .. قلت علـى الفور : يتزوجان . سألتني : وماذا يحدث لو رفض أبواها ؟ ..

***

لهب بن الشوك

ما هذا الضعف الذي اعتراني إزاء عيوشة ؟ .. لقد أصبت بهذا الضعف إزاء أبني نوار ، لكنه أبني ووجدت في سرقته لي تعويضاً لامتناعي عن إعلان نسبه إلى . لكن عيوشة سرقت مني القدرة على المواجهة . بل لعل القدرة سرقت مني في باريس حينما خضعت لهذا المحامي القميء . وعرفته بمكان والدي اللذين تزوجا ، فراح يفرق بينهما . أما عيوشة فقد تغلغلت في دمي ، وصرت لا أتنفس إلا من خلالها . أصبحت لا أطيق بعادها ، وأغار عليها . هل لأني شيخ وهى فتاة في سن الربيع ؟ .. هل لأني أمثل الخريف وهى لا تزال تمثل النضرة ؟ .. لعل السبب في خضوعي لها أنني لم أكن أرغب في فقدها . لمحت لها أن تعطيني مالاً كثيراً من مؤسساتي ، سألتني فيما سأنفقه ؟ ! .. ولم أجب .

لا أعرف فيما سأنفق المال . لكن أريد أن أتملك فحسـب . أريد نقوداً سائلة دائماً في جيبي . هذه النقود تشعرني بالقوة والامتلاء والسلطة .

إزاء إصرارها على تحجيم جيبي ، بدأت أنصب شـباكي على الأغنياء . ودخلت في مجال جديد للأجرام . بدأت قاتلاً هاوياً ثم سارقاً وبعد ذلك خائناً وفاسداً ثم هاأنذا أتحول إلـى نصاب . أردت أن أنصب على زمردة ففشلت ، لكن ها هي حيلي الجديدة تنجح . شددت بطاقة من البطاقات الشخصـية التي أحتفظ بها في خزانتي الرقمية . ولا يعرف الرقم غيري . استخرجت بطاقة شوكت سليم الجرجاوي . كنت أستعملها قبل مغادرة سوهاج بزمن أثناء عهد السرقة . اتخـذت مـن مقهى هيلتون مقراً دائماً لي . كان يمكن أن أحصـل علـى سيارة أجرة بسهولة متجهة إلى وسط المدينة ، وهناك أستقر في المقهى أو حتى أمشي وأصل بعد لأي إلى ذلك المقهى . والرياضة في مثل سني نافعة تماماً .

هناك في المقهى تعرفت على عديـد مـن المليـونيرات القاعدين عن العمل . عرضت عليهم المشاركة في مشروع . انبهروا من الأرباح المتوقعة . كان مشروع إقامة محـلات لبيع الملابس البلدية للأجانب . أين يمكن إقامتـه ؟ .. ومـا رأس المال اللازم ؟ . قام الوجيه رأفت عوني بوضع دراسة الجدوى . بسرعة أكتشف رأفت عوني أنني أنوي النصـب على الخلق الأغنياء . وأضع النقود في جيبي وأفك . ووجـد أن الفرصة لا يمكن أن تفلت منه ، فهو دكتوراه في الاقتصاد

في بلد لا تقدر الاقتصاديين وهو في نفـس الوقـت خـالي الوفاض ، لذلك يتسكع على المقاهي لعله يجد صيداً مثالـي . يريد المكسب السريع في ظل إجراءات قانونية لا تدين أحداً ولا تسمح بتوقيع عقوبات على مخالف لأنه كمـا يبـدو لـم يخالف شيئاً . وأكتشف أنني قادر على ذلك . لمـا تجاوبنـا ذهنياً رحت أشرح له وجهة نظري في النصب :

- هناك فن اسمه النصب . وحرية الفنان مكفولـة لـه . ليس ذنب النصاب أن القانون يجرم الفعل . وليس عليـه ذنب أنه فنان . إن الفن في هذه الحالة هو كيف تستولي على نقود الخلق دون أن ترتكب جرماً ودون أن توقع عليك عقوبة ، وتفلت من قبضة العدالة كمن يفلت بالشعرة من العجين .

قال : وأنا معك قلباً وقالباً .

- سوف نغرق في المال لكن عليـك أن تضـع دراسـة الجدوى بدقة ، وأن تجعل ألسنتهم تلهث وراءها .

ولما تقدم رأفت عوني بالدراسة ، أخرج الأغنياء أموالهم . عشرة أغنياء دفعوا مليون جنيه . وعدوا أن يجدوا مائـة آخرين بمائة مليون ومليون . وتقدمت لهم بأسماء المحلات . محلات شوكت وشركاه . في الحسين وكرداسـة والغردقـة والأقصر . كلها محلات تبيع ملابس وطنية للأجانب ، لكـن عدد الشركاء لم يبلغ عشرين فرداً . فاكتفينـا أنـا ورأفـت بالمليونين . هو حصل على الربع وأنا حصلت على الأربـع الثلاثة الباقية . واختفينا . ولعل الأغنياء يبحثون عن شوكت سليم الجرجاوي فلا يجدونه . ولو أن عوني رأفـت ظهـر

بينهم بعد ذاك مدعياً أنه مصاب هو الآخر .وخشوا أن يبلغوا الشرطة فيظهروا بمظهر الغفلـة وتـرى الشـرطة أمامهـا عشرين مغفلاً .

اضطررت أن اختفي تماما مـن الزمالـك . وشـحنتني الجريمة بشحنة جعلتني أقوى على هجر عيوشة . هجرتهـا هجرة دائمة رغم اشتياقي إليها .

عدت إلى سوهاج أفكر كيف أسترد أموالي من عيوشة لقد أخذت الوثائق من مكواة واحتفظت بها حتى لا تمكنني مـن إلغاء التوكيل وتنحيتها من الإدارة ، لا أدري ما هذا الضعف الذي اعتراني لم أقدر أن أقول لها إن وكالتي لـك لاغيـة ، ماذا كان يلجم لساني ؟ .. لا أعرف . كان يكفـي فقـط أن أقول لها : غادري البيت ولا تذهبي إلى مؤسساتي لكني لـم اجرؤ على ذلك القول .

هناك في قريتي بسوهاج التقيت بمكواة ذلك الذي نزعـت سلطاته وأعادته إلى بلده . وأشتكى لي ما فعلته فيه زوجتـي المصونة صاحبة الحكمة عيوشة هانم . قلت له : الحال مـن نفس الحال وأنا الآخر حجمت أوضاعي ، ولكنها قالت لـي إنك أصبحت درويشاً .

- تقول ما تقول .. لكن ها هي الحقيقة ماثلـة أمامـك . درويش بلا عمل ولا مال .

***

جاء ابن عمي اللاص الذي سرق أرضي الزراعية ، ولـم يترك غير مائة فدان صار يستحل ريعها . وأعطـاني ريـع

السنوات الماضية . وقبل رأسي وقـال لـي : لقـد أنبنـي ضميري على ما اقترفته في حقك ، أرجـو أن تسـامحني . لكن لم يعد إلي ما أستولي عليه . أعطاني كلامـاً جمـيلاً والأرض لا تزال في حوزته .

سألته : كيف أسترد أموالي من عيوشة .

وحكيت له قصتي مع عيوشة فأسـتغرب أن أبلـغ هـذه المرتبة من الضعف . ولم أرو له عودتي إلى استرداد قواي الإجرامية بالنصب على عشرين رجلاً من الأغنياء المترفين . كنت قد أودعت الأموال في أكياس من النايلون ودفنتها في داخل داري في سوهاج تحت البلاط . كلما تطلبت أوضـاع حياتي مالاً فتحت الجب المدفونة فيه الأموال وأخذت منها ما يكفيني . مليون جنيه ونصف المليون .. تكفي العمـر كلـه دون استثمار . وأين هو شوكت سليم الجرجاوي ليبحثوا عنه في أي مكان فلن يجدوه . لقد عدت من جديد أحمـل أسـم صابر صبري صبور .

أقترح ابن عمي أن تظهر إلى الوجـود زوجـة وبنـات محسن حسني الحسيني . وتطالب بوضع الحراسة على تركة محسن الغائب . وأين هي زوج محسن وبناته . إنهن لا زلن على قيد الحياة .

بسيمة فكري عبد الحميد زوج المرحوم محسـن حسـني الحسيني ، موظف سابق بخدمة الحكومة . مات منـذ عـام ١٩٥٥ لذلك أستخرج لي أبن عمي بطاقته على اعتبار أنه لا يزال على قيد الحياة . ولما عرف أنني لن أكون في سوهاج

فلن تكون هناك فرصة أن ألتقي بزوجته وتطعن في اسمي . كانت المرأة فقيرة تعيش على معاش ضـئيل هـي وبناتهـا الثلاث ، فقد مات الرجل وهو لا يزال في مقتبـل العمـر . والغريب أن البنات الثلاث لم يتزوجن ربما بسـبب فقـرهن المدقع .

جاءت بسيمة ومعها بناتها الثلاث .. تعدين الثلاثين مـن العمر وظهر الفقر عليهن وقد طحـن جمـالهن . ثلاثـتهن عوانس . لم يلتفت إليهن أحد ولا يتقن صنعة . هن جميلات بالفعل لكن ما قيمة الجمال والفقر يلازمهن كالظل .

عرضت عليهن فرصة الثراء في حضور ابن عمـي . إذ سأتمكن من استرداد ملايين الجنيهات عن طـريقهن علـى اعتبار أنهن زوج وبنات محسن حسني الحسيني الغائب عن منزله ، والذي كان ينفق عليهن مـن وراء ظهـر زوجـه الصغيرة الجميلة المستبدة . وطلبت من بسـيمة أن تظهـر وثيقة الزواج وشهادات ميلاد بناتها ، وأن يذهبن إلى محـام ضليع عينه ابن عمي وأن يطلبن منه أن يرفع قضـية ضـد عيوشة ، حتى يتمكن من فرض الحراسة على أموال أبـيهن حتى يظهر أو يحكـم بغيابـه . وصـدق المحـامي روايتهن ، وبدأ في رفع الدعوى في القاهرة ضـد عيوشـة يطالبها بتسليم أموال محسن حسني الحسيني لوضعها تحـت حراسة زوجه وبناته من صلبه الأحق بإدارة أموالـه فتـرة غيابه .

لما تحددت الجلسة نمت نوماً عميقاً ، فغداً تفاس عيوشـة وتطرد من شقة الزمالك وتعود من جديد إلى المعلم الأعـور لتبيع اليانصيب . أين ذهب حبي لها ؟ . . إن قلبي لا يسكنه الحب . وإذا ما رأيتها أو لمستها فسوف تخر ساجداً وتتنازل عن كل شئ . من أجل ذلك أبقى سجين داري فـي القريـة الواقعة على أطراف الصحراء في سوهاج . إن الغرام تحول إلى كراهية وحقد لما بدأت عيوشة تقتر علي من أمـوالي . ولم لا أذهب وألغي التوكيل وأسترد أموالي. كنت أشعر أنني بمجرد أن أري عيوشة سوف أضعف وأعود من جديد راقداً تحت قدميها . من أين جاء ذلك الضعف ؟ .. يبدو أن البعـد يصنع الجفاء فعلاً والقرب سوف يحي الغرام بعـد مـوات سوف يبعثه رغماً عنه ويأتي التهالك والاستسلام لها . ثم إن وجودي من جديد في منطقة الزمالك أو في القاهرة أمر خطر . فقد أصادف واحداً من هؤلاء الذين نصـبت علـيهم مـن المغفلين العشرة ، فيمسك بي ويقودني إلى الشرطة ومنها إلى السجن . لن يقودني وحده لأن كل واحد منه يمشي في ركابه أفراد الحراسة الخاصين به . هؤلاء الأبطال منتفخي الصدر والعضلات والذين يقفون من بعيد يتمنون إشارة من الغنـي المغفل أو الثري الأهطل .

أغدقت على بسيمة وبناتها في ذلك الوقـت . بـل إننـي استملت البنت الصغرى إلي وجاءت إلى داري عند أطـراف القرية . وقضت معي أسبوعاً ذاقت فيه النعيم الـذي أخفـاه الفقر عنها .. كانت هي الأخرى قد تعدت الثلاثين لكن كـان

فيها رمق . ساعدتني على محنة فراق عيوشة . وسـخرت الفتاة وكانت دائماً تسخر من الزمن . وقالت : أب في حضن أبنته . نفيت ذلك وقلت : لا .. أنا لست أباك . أنـا أسـمي صابر صبري صبور . ثم هذا هو اجتماع الربيع والخريف ، وهى معادلة من الصعب حلها وقد تمكنا من حلها .

***

انسحبت المرأة وبناتها من القضية ، حينمـا عـرفن أن أمرهن سوف ينكشف أمام العدالة . لقد قيل لي إن عيوشـة أوكلت محامياً أسمه خير الله كان بارعاً وكشف المستور . (خير الله ثانية . هذا الرجل يطاردني كما يطارد القط الفأر) . أثبت بالدليل القاطع أن محسن حسني الحسيني مـات منـذ عشرين عاماً . وأنه لا يعقل أن يكون قد غادر سوهاج إلـى بور سعيد وكون ثروة وغادرها إلى القاهرة ليزيد الثروة في صورة هذه المؤسسات الكبيرة وهو ميت في عـام ١٩٥٥ . وقدم الوثيقة الدالة على موته أمام القاضي . والوضع لا يخلو من أمرين إما أن محسن حسني الحسيني صاحب المؤسسات المطلوب فرض الحراسة عليها أنتحل شخصـية المتـوفي ، وإما أن محسن حسني الحسيني شخص حقيقي مـن مواليـد سوهاج بالفعل وتشابه اسمه مع اسم زوج هذه السـيدة ولـم يتزوج منها ولا البنات بناته ، فالأمر مجـرد تشـابه فـي الأسماء اتخذته السيدة ذريعة للاستيلاء على الأمـوال التـي تديرها السيدة عيوشة بالتوكيل عن زوجها الغائب .هكذا قالت لي بسمة البنت الصغرى لبسيمة فكري ولم تستطع النسوة أن

يذهبن إلى المحامي الذي أوكلنه حتى يعرفن الحكـم خجـلاً وعاراً . ويبدو أن القضية شطبت لعدم حضور المـدعيات طالبات فرض الحراسة علـى مؤسسـات محسـن حسـني الحسيني الغائب . لم يكن هناك بد من الظهور مرة أخـري والعودة إلى القاهرة ومواجهة عيوشة ومطالبتها بثروتـي . استقبلتني بحفاوة فائقة . بل دخلت معي إلى الفراش . وفـي الصباح قلت لها : - سوف ألغي التوكيل الذي حررته لـك وأعود لمباشرة أعمالي بنفسي . سألت: من أنت ؟ .. قلت : أنا محسن حسني الحسيني زوجك . قالت : ولكنك مـت منذ عشرين سنة .. أو لعلك زورت بطاقة بهذا الاسم فمـن تكون فعلاً ؟ ..

خير الله بن الورد

لم أمانع ، ولم أقف في طريق المدثر يوم قرر أن ينخرط في طريق الدين . وسلك طريق المدارس الدينية حتى دخـل جامعة الأزهر وهناك بدأ يتعلم أصول الدين . كان يريـد أن يكون عالماً من علماء الدين . وكانت أمه تتوجس من دخوله هذه السبيل ، غير أنها رضخت . كان يقيم الصـلاة ويقـرأ كثيراً في القرآن الكريم وتفسيره . ولو أني رأيت أن حياتـه انغلقت على العلوم الدينية غير أني لم أتدخل . كنت أرى أن لا أحد تدخل في اتجاهاتي العلمية ، فلا يجوز أن أتـدخل في اتجاهات أحد حتى لو كان ابني .

أما مصطفى خير الله الولد الصغير فقد شـب يريـد أن يدخل كلية الطب ، ويقتفي أثر أمه . وقد عرفت أن وراثتـه قدراتي الخاصة في قراءة العيون مع العلم الطبـي سـوف

تؤهله أن يكون طبيباً ماهراً يتمكن من تشـخيص المـرض وعلاجه .

وعبد الله الولد الكبير ، وقفت في طريقه مشـكلة رفـض والد الفتاة التي تعلق بها وتعلقت به الزواج من أبنته ، فكـان يعتبره لا يزال طالباً ، ولو أنه كان في السنة النهائية . وقـد أرسلت إلى أبيها خطاباً أطلب فيه منه أن يتزوجـا وأتعهـد بكفالتهما حتى ينتهيا من الدراسة . وسوف يكـون مسـتقبله باهراً بأذن الله ، فهو يدرس فرعـاً جديـداً فـي الهندسـة الكهربائية ، ألا وهو كهربة الحاسب الآلي . غير أن الرجل أجاب بأنه لا يريد أن يشغل أبنته عن تحصيل العلم . وعندما تنتهي من دراستها وينتهي من دراسته يمكن النظر في أمـر اقتران أحدهما بالآخر . لكن الولد كان قد أرتكب خطـأً لـو عرف الأب لسارع بعقد الزيجة . ورفض عبد الله أن ينتظر حتى يوافق الأب على الزواج . وأخذها عنوة إلى المـأذون وهو يقول : إننا إزاء تصحيح الخطأ . قلت له : هل نصحح الخطأ بخطأ . قال : إنه خطأ صغير أن نتزوج ضـد إرادة الأبوين . حتى نصحح ما ارتكبناه في حق أنفسنا .

جاء إلي يريدان أن يعيشا معنا . ولما كانت لـه حجـرة خاصة ، لم أجد غضاضة في أن أشتري له أثاث حجرة نوم فاخرة حتى يتمكن من أن يقضي حياة هانئة . كانت الشـقة التي أسكنها وأسرتي كبيرة بنيت على الطراز القـديم حيـث كانت مساحاتها واسعة وعدد الحجرات خمس . الآن لا يوجد مثيل لها إلا إذا كان ملكاً . كنت أعرف أسـباب انـدفاعهما

وهو تصحيح الخطأ لذلك باركت زواجهما رغـم معارضـة والد البنت .

***

لعلي لم أكن الوحيد الذي يجمع بين المحاماة والصحافة . لقد استمررت أكتب في الصحافة وتنازلت عن رياسة القسـم الفني وباشرت المحاماة حتى أصبحت معروفاً فـي الوسـط الفني أني محامي الفنانين والفنانات . ولعل القضية المثيـرة التي عهدت إلي في أول حياتي في المحامـاة بعـد انقطـاع طويل . هي قضية عيوشة . زوج لهب . المعـروف باسـم محسن حسني الحسيني . وقد شطبت القضية بسـبب عـدم مثول المدعيات على عيوشة أمام المحكمة . وكنا ننتظـر أن تحكم المحكمة أن محسن حسني الحسيني مات فـي أكتـوبر ١٩٥٥ وأن محسن الآخر ما هو إلا شخص أنتحل اسـمه أو تشابه مع اسمه . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . اكتفي القاضي بالشطب لعدم حضور المدعيات طالبات فرض الحراسة على أموال محسن .

استمرت عيوشة تدير الشركات باقتـدار علـى أسـاس التوكيل بالإدارة المبرم لها مـن المـدعو محسـن حسـني الحسيني صاحب المال .

قلت لها : أحذري من هذا المحسن . إنه جبار . يمكن أن يقتلك إذا عاد إليك لاسترداد أمواله .

قالت : سوف أستعد لـه . سـوف أتعلـم المصـارعة والكاراتيه . أليس ذلك أفضل ؟ ..ابتسمت وقلت لها : ذلـك أفضل .

***

قضية أخرى ، تلك القضية التي جاءت من فنانة معروفة . لا تريد أن أرفعها أمام القضاء أو أتخذ إجراءاتهـا أمـام المحاكم . استغربت فعلاً أن أباشر قضية دون اللجوء إلـى القضاء . ولما اطمأنت إلي فهمت منها القضية بعمق . فقـد كانت قد تزوجت برجل عجوز تحت وقع الفقـر والعـوز ، غير أنها قرفت منه وتركته وهربت . وتزوجت بـآخر فـي بني سويف . تاجر غلال معروف . تزوجها ولـه زوجـة أخري في بني سويف . وبنين وبنات . ولم تطق العيش معه هو الآخر ، فأبقت منه . وفي الإسكندرية عاشت زهاء سنتين ، تعرفت فيها على ميكانيكي يعمل بالقرب من البيت الـذي تقيم فيه وتزوجته . وكانت حياتها هناء وافراً ، غير أنه كان شرساً غيوراً لأقل هفوة يمكن أن يطيح بالأطباق في وجهها . وينهض ليضربها ضرباً مبرحاً . ثم يعود ويتأسف ويحاول أن يسترضيها . ولم ترض بهذه الحياة ، وأفلتت إلى القاهرة . وهناك اشتغلت كومبارس ، ثم تدرجت حتى أصبحت فنانة كبيرة . وتزوجت من مخرج أفلامها ، لكنها الآن تريـد أن تتحلل من الزيجات السابقة ، تخشى أن تتهم بتعـدد الأزواج وتقضى العقوبة في السجن خاصة أنهـا تزوجـت الرجـال الأربعة باسم واحد . وهو المبـين ببطاقتهـا الشخصـية .

اندهشت فعلاً أن تكلفني أن أتوجـه إلـى الرجـال الثلاثـة أزواجها لأطلب منهم أن يطلقوها . دون أن يعرف أي واحد منهم ما اقترفته . حاولت أن أتملص من هذه القضية لكنهـا طفقت تطاردني لأني أعرف سرها . وهى تريد التوبـة والله يقبل توبة العبد فألا يساعدها العبد على التوبة .

أعطتني عناوين الأزواج الثلاثة .

استغربت زوجتي برلنتي حينما قلت لها إنني سوف أتغيب فترة قد تطول . قالت : أين ؟ ..

قلت : سوف أتصل بك .

سافرت إلى الأقصر . مسقط رأسي . لم أره منذ أكثر من ثلاثة وثلاثين عاماً . هناك كان يقيم الـزوج الأول ، ذلـك العجوز الذي تزوج الصبية . سألت عنه ، وعلمت أنه مـات منذ زمن . استخرجت شهادة بوفاته حتى تتأكد الفنانة الكبيرة من أن أحد أزواجها قد مات .

وفي بني سويف التقيت بالزوج الثاني . تعرفت عليـه . هددته أنني سوف أفشي سره لامرأته وأولاده لو أنه لم يطلق المرأة التي تزوجها منذ سنين وهربت منه . وحجبت عنـه أنها تعمل بالفن رغم أن صورها تملأ الجرائد لكن يبدو أنـه صنف من الناس لا تستلفتهم أخبار الفن والفنانات . يعـيش حياته من أجل بيع الغلال ولا يشم ولا يحس إلا بـالغلال . علاوة على أن الفنانة كانت قد غيرت من ملامحها وغيرتها المساحيق والدهانات والأحمر والأخضر وشد الوجه وترهله ، فلم يكن من السهل التعرف عليها لو كان مهتماً بمطـاردة

المرأة الهاربة . وأخيراً حصلت على وثيقة الطلاق . وتركت بني سويف متجهاً إلى الإسكندرية . استأجرت سيارة . وكنت قد تعلمت قيادة السيارات منذ مدة ، ولو أني لم أشتر واحدة . كنت أزمع أن أشتري سيارة وكلما تمكنـت مـن سـعرها ارتفعت الأسعار والتهبت . فالنقود دائماً لـم تكـن كافيـة . وأخذت السيارة إلى ذلك الميكانيكي لإصـلاحها ولأتعـرف عليه . وأخذنا الحديث - وأنـا أنتظـر إصـلاح السـيارة المستأجرة - إلى الزواج . وسألته : ألم تتزوج حتى الآن ؟ .. قال : كيف ذلك لقد تزوجت ولكن السيدة هربت مني . قلت وأنا أقرأ في عينيه : لأنك شرس . أصـيب الرجـل بذهول ، استطردت : لو كنت ليناً لعاشت معك . سألته بعـد ذلك وهو لا يزال ذاهلاً : لم لم تبحث عنهـا ؟ .. قـال : الحقيقة ليس لدي وقت . ليس معقولاً أن أترك عملي وأجري باحثاً عن امرأة لا تستحق . ثم أنا بصدد الزواج من أخري . ضحكت وأنا أقول : لتضربها مثل الأخرى . قـال : لا .. عاهدت نفسي ألا تمتد يدي على غيري . لقد تبت يا بـك . قلت : إذاً لم لا تطلقها ؟ . . قال وهو ينهض نافخاً الهـواء من فمه : لا .. وألف لا .. لا بد أن أجدها يوماً وأؤدبهـا . قلت أشده ليجلس : وهل هذه رجولة ؟ .. ثم سـألته : مـاذا يحدث لو أنني أتيتك بألف جنيه منها وتطلقها ؟ .. زغللـت عينيه سيرة المال ، وقال : وهل أنت قادر؟ . . قلت له : أنا محامي وقادر . سألني : وأين ستجدها ؟ .. قلت : الحقيقـة أنها أرسلتني إليك طالبة الطلاق . وبعد مساومات قليلة قبـل

الرجل ثلاثة آلاف جنيه ليطلق . وأصـلح السـيارة غيـر المعطوبة . ووقع وثيقة الطلاق بعد أن قبض المبلغ وأثبـتُ ذلك في وثيقة الطلاق حتى لا يراجع الفنانة بعد طلاقهـا . وانصرفت إلى الفنانة أعلنها بحريتها .

لم تصدق في البداية . وقلت لها : لا تعيدي الكرة . قالت أبداً . قلت : لكنك متزوجة . أجابت : لقد طلبت الطلاق من المخرج فطلقني .

قلت لنفسي : هذه هي المرأة التي طلقت من أربع رجـال في فترة واحدة أو بالأحرى ثلاثة لأن الأول كان قد مات .

***

كنت أتابع تصوير فيلم من تأليفي . تقوم بإنتاجه مؤسسـة محسن حسني الحسيني تحت إدارة عيوشـة هـانم ، التـي أصبحت تسمى في الوسط الفني مدام شوشو . تقدمت منـى فنانة تقوم بأدوار ثانوية . طلبت مني أن أسعى للمطالبة لهـا بنفقة من طليقها بالطرق الودية فإن لم يكن فبالطرق القضائية ، بالإضافة إلى مؤخر صداقها . وحذرتني مـن شراسـته . قلت : أبدأ بالطرق الودية أما لـو أسـتعمل الشراسـة فـي المعاملة فأنا كفيل به . نظرت إلى حجمي باستهانة ولم تعلق .

فعلاً ما كدت أجلس وأطالبه بمطالب الفنانـة ذات الأدوار الثانوية ، حتى نهض وتقدم منى وشدني من كتفي وهو يقول : أذهب . لن أدفع شيئاً . قلت له : أرفع يدك عني حتى لا تندم . استهزأ بي . ونظر إلى قامتي القصيرة . وضحك وهو

يهزني من ملابسي . ثم لكمني في بطني . وكأن يده ضربت ثقلاً حديدياً فتأوه . وسقط على الأرض يتألم . قلت له : لم لا تعاود الكرة ؟ .. نظر إلي والألم لا يزال يعصر يده . كأن يده شلت فلم يستطع أن يحركها . لم يكن يعـرف بطبيعـة الحال أن هناك غلافاً مغناطيسياً حولي يقينـي مثـل هـذه الضربات وإذا رددتها تصيب الآخر بالموت أو الشلل ، فيما عدا الطلقات النارية التي كانت تنفذ رغما عن ذلك من هـذا المجال . ذلك الذي كان يدغدغ النساء من تحتي فيتعلقن بـي في وقتها حتى ينتهي تأثيره .

كان الغضب يهيجه والألم يردعه عن المعاودة . قلت له : إذا كنت تتألم من لكمة أسديتها إلي فما بالك لو سـددت لـك لكمة واحدة مقابلها ؟ ! ..

رفع يده غير المصابة وقال وهو لا يزال منبطحاً علـى الأرض : لا .. لا .. قلت : أستدفع النفقة ؟ .. قال وجبينـه ينضح عرقاً ووجهه لا يزال يعتصره الألم : وهو كـذلك . قلت : أستدفع مؤخر الصداق . قال : إنه كبيـر ، فـأمهلني حتى أكونه . قلت : لا مانع عندي . وشددته لينهض حتـى يجلس . وقلت له : نتفاهم إذن على الورق .. كتابة .

لم تصدق المرأة أنها حصلت على نفقة من طليقها ، وأنها ستذهب كل أول شهر لمدة سنتين لاستلامها من المصرف . مصرف يودع فيه طليقها أمواله السائلة . وقد حرر بلاغـاً إلى البنك بدفع النفقة كل شهر لمدة سنتين .

هكذا إذاً جمعت بين المحاماة والصحافة بل وكتابة السيناريوهات والحوار لشركات الإنتاج السينمائي . كان عملي في المحاماة لا يمنعني من تقصي أخبار الفن والتعليق على الأفلام وكتابة المقالات الفنية بشأنها . وعملي في الصحافة لم يمنعني من مباشرة القضايا من خلال مكتب صغير في وسط المدينة . أذهب إليه في المساء وأراه يعج بالزائرين .

***

لهب بن الشوك

كان من اللازم أن أظهر وتختفي عيوشة مـن أجـل أن أعيش في رفاهية . ولم أجد وسيلة لذلك إلا وهى ترتمي في أحضاني . تحركت يداي تريد خنقها تلكما اللتين قتلتا مـن قبل أم نوار وآخرين . وبدأت أخنقها . وما كدت أفعل ذلك حتى شعرت بيدين كالسلاح تفك أسر العنق ، ويطاح بي في الهواء ، فأطير وأسقط على الأرض برفسة قوية من قدميها .

قالت : كنت أعرف أنك مجرم لذلك استعددت لمواجهتك .

لم أستطع أن أنهـض مـن علـى الأرض . لأول مـرة تضربني امرأة قادرة . ونمت على الأرض وأنا أئن . وهى في فراشها لا تتحرك من الذعر . قاومتني فعلاً لكنها لم تكن تصدق أنني كنت أنوي قتلها . وتحركت في الصـباح ولـم تأخذ كفايتها من النوم وكأنها شلت في فراشها وانزعجت من شللها . وأخيراً امتدت الحياة إلـى أعضـائها وتحركـت . وأعدت الإفطار وأنا أشعر أن ألم السقطة قد بدأ يزول ولـم

أزل طريح الأرض . قررت في ذلك اليوم ألا أنهـي حيـاة عيوشة ، وإلا قد أنهى حياتي .

سافرت ليلاً إلى سوهاج مرة أخرى ، لأستخرج المليـون والنصف مليون من مكمنها . وأبدأ في تنشـيطها واتصـلات بالمستشار الاقتصادي رأفت عوني لنفتتح المحلات الأربعـة التي زعمنا افتتاحها منذ زمن . الأولى في كرداسة ، والثانية فـي القـاهرة فـي حـي الحسـين . والثالثـة فـي الأقصر . والأخيرة في الغردقة . كانت هذه المحلات لبيـع الملابس الوطنية التي يحب الأجانب ارتداءها. وكان ذلك هو النشاط الظاهر أما النشاط الباطن فقد كان فـي تجـارة العملة الصعبة . كانت هذه التجارة قد راجـت ، وأردت أن استفيد من هذا الوضع .

وتحولت المليون ونصف المليون إلى بضائع وقيم محلات . واتصلت بالمغفلين العشرة ليقبضوا أربـاحهم ففرحـوا . سألوني عن سبب الاختفاء المفاجئ أجبت بأني كنت أبحـث عن المحلات التي سنباشر منها العمل . وهكذا كنـت أوزع الأرباح ، وأجنب العملات الصعبة والاتجار فيها وأرباحهـا لصالحي .

لم أحاول أن أسترد نصف المليون التي كانت من نصيب عوني ، حتى جاء بنفسه وطلب أن يكون شريكا بهذا المبلغ . وأدخلت المبلغ إلى بالوعة جيبي ، وليفكر يوماً ذلك المغفـل أن يسترد المبلغ . وقتها سأكون فص ملح وذاب .

لقد كان من الواجب على نفسي أن أهمل عيوشة وأشق طريقي بعيداً عنها ، خصوصاً أنها استولت على أموالي وهددتني أن تفشي سري . ذلك الاسم الذي أنتحله ، ولعلها لو أبلغت عني لعرفت الشرطة ذلك الشقي الذي كان يتاجر في المخدرات وهرب من يد العدالة الأخطبوطية وذلك الرجل الذي كان يدير بيتاً للدعارة وهذا الجاسوس الذي كان يراسل العصابات الإسرائيلية ، وهذا المجرم الذي كان يتاجر في الأسمنت والمواد الغذائية والأفلام الماجنة . ولا أعرف ما هذا الضعف الذي يعتريني إزاءها . هددتني بإبلاغ المدعي الاشتراكي فأُعتقل وتُفرض على أموالي الحراسة فلا أطول بلح الشام ولا عنب اليمن وأنا معها تصلني أموال طائلة . وقد أكبرت فيها صيانتها لشرفي وعرضي رغم إعراضي عنها ، لم أسمع عنها كلمة تمس شرفها أو عرضها وما أكثر الكلام الذي أسمعه في مجالس الأنس . وكان من الممكن أن يتكلموا عنها ولا يعرفون عن علاقتنا الشرعية شيئاً ، فلم أسمع يوماً أنها تصاحب رجلاً أو أنها تعشق آخر أو أنها تختلس الملذات مثلما أختلسها . كان إذا وردت سيرتها باعتبارها مليونيرة يقال عنها أنها رجل رغم أنوثتها الفياضة .

***

أشرف مكواة على محل الأقصر . وكان يورد لي الدولارات والإسترليني وغيرهما أولاً بأول .

يركب الطائرة ليسلمني الإيراد ويعود محملاً بالملابس التـي تزغلل عيون السياح .

وأشرف رأفت عوني على محل الحسين ، فقد كان قريبـاً من سكنه . ولم تختلف وظيفته عن وظيفة مكـواة . وفـي كرداسة والغردقة وظفت أثنين من أفـراد العصـابة كانـت عيوشة قد أطاحت بهما واتهمتها أنهما جاسوسان لي وكانـت قد استقرت في منصبها بقوة . وفرضت إرادتهـا الحديديـة بشكل مذهل على كل العاملين . كيف تفتقت عبقرية عيوشـة بائعة اليانصيب لتصبح هكذا امـرأة لا يسـتهان بهـا ؟ .. وتذكرت نفسي فأنا لم أحصل على شهادة ما وأديـر وأدرت إمبراطورية كبيرة من إمبراطوريات المال . ولم أتعلم غيـر الإنجليزية والفرنسية وقليلاً من العربية بحيث أصبحت أتمكن من قراءة الجرائد ، ولعل تعلم هذه اللغة جاء متـأخراً يـوم حركتني الغيرة من تقدم عيوشة في القراءة والكتابة فأصبحت أقرأ ما تقرؤه . والآن أتابع مفاوضات الحكومة المصرية في كامب دافيد . وألاحظ أن الإسـرائيليين يسـاومون بخبـث ودهاء ، ويكاد الجانب المصري ينصاع لمساومتهم .

وصلني نبأ القبض على مدير المحل في كرداسة . كانت الشرطة تترصده منذ زمن ، وضبطته متلبساً ، لكن الرجـل أقر بأنه دمية وأن صاحب المحل شوكت سـليم الجرجـاوي وراء تجارة العملة . واستدعتني النيابة للتحقيق معي ، لكني أنكرت بشدة معرفتي بتجارة العملة الأجنبية . وخرجت كمـا دخلت نظيف الذيل .

***

عرفت أن نقطة الضعف الوحيدة في حياتي هي عيوشة . كان من الممكن أن أستأجر عدداً مـن الأفـاعي لخطفهـا ، وأتسلم مؤسساتي في غيابها على اعتبار أن المديرة الفعليـة غابت عن العمل وعاد صاحب المـال الأصـيل . وحينمـا تصبح كل الوثائق العرفية والرسمية في يدي أطلق سراحها أو أقتلها ، لكني لم أفعل . تـرددت . خشـيت أن افقـدها . وكانت كالنسمة في يوم ملئ بـالهجير ، لـذلك هادنتهـا . وعرفت عيوشة أنني صرفت النظر عن إيذائها ، فلم تتحول عواطفها نحوي . اعترفت بفضلي في عدة مناسبات .

وقد قمت في ذلك الوقت باستئجار شقة تحت أسم شوكت سليم الجرجاوي ، وأثثتها . وباشرت منهـا نشـاطي علـى شركات الملابس الوطنية الجاهزة للسياح الأجانب والعرب أو للمصريين الراغبين في اقتناء هـذه الملابـس الفـاخرة أو شرائها كهدايا .

ثم استأجرت شقة أخري لتكون فيهـا الإدارة المشـتركة للمحلات الأربعة . ويمكن أن تحدث لقاءات الشركاء فيهـا ، أو لقاءاتي مع مديري المحلات عند تسليم الدولارات المباعة إليهم . وعرف مشترو الدولارات أن يشتروها من هذا المقر . وكانت هناك غرفة سرية داخل مكتبي أضع فيها خـزائن محكمة لتنام فيها الـدولارات ، ولا تفـتح إلا بمعرفتـي ، فالخزائن لا يعرف أرقامها غيري .

وفي يوم دخل رجل مقر الشركة . وكان الساعي قد فتح الأبواب لاستقبال العملاء الراغبين في شـراء الـدولارات . ودخل الرجل إلى مكتبي وجلس ، دون أن يلاحظه السـاعي الذي كان مشغولاً بإعداد فنجان قهوة لي . ولما فتحت الباب ودخلت فوجئت به يجلس إلى مكتبي . سألته :

- من أنت ؟ ..

قال بوضوح : أنا شوكت سليم الجرجاوي .

- ومن أكون ؟ ..

قال : لا أعرف . من تكون ؟ ..

أدركت على الفور أن ابن عمي يطاردني هذه المرة لكن خارج سوهاج . يحاول أن يستولي على الشركة فأرسل لـي هذا الرجل لينافسني على أسمي ويستولي على ممتلكـاتي . يفعل ما حاولنا فعله مع عيوشة لكن فشلنا .

قلت : وما علاقتك بهذه الشركة ؟ ..

قال : أنا مدير الشركة .

تقدمت منه وأنا أسأل : ومن هم شركاؤك في هذه الشركة ؟ . .

قال ببجاحة : ومن أنت حتى أقول لك ؟ ..

قلت : أنا شوكت سليم الجرجاوي .

قال : أنت تنتحل اسمي .

هو شاب في مقتبل العمر . لا يزيد سنه عـن السادسـة والأربعين عاماً . قلت : ربما يكون اسمك مشابه لاسمي؟ . . قال دون أن يجيب على سؤالي : أنت في الستين وأنا في

السادسة والأربعين . إنني عندما بلغت السادسة عشـر مـن العمر استخرجت بطاقة وأنت استخرجت نفس البطاقة بنفس المواصفات فكيف يكون سنك الآن ستة وأربعين عاماً و أنت كما هو واضح في الستين فألا يكون ذلك تزويراً وأسـتحق عنه تعويضاً ؟ ..

- وكيف عرفت أن بطاقتك مثـل بطـاقتي فـي العمـر والأرقام والمهنة .

أسقط في يده وعرف أنه كُشف وأنا أستطرد : ولو فرض أنني انتحلت اسمك ؟ .. فما هي علاقتك بذلك المال وبهـذه الشركة ؟

قال : أريد حقي عن استعمال اسـمي . حتـى لا أبلـغ الشرطة أنك مزور وانتحل اسمي .

قلت : ربما أنت الذي ينتحل اسمي .. من أرسلك يا ولد ؟ ..

قال مضطرباً : لم يرسلني أحد .

قلت له : إذا كنت تريد أن تبلغ الشرطة فهيا أذهب مـن هنا . أريد أن تعرف أن جزاء الذي يقف في طريقي هو أن أزيحه من هذا الطريق . ويمكن أن تختفي بنفسـك قبـل أن أخفيك بيدي .

يبدو أن أبن عمي أوصاه أن يتبجح فلم يستطع أن يتمادى وأرتعد لما تقدمت منه ووقف يواجهني . لم يكن طويل القامة مثلي . ولم تكن عيناه السوداوان قادرتين على مواجهة عيني

الحمراوين . شددته من وراء المكتب وقلت له : أذهب فـي الحال وإلا قتلتك . لا ترني وجهك مرة أخرى .

لم كل هذه التمثيلية ؟ .. لا أعرف ماذا يقصد من ورائها ابن عمي . ألا يكتفي بهذه الفدادين التي أختلسها عنوة ، ولم أرتكب معه أي فعل ؟ .. لم يريد أن يبتزني ؟ .. يريـد أن يجعل حياتي قلقة حتى يمكنه أن يسـود علـى . ايريـد أن يستولي على الشركة الناجحة التي أسستها . ومن أخبره ؟ .. لعل مكواة روى له مدى التقدم والنجاح اللذين أحرزتهما في وقت قصير ، فهو يزور القرية من حين لآخر حينما قرر أن يتزوج . فنحن أهل سوهاج نقيم العائلات فـي سـوهاج ونعمل ونقيم خارج سوهاج تاركين عائلاتنا فيها ونزورهـا من حين لآخر . ولعله في زيارة لعائلته أفضـى إليـه بمـا يحدث معي من ثراء .

لكن ماذا أفعل الآن إزاء هذه الأفعال الصبيانية ؟ .. لقـد أقتبس ابن عمي اللعبة مني يوم أرسـلت عائلـة المرحـوم محسن حسني الحسيني لتلاعب عيوشة على عرشها .. على تلك الأموال التي حجزتها عني . وها هو يحاول أن يظهـر لي رجلاً في السادسة والأربعين ليستولي على أموالي علـى زعم أنه شوكت سليم الجرجاوي . الملعون ! .. لقد اتفقـت معه حينما يستخرج بطاقة أن يسميني بأسماء مات أصحابها لا بأسماء أحياء . ففي حالة الأمـوات لا يسـتطيع أحـد أن يدعي بشيء . أما في حالة الأحياء فها هو السـيد شـوكت

الجديد يريد أن تؤول أموالي إليه . ومن أدراني أنه لم يزور بطاقة جديدة بنفس الاسم لهذا الشخص .

خرج شوكت الجديد مسرعاً وقبضة يدي على كتفه تؤلمه . لم يكن ينتظر أن يجد جثة كبيرة تواجهه . كان عليـه أن يتمرن على الكاراتيه مثل عيوشة حتى يواجـه مقـاومتي أو يواجه قوتي .

***

كان على أن أضع حداً لابن عمي وافتـراءه .. حتـى لا يستمر في ملاحقتي ، ويهددني في كل لحظة .

سافرت إلى سوهاج ليلاً ودخلت القرية عند الفجر . ونمت نوماً هادئاً حتى فجر اليوم التالي . وتوجهت إلـى دار ابـن عمي ، لما دخلت عليه وجدته جالساً يتشاور مـع المـدعو شوكت سليم الجرجاوي في أمر مناوشتي مرة أخرى . ذعر وهو يراني شاهراً سلاحي . وأطلقت رصاصتين في قلبـه ، ورصاصة في قلب شوكت المزعوم . ولمـا تأكـدت مـن وفاتهما ، أضرمت النار في مضيفة الدار . وأشتعل الأثاث . وأسرعت النار تنفذ إلى داخل الدار ، وأنا أسير على مهـل عائداً إلى داري . لا أدري ما إذا كانت النار سـوف تلـتهم أفراد عائلته أم سيتمكنون من الفرار منها .

لم أنم في الدار . قبل أن أغادرها خبأت المسـدس فـي مكانه الأمين تحت البلاط . حتى إذا ما أتهم أحـد صـاحب الدار بالقتل ، وتم التفتيش فيها ، لا تجد الشـرطة أي آلـة ارتكبت بها الجريمة . وقفلت راجعاً إلى القاهرة في قطـار

الصباح ولم يشاهدني أحد من أهل القرية . ونمت نوماً هادئاً حتى وصلت إلى محطة مصر .

دخلت دار شوكت الجرجاوي لأنام نوماً طويلاً . كأنما لم أنم دهراً لا ينتهي فيه الزمن . واستغربت أن أنام ذلك النوم ، مع أني كنت قليل النوم . تكفيني غفوة لأفيق بعدها وأباشر نشاطي بهمة .

***

سافرت إلى مرسى مطروح لأول مرة منذ أعوام ، حتـى أستنشق هواء نقياً . لم أر هذا المكان منذ الحـرب العالميـة الثانية ، يوم عدت أنا ونوري قائدين لجـوادين . وتـذكرت نوري ذلك الصديق الوفي في عالم الأجرام . وكنت أريد أن ألقي عليه محاضرة عنوانها الوفاء وأنا على مشارف العالمين . كذلك محاضرة أخرى عن عالمي الفضيلة والرذيلة ، لكن لم أجده أحداً يستمع لي .

هناك شاهدت نوار يجلس على الشاطئ في صـباح أحـد الأيام .. كان يتأمل البحر بعمـق ، والأمـواج والأصـداف تلاعب إحداهما الأخـرى . والرمـال تأكلهـا الأمـواج . والأرض والماء ينحسر عنها ويعود يغطيها ويغمرها .

- أنت هنا ؟ ..

- من أنت ؟

- هل نسيتني ؟ .. أنا الذي أنقذك من حيـاة عـاجزة ، وأنقذك من معاش أدى بك إلى فقر مدقع . أم لعلك نسيت أنك استوليت على أموالي وهربت بها .

قال : أنا لا أعرفك . ولم أرك أبداً ..

- كيف تقول ذلك ؟ هل فقدت الذاكرة ؟ .. ألسـت بـلا قدمين وأنا اشتريت لك القدمين الصناعيتين .

سكت ولم يجب .

قلت : من أي طين أنت ؟ ..

يبدو أنه تشجع فقال : من طينك ! .. أو من مائك أو من نارك .

أفاجأ بنوار يتفلسف مثلما كنت أتفلسف مع نوري ومكواة :

- على العموم لا فرق بين الطـين والنـار .. الطـين موجات متجمدة صلدة ، والنار موجات متطـايرة غيـر مستقرة دون نسق معين . الضوء موجات متطايرة ذات نسق واحد . والماء موجات متجمدة سـائلة . والهـواء موجـات متجمدة غازية . لكنها جميعها من أصل واحد ولكنه يتغيـر من صورة إلى أخرى . قد تكون النار أول الدرجات الموجية بل قد تكون نتيجة للموجات الصلدة ، أما الطين فلا يختلـف عنها إلا في الصورة لكنها جميعا مجرد موجات .

قلت أغير الحديث:

- لكني لست لصاً يسرق أموال الغير .. ويهـرب بهـا وحينما يواجهونهم ينكرهم .

استهزأ وقال : بل أنت أكثر من ذلك . إن أمي التي فقدتها . روت لي أنك قاتل ولص وسارق ومغتصـب للأراضـي والعقارات والمنقولات . بل مغتصب للأعراض . اغتصبت

عرضها . وكنت أنا ثمرة هذا الاغتصـاب . لقـد أردت أن أحرق قلبك مثلما حرقت قلبي فاستوليت على نقودك وهربت بها ، واستوليت على عشيقتك وجئت بها إلى هنا لتعيش معي . ماذا في إمكانك أن تفعل بي ؟ ..

- لقد سامحتك . ولو لم أكن سامحتك لكانـت الشـرطة تطاردك حتى الآن ، لكنك تعيش معززاً مكرماً .

- لعلك سامحتني لأني ابنك .

- هكذا قالت لك أمك .

امسكني وهزني وهو يسألني : أين هي أمي . ماذا فعلت بها ؟ ..

قلت وأنا أزيح يديه من كتفي :

- أرحتها .. لعلها الآن لا تشكو من شئ .

عرف مقصدي فدمعت عيناه وتراخـت أعضـاءه وهـو يسألني : من أي طين أنت ؟ ..

قلت له : أنا لست من طين .. أنا من نار .

***

وهكذا سيستمر خير الله الورد يعترف بفضائله ومن بعده لهب الشوك يعترف برذائله طالما كانا على قيـد الحيـاة . والحياة نفسها لا تخلو منهما في كل الأمـاكن وفـي كـل العصور .

الرياض في ٢٣ يونية ١٩٩٦